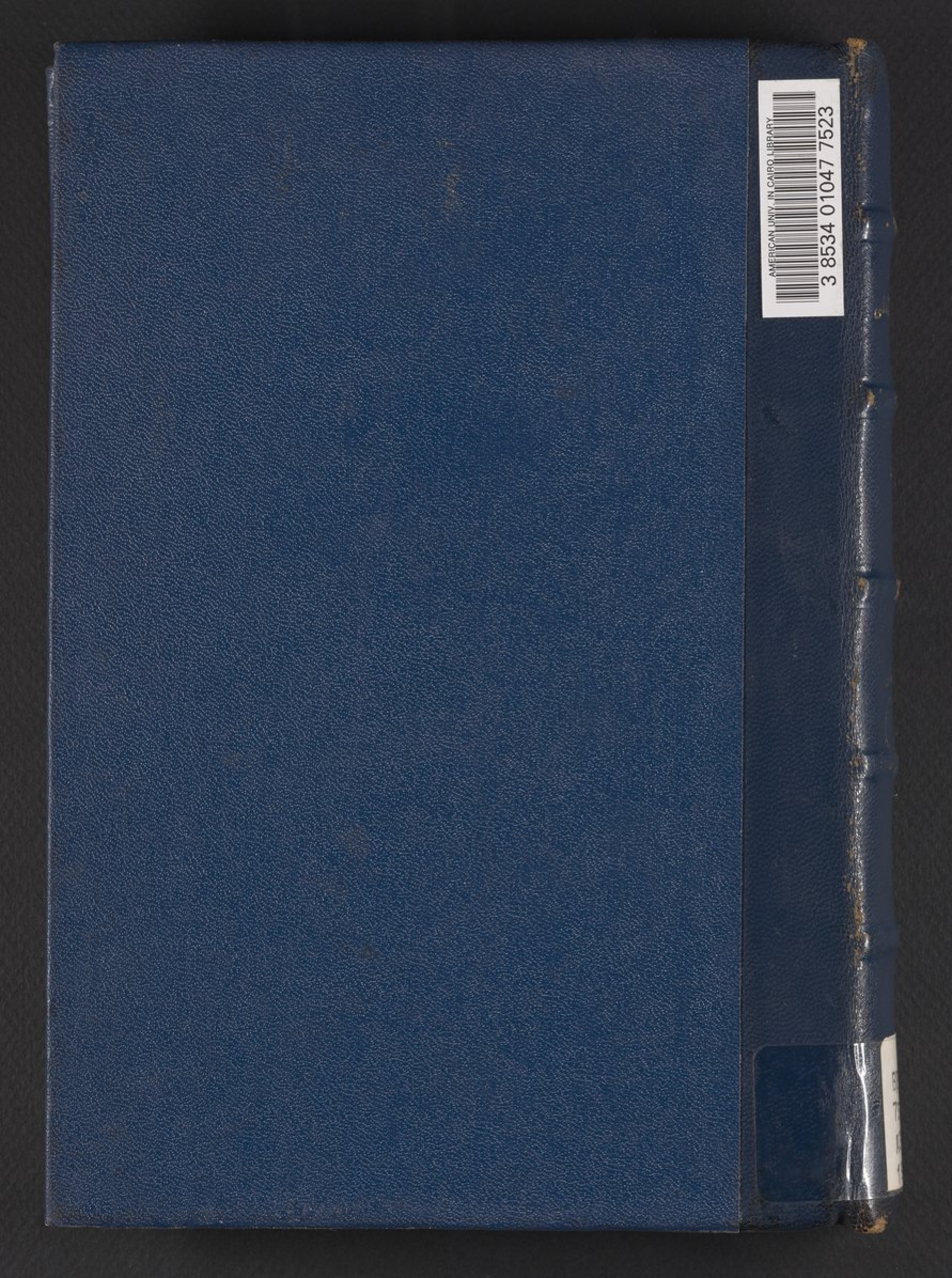

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01047 7523







سعيد الأفغاني

ابن حزم الأندلسي

ورسالة

في المفاضلة بين الصحابة

« كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين »

« ابن العريف »

المطبعة الهاشمية بدمشق

١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م

طبع بنفقة
المكتبة الهاشمية لأصحابها محمد هاشم الكتبي وشركاه بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ❀ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ❀ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ❀ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ❀ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ .

« رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً »

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين وسائر من أحببته على الحق فجاهد في سبيله ومات عليه .

المقدمة

وجدتني مندفعاً إلى دراسة الإمام ابن حزم ، بدافع من القلب والعقل ، أنا بتأثيره بين الحب له والإعجاب به . وكل من قرأ تراث ابن حزم بإمعان ، أكبر فيه العقل الواسع والفكر الخصب والغور البعيد والعبقرية العجيبة . وليس أحد يدرس حيـاته إلا غمره التقديس لمجاهد رفع من شأن الحرية الفكرية ، وذهب بها كل مذهب ، فعاش من أجلها شريداً ومات في سبيلها مجاهـداً شهيداً . واتخذها طول حياته ديناً له ينافح عنه ويلاقي في سبيله من الأذى والعنت والتشريد مايهيض الجبال الرواسي وينوء بعضه بالعصبـة أولي القوة .

وسترى في الصورة التي نحن عارضوها عليك بعد كلمتنا هـذه ، أن ابن حزم صبر وصابر ، وجاهـد وجالد ، واستمرت مريرته على استساغة الأذى في جانب الله ، فاستهان بالعدوان ووقف دمه وماله وجاهه على الجهر بما يرى أنه الحق ، فضرب بالوزارة وجاهها عرض الحائط ، وأقبل على الله يعزز كلمته وينصر دعوته . يتعرض للشقاء في ذات الله تعرضاً وهو الذي درج في بيت الغنى العريض والجـاه

العظيم وشب في أحضان الوزارة وتقلب في أعطاف النعيم . يجد في هذا التعرض لذته وسعادته ويجبه الجماهير والسلاطين بكل صادعة مزعزعة فيستحلي مايقابلونه به من الصد والإعراض والسجن والإبعاد .

ولو لم يكن في ابن حزم إلا أنه حر الفكر ، قوال بالحق ، جبّاه به ، حتى أُلب عليه الجن والإنس ، لكفى بذلك حافزاً لمثلي على حبه وإكباره ودراسة حياته ونشر فضله والمساهمة في تخليد اسمه .

ولا أكتمك أسفي على أن أحداً حتى الآن لم يعن بهذا الإمام العظيم الذي ملأ المشرقين علماً وأدباً ، وشغل التاريخ بأمره وأمر حركته وكان ملء سمع زمانه وبصره . ومن الخسران العظيم ألا يكون في مكتبتنا العربية سيرة لابن حزم تصوّر فيها حياته ونفسه الصورة الصحيحة ، بحيث يشعر قارئها بأنه عايش الرجل وصاحبه من نشأته حتى مماته وأدرك أموره ظواهرها وبواطنها ووقف على سر عظمته حتى ما يخفى عليه منها شيء ... على غرار ما يعنى الغربيون بمفكريهم العظام الأحرار . فلما وطدت العزم على نشر رسالته (في المفاضلة بين الصحابة[1]) ، وانتهيت من مقابلتها وضبطها والتعليق عليها ، انتدبت لسد تلك الثغرة ، فدرست حياته الحافلة ، بما وسعه جهدي وبلغته طاقتي على ضعفي وقلة بضاعتي .

هذا وإن يكن في حياة الذين انتشلهم العلم من البؤس والضيق إلى المقامات العلى شيء من العجب ، ففي حياة الذي طوّح بالمقامات العلى وبالغنى والنعيم والترف إلى الضيق والتشريد من أجل العلم

(١) سيأتي الكلام عليها في موضعه بين يدي الرسالة .

والحق ، العجب كله . وهذا لعمري هو الحري بالإعجاب الحقيق بالتقديس .

أسأل الله أن ينفع بسيرته ذوي الهمم الفاترة والعزائم الخائرة ، ممن يدّعون نصرة الحق يعلنونها ويسرون أن يبيعوا الحق وأهله بعرض من الدنيا قليل .

ومن الله أستمد المعونة والتوفيق والسداد .

دمشق :
غرة رمضان سنة ١٣٥٠ هـ
١٩٣٩/١٠/٤م

سعيد الأفغاني

القسم الأول

حياة ابن حزم

أ – عصره

ب – أصله ونشأته وشبابه

ج – طلبه وعلمه ومصنفاته

د – مذهبه

هـ – أدبه

و – حبه

ز – أخلاقه

ح – مزاجه

ط – هو والناس

ي – وفاته

[illegible]

[illegible]

ا — [illegible]

ب — [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

حياة ابن حزم

آخر رمضان سنة ٣٨٤ — ٢٨ شعبان سنة ٤٥٦ هـ
٧ تشرين الاول سنة ٩٩٤ — ١٥ آب سنة ١٠٦٤ م

أ - عصره (٣٥٠ — ٤٧٠ هـ)

ابن حزم من أينع الثمرات التي انشق عنها فردوسنا المفقود (الأندلس) فهو من أعلام الدين ، والشعر والأدب ، والسياسة والتاريخ والفلسفة ، وممن ولي الوزارة هو وأبوه ، وممن تعرض للنكبات والإبعاد ... وذلك كله يحتم علينا قبل البدء بالترجمة له ، أن نلم - في إيجاز - بمجمل الحالة السياسية والفكرية في القرن الذي شهد آثار عبقريته المعجزة ، ونعني بذلك الفترة بين سنتي (٣٥٠ — ٤٧٠ هـ):

***

توفي الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر سنة (٣٥٠ هـ) بعد أن تمتع العرب بالأندلس في حكمه ، بأيام تزري بأيام الرشيد في بغداد : فقد قضى على الاضطرابات السائدة لأول حكمه ، وأدّب الخارجين عليه ، وقهر أعداءه الطامعين به ، وأرهب الإسبان ، وضمن للناس رخاءً وأمناً ما سمح الزمان بمثلهما ، ووطد ملكاً على آساس متينة . ساعده على هذا عقل راجح ، ودهاء واسع ، ووطنية مخلصة

ورجولة كاملة ، مع بأس شديد وصفح جميل وهمة بعيدة ، فاجتمعت الأندلس عليه ونعمت في عهده وازدهرت . ورفع للعلم صرحاً باذخاً فأغدق العطايا على العلماء وأوسع لهم مجالسه وفتح خزائنه . وكان من حظ الأندلس أن دامت ولايته خمسين سنة نسيت فيها ما أصابها من شدائد . ولم يؤخذ عليه طول أيامه إلا تقريبه الموالي تقريباً أضعف العصبية العربية فيما بعد . ولا يبعد عن ذهنك أن الذي عجل خراب الأندلس فريقان : (الإسبان) العدو الخارجي ثم البرابرة والصقالبة وهم الجراثيم الداخلية التي فعلت في الجزيرة ما فعل الموالي من الفرس والأتراك في خلافة العباسيين ببغداد .

تربع على عرش الخلافة بعد الناصر ابنه الحكم وهو أعلم الأمويين وأحكمهم على الإطلاق ، فسار بسيرة أبيه فغزا الجلالقة الذين طمعوا في الثغور ، وانتقض عليه بعض الحكام الإسبان فحاربهم وعقدوا معه المعاهدات ثم تفرغ لتنشيط الحركة العلمية وكان قد بدأ ازدهارها في عهد أبيه الناصر ، فاجتمع له من العلماء وكتب العلم ما لم يجتمع لغيره قط . وجميل بنا أن نروي لك مبلغ عنايته بالعلم عن ابن حزم نفسه قال :

« إن عدة الفهارس في خزانة الحكم العلمية ، التي فيها نسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، في كل فهرسة عشرون

ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط[1] » وقال المقري :

« جمع من الكتب مالا يوصف كثرةً ونفاسة حتى قيل إنها أربعمائة ألف مجلد ، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها ... (وإنه) قلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر ، في أي فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن[1] . »

ولم نطل مع الأسف مدة حكمه أكثر من ست عشرة سنة ، كان فيها بعد أبيه كالمأمون بعد الرشيد ، بل إن هذا الذي ذكره المقري من قراءته الآلاف المؤلفة من المجلدات وتعليقه عليها وخبرته بتواريخ أصحابها وفنونها شيء لم نسمع مثله لمخلوق آخر لا خليفة ولا عالم .

توفي الحكم سنة (٣٦٦ هـ) وبوفاته انقضى العهد الذهبي للأندلس وبدأ عصر الفوضى والاضطراب والتغلب وتمزيق الكلمة وطمع الأعداء . ولم تقم بعده للأمويين قائمة . ولئن ولي الأمر بعده خلفاء من أمية ، إن هذه الولاية لم تكن إلا اسماً لا رسم له .

---

(١) نفح الطيب ١ : ١٨٤ ، ١٨٥

وانفسح الأمر للوزراء والحجاب[١] المتغلبين فمثلوا في الجزيرة أدوار الأفشين وبغا وآل بويه مع الخلفاء ببغداد .

ولي الأمر بعد الحكم ابنه هشام المؤيد وكان عمره عشرة أعوام وأشهراً فأخذ شأن الخلافة بالضؤول وتسنى لابن أبي عامر أن يقضي على حقيقتها ويبقي اسمها فنشأت بذلك دولة بني عامر وإليك البيان :

كان المنصور بن أبي عامر هـذا وكيلاً للسيدة صبح أم هشام على عهد الحكم ينظر في أموالهـا وضياعها فسعت لدى الحكم حتى ولاه القضاء وبدت له فيه كفاية واسعة . فلما ولي هشام على حداثته تسلم المنصور الحجابة ، وقبض على ناصية الأمور واستبد بها ، ورسم لنفسه خطة للقضاء على كل من يمكن أن ينازعه الأمر يوماً من الأيام . وأفضل أن أطلعك على شرح المقري لخطة المنصور فإنه خير من يعينك على فهم الحالة السياسية حينئذ ، وما يحف بها من مكائد وتقلبات ثم يوضح لك سبب النكبات التي حلت بابن حزم فجعلته يهيم بين السجون والمنافي ناجياً بنفسه من بلد إلى بلد كما سيمر بك . قـال المقري :

---

(١) وظيفة الحـاجب في الأندلس تشبه وظيفة رئيس الوزراء لعهدنا ، فهو الواسطة بين الوزراء والخليفة .

« .. ثم سما لابن أبي عامر أمل في التغلب على هشام لمكانه في السن ، وثاب له رأي في الاستبداد ، فمكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضاً ببعض ... ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه فمال عليهم وحطهم عن مراتبهم وقتل بعضاً ببعض ، كل ذلك عن هشام وخطه وتوقيعه ، حتى استأصلهم وفرق جموعهم . وأول مابدأ بالصقالبة الخصيان الخدام بالقصر فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم فنكبهم وأخرجهم من القصور وكانوا ثمانمائة أو يزيدون . ثم أصهر إلى غالب مولى الحكم وبالغ في خدمته والتنصيح له واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة ثم استعان على غالب بجعفر بن أحمد صاحب المسيلة ، وقائد الشيعة ممدوح بن هانئ ... ثم قتل جعفراً بممالأة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم . ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدوة من زناتة والبربر فرتب منهم جنداً واصطنع أولياء ... فتغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة .... وقدم رجال البرابرة وزناتة وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم . فتم له ماأراد من الاستقلال بالملك ..... وتسمى بالحاجب المنصور ، ونفذت

الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ومحا رسم الخلافة بالجملة ، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر وكتب اسمه في السكة ... وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب فغزا ستاً وخمسين غزوة لم تنكس له فيها راية ولا فلّ له جيش .»[1]

بقي الأمر مستمسكاً على عهد الحاجب المنصور لأنه كان من أعظم السلاطين دهاء وحزماً وهيبة في القلوب . دامت أيامه سبعاً وعشرين سنة ثم خلفه ولده عبد الملك وتلقب بالمظفر فسار في الحجابة سيرة أبيه في الجملة سبعة أعوام ثم توفي سنة ٣٩٨ هـ فخلفه أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر وحاول أن يزيد من سلطانه فحمل الخليفة المستضعف هشاماً المؤيد على العهد له بالخلافة بعده ، فثارت لذلك ثائرة الأمويين وسائر المضريين لأن السلطة الفعلية التي مارسها الحاجب المنصور — وهو يمني — كانت قذى في عيون المضريين كافة وسكتوا على مضض حتى طفح الكيل . وكان عبد الرحمن دون أبيه وأخيه كفاية وأكثر أطماعاً ، وزاد الأمر تسلط البرابرة والصقالبة ، مما أغضب المضرية واليمنية جميعاً ، وكانت فتنة خلع فيها المؤيد وسجن ، ورجع عبد

---

(١) نفح الطيب ١ : ١٨٥

الرحمن الحاجب من غزوه ليتلافى الأمر فانفض عنه أنصاره وثار به جنده وقتل سنة ٣٩٩ هـ وانتهى بذلك أمر الدولة العامرية .

بايع الناس لمحمد بن هشام بن عبد الجبار وتلقب بالمهدي وبدأ يشدد الوطأة على البرابرة فثاروا به فأزعجهم عن قرطبة ثم هاجموا المدينة فخلعوه ففر وبايعوا بعده سليمان بن الحكم بن الناصر وتلقب بالمستعين سنة ٤٠٠ هـ فلم يفجأ الناس إلا المهدي مستجيشاً بملك قسطيلة الإسباني ، فاسترد ملكه وحارب البربر فانهزم فقتلوه وأعادوا هشاماً المؤيد ثانية سنة ٤٠٣ هـ وبدأت المهازل تترى بين المتقاتلين على الإمارة يستعين كل منهم بعدوه وعدو بلاده على أخيه وابن عمه ... ثم قتل هشام وأعيد المستعين ونهض خيران العامري يكاتب الأدارسة ويحرض الناس على خلع المستعين ، حتى جاء علي بن حمود العلوي من الأدارسة وملك قرطبة سنة ٤٠٧ هـ وقتل المستعين فانقرضت دولة الأمويين وبدأت دولة العلويين . أوجس خيران العامري خيفة من ابن حمود فسعى سراً ليعيد الأمر إلى الأمويين بعد أن كان سعى في خروجه منهم ، وشاء الله أن ينجح المسعى فبايع أكثر الأندلس عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ولقبوه بالمرتضى سنة ٤٠٨ هـ وتغير المرتضى على خيران وكانت بينهما أحداث انتهت

ببيعة عبد الرحمن بن هشام أخي المهدي ولقب بالمستظهر سنة ٤١٤ هـ . وتعاقب المستضعفون من أمية والأمر بينهم وبين العلويين دول ، حتى بويع هشام بن محمد المعتدّ بالله سنة ٤١٨ هـ فاضطربت ولايات الأندلس وهب أمية بن عبد الرحمن بن هشام يطلب البيعة لنفسه في هذه الاضطرابات والفتن القائمة ، حتى سئم الناس الأمويين ونادى أهل قرطبة بالأسواق والأرباض بالوقيعة في الأمويين حتى لايبقى منهم أحد فكان آخر خلفائهم هشام بن محمد وختم ملكهم سنة ٤٢٢ هـ .

انقرضت الخلافة الأموية ، واستقل كل وال بولايته ، وبدأ عهد ملوك الطوائف في الأندلس : فاستبد ابن جهور [1] في قرطبة

---

(١) كان أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور هذا رئيس الجماعة بقرطبة ؛ فلما خلت من بني أمية نهض بمقاليد الأمور خير نهوض فاستتب الأمن وعمرت قرطبة وسار في الناس سيرة الصالحين : يعود المرضى ويشهد الجنائز وأشرك في أمره اثنين ليكون شورى واستشعر الناس في عهده شيئاً من الطمأنينة إلى أن مات سنة ٤٣٥ هـ فقام بالأمر بعده ولده محمد بن جهور وطالت مدته ثم ضاق به أهل قرطبة فخلعوه سنة ٤٦١ هـ ولم يكن ابنه عبد الملك الذي ولي الأمر بعده بأسعد حظاً ، إذ أنه أساء السيرة فأخرج من قرطبة . ثم استولى عليها المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٨٤ هـ .

وابن عباد في إشبيلية ، وبقي الأمر هكذا مشتتاً لانظام له والفتن بين الملوك الصغار لاتهدأ ثائرتها حتى ملك الأندلس رجل واحد هو يوسف بن تاشفين ملك الملثمين في بر العدوة .

هذا هو عهد احتضار الدولة الأموية وانقضاء أيامها ، العهد المضطرب المخيف الذي شهده عالمنا ابن حزم ، مررت بأهم أحداثه مراً سريعاً ، لتبقى في ذهن القارئ حين يمر بحياة ابن حزم المشردة . وليعظم هذه العبقرية التي نجمت في عهد الاضطراب الإعظام اللائق بها . ولا يحسبن أحد أن الناس في هذه القلاقل كابدوا شظفاً من العيش أو ضيقاً في أساليب الحياة ، بل إن الأمر على العكس ، لقد رتعوا في بحبوحة من عيش رغد ورخاء دائم ونعيم مقيم وعلوم زاخرة ، وحياة فكرية خصبة لولا ماشابها أحياناً من ممالأة المتسلطين للعوام في تتبع كتب الفلاسفة والمشتغلين بها ، وضمنت لهم حضارتهم الزاهرة ألواناً من الترف واللذائذ والبذخ [١] ماأظن أننا نتمتع بمثلها لهذا العهد . والمؤرخون مجمعون على أن الدول تنقرض وهي أكثر ماتكون تنعماً وخيراً وحضارة وسعة . ولعلك تذكر أن البربر محوا الدولة الرومانية و (رومة) ترفل بأسبغ حلل الحضارة والترف والنعيم ، وأن

---

(١) سيمر بك بعض ذلك بتصوير ابن حزم نفسه لمجتمعه .

الدولة البيزانطية انقرضت على أيدي العثمانيين الخشنين حين بلغت علومها وآدابها ونظمها وبذخها الغاية التي ما بعدها غاية ، وأن التتار قضوا على الدولة العباسية : وحضارة بغداد يومئذ في الذروة ، فما كان ضيق الفكر وقلة العلم وبساطة العيش نذير الانحلال في يوم من الأيام ، إنما نذير الانحلال هو الانحطاط الخلقي الناشئ عن بسطة العيش والانغماس في حظوظ النفس ثم التفكك الاجتماعي الملحوظ في تفرق الأمة وتمزق كلمتهـا وخروج بعضها على بعض واستعانة بعضها على بعض بالأعداء ٠٠٠ سنة الله في عباده ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ٠

ولست أغفل هنا الإشارة إلى ظاهرة اجتماعية سيطرت على الأندلس كما سيطرت في المشرق ، عنيت بها اتخاذ الدين وسيلة إلى الدنيا وذريعة إلى الغض من الخصوم ، فقد كان السلاطين لايعفّون عن إثارة الناس على من يحقدون عليه ، كما كان بعض العلماء أسرع استجابة إلى تهييج الجماهير على من يخالف لهم مذهباً أو ينافسهم في جاه أو ينتزع منهم سلطة ، أو من يخشى إقبال الناس عليه لمواهبه وفضله وكفايته ٠ ولا أطيل في هذا لأن حياة ابن حزم كلها خير شاهد ومثل لما قررت ، وستأتيك على جليتها ٠

د — أصله ونشأته وشبابه

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد . ويزيد هذا الذي إليه ينتهي نسبه كان مولى ليزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية أخي معاوية ، والذي كان القـائد لجيش الأردن أيام الفتح لعهد عمر بن الخطاب . جده الأعلى (يزيد) فارسي أسلم (وكان نصرانياً[١]) نسبته للأمويين نسبة موالاة . وأول من دخل الأندلس من آبائه هو خلف وقد استوطنوا قرية (منت ليشم) أو (مُنْتلِجَنْم) في أقليم (الزاوية) من عمل (أونَبَة) من كورة (لبْلة)[٢] ، على نصف فرسخ من مصب الأوديل غربي الأندلس على البحر . ثم سكن آباؤه قرطبة .

---

(١) المعلمة الإسلامية .

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان : « لبلة قصبة كورة بالأندلس كبيرة يتصل عملها بعمل أكشونية . وهي شرق من أكشونية وغرب من قرطبة ، بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام وأربعة وأربعون فرسخاً ، وبينها بين إشبيلية اثنان وأربعون ميلا . وهي برية بحرية غزيرة الفضائل والثمر والزرع والشجر ، ولأدمها فضل على غيره ، ولها مدن . وتعرف لبلة بالحمراء . وهي مدينة قديمة فيها آثار عجيبة وهي على نهر طنتس وبها عين الشب وعين الزاج . ومن لبلة يجلب الجنطيانا أحد عقاقير العطارين . ينسب إليها جماعة منهم ... الخ

ولد بقرطبة بالجانب الشرقي من ربض منية المغيرة بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر ليلة الأربعاء ، آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٤ ﻫ (٧ نوفمبر سنة ٩٩٤م) ، بهذا كتب ابن حزم بخطه إلى القاضي صاعد[1] بن أحمد الأندلسي صاحب طبقات الأمم المتوفى سنة ٤٦٢ ﻫ . وأسرته كما قال الفتح بن خاقان : « بنو حزم فتية علم وأدب وثنية مجد وحسب » ولي الوزارة منهم غير واحد ونالوا بقرطبة جاهاً عريضاً . وكان أبوه أحمد بن سعيد من عظماء الوزراء ، ولي الوزارة للحاجب المنصور ابن أبي عامر ثم لابنه المظفر من بعده . وهو — على رأي ياقوت — الذي بنى لبني حزم مجدهم وذكرهم . ومن الطريف أن ننقل لك شك ياقوت في نسبتهم الفارسية وهو يرويه — على ما أرجح — عن كتاب مفقود لصاعد اسمه (أخبار الحكماء) في جملة قول لابن حيان قال:

---

(١) وجميع من ترجم لابن حزم عيال على صاعد في تعيين تاريخ ولادته وفي كثير من أخباره ، وأكثرهم — ومنهم ياقوت — ينقل عبارته بنصها . ولم يشذ إلا ياقوت في كتابه (إرشاد الأريب) إذ نقل عن صاعد أن ميلاده سنة ٣٨٣ وظاهر أن هذا سهو من الناسخ أو الناشر : لأن كتاب صاعد نفسه وبقية المصادر الناقلة عنه أجمعت على أن ميلاده سنة ٣٨٤ كما ذكرت أعلاه . وذلك يتفق وقول ياقوت نفسه بأنه مات عن اثنتين وسبعين سنة .

« وكان من غرائبه انتماؤه في فارس ، واتباع أهل بيته له في ذلك ، بعد حقبة من الدهر تولى فيها أبوه الوزير ، المعقل في زمانه ، الراجح في ميزانه أحمد بن سعيد بن حزم ، لبني أمية أولياء نعمته ، لا عن صحة ولاية لهم عليه ، فقد عهده الناس خامل الأبوّة ، مولّد الأرومة ، من عجم لبلة ، جده الأدنى حديث الإسلام لم يتقدم لسلفه نباهة ، فأبوه أحمد على الحقيقة هو الذي بنى بيت نفسه في آخر الدهر برأس رابية ، وعمده بالخلال الفاضلة من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأي . فاغتدى جرثومة سلف لمن نماهم ، أغنتهم عن الرسوخ في أول السابقة . فما من شرف إلا مسوق عن خارجيته ، ولم يكن إلا : كلا ولا ، حتى تخطى عليٌّ هذا (صاحب الترجمة) رابية لبلة فارتقى قلعة إصطخر من أرض فارس ؛ فالله أعلم كيف ترقاها ، إذ لم يكن يؤتى من خطل ولا جهالة ، بل وصله بها وسع علم ، وشجته رحم معقوقة ، بلّها بمستأخر الصلة رحمه الله . »

توفي أبوه كما يروي المقري عن ابن حيان بذي القعدة سنة اثنتين وأربعمائة وكان منشؤه ومولده بقرية تعرف بالزاوية ، (من أقاليم أكشونية بالأندلس) بعد أن ساءت حاله وتتابعت

عليه المحن والنكبات والتغريم في آخر سنيه ، ولا يبعد أن يكون مات قهراً بعد ذلك العز الشامخ .

***

في هذا البيت نشأ ابن حزم ، نشأة المترفين المنعمين ، تحيط به العناية من كل صوب ، (يلبس الحرير ولا يرضى من المكانة إلا بالسرير[1]) ويتقلب في أعطاف النعيم ، غير مكلف بعمل حتى مات أبوه سنة ٤٠٢ هـ . ولقد ترك لنا رحمه الله معلومات قيمة عن نشأته هذه في كتابه (طوق الحمامة) ، فقد عرفنا منه شيئاً من صفة داره وسعتها و كثرة أهل بيته ، قال في معرض الكلام على جارية عرفها في صباه : « فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ودخلة أخي رحمه الله ، من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ، ممن يخف موضعه ويلطف محله ، فلبثن صدراً من النهار ثم تنقلن إلى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها (مساكنها) مفتحة الأبواب فصرن ينظرن من خلال الشراجيب ... الخ[2] » وهذه فقرات نقتطفها من

---

(١) كلمة صاعد فيه .

(٢) ص ١٠٨ طبع (دمشق ١٣٤٩ هـ) وعن هذه الطبعة جميع النقول التي ستمر بك .

وصفه خراب دوره ومنها نعلم ما كانت عليه من الأنس والعمران « ... بعد رجال كالليوث وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الفاشية ... تلك المحاريب المنمقة والمقاصير المزينة التي كانت تشرق إشراق الشمس ، ويجلو الهموم حسن منظرها ... طالما زهدت في تركها وتذكرت أيامي بها ولذاتي فيها وشهور صباي لديها مع كواعب إلى مثلهن صبا الحليم ... بعد ما علمته من حسنها وغضارتها ، والمراتب المحكمة التي نشأت فيها لديها ، وخلاء تلك الأفنية بعد تضايقها بأهلها ... الخ [1] » وكانت نعمة والد المترجم — على مايظهر — فاشية ، وغناه مستفيضاً فكانت له دور محدثة ودور قديمة : « ثم انتقل أبي رحمه الله من دورنا المحدثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث ، في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة وانتقلت أنا بانتقاله وذلك في جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ [2] »

هذه هي القصور التي درج فيها ابن حزم ، أما نشأته الأولى فهي غريبة حقاً ولعلها هي السر في نبوغه وعبقريته ، بل إليها يرجع الأثر الأكبر في تخريجه على تلك الصورة الفذة التي لم

---

(١) ص ٩١ (٢) ص ١١٠

يشبهه فيها أحد من أعلام الإسلام ، لافي الشرق ولا في الغرب على مدى القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة ، ذلك أنه نشأ في حجور العالمات المربيات من أهل بيته . ولابن حزم نفسه نحن مدينون بالشيء الكثير في أخبار طفولته وبقية حياته قال :

« ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيري : لأني ربيت في حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تبقل وجهي . وهن علمنني القرآن وروينني كثيراً من الأشعار ، ودربنني في الخط . ولم يكن وكدي وإعمال ذهني منذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة جداً ، إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك ، وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن[1] . »

وأنعم بها من نشأة يقظة إليها الفضل في أن نتمتع بالأدب السامي الرفيع وبأحاديث الحب الرقيقة العميقة ، وبذلك الطبع السمح الظريف الذي لايعهد من إمام جليل وعالم كبير وصاحب مذهب في الدين مجتهد منافح عنه ، بل العهد في رجال الدين : جد صارم ، ومعيشة شاقة ، وبعد بعيد عن كل ذلك العالم الذي طار فيه ابن حزم ونهل منه وعل ، فلا يذهبن عنك سر نشاته في (تكييف) عبقريته .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٦

مات والد ابن حزم وكان المترجَم « أقام في الوزارة من وقت بلوغه إلى انتهاء سنه ستاً وعشرين سنة »[١] وزر للمرتضى صاحب بلنسية وحارب في جيشه بغرناطة ووقع بأيدي أعدائه سنة ٤٠٣ بعد وفاة أبيه بسنة ، ثم لما قامت خلافة عبد الرحمن المستظهر في رمضان سنة ٤١٤ وكان صديقاً لابن حزم ، وسّد إليه الوزارة فأقام فيها أشهراً حتى مقتل عبد الرحمن في ذي الحجة من السنة نفسها . وعاد إلى الوزارة أيام هشام المعتد بين سنتي ٤١٨ — ٤٢٢ وهنا تنتهي حياته الوزارية[٢] ويطلق المناصب إلى غير مارجعة .

ولنعرض الآن لما أصابه في هذه الفترة من نكبات وتشريد :

عرفت أن ابن حزم مولى بني أمية وأنه وزر هو وأبوه لخلفائهم وأنه كان يتشيع للأمويين « ماضيهم وباقيهم ويعتقد بصحة

---

(١) ياقوت

(٢) في الأعلام للزركلي أنه : « كانت له ولأبيه من قبله رياسة الوزارة » ومما مر بك تعلم أنه لم ينل رياسة الوزارة (التي هي الحجابة باصطلاح ذاك العصر في الأندلس) لا هو ولا أبوه وإنما هي وزارة فقط . على هذا أجمعت كل المصادر التي اطلعنا عليها ولم ندر علام اعتمد الأستاذ خير الدين الزركلي في نقله هذا .

إمامتهم حتى نسب إلى النصب »[1] ويتعصب لهم ويشيد بمفاخرهم وربما نال خصومهم من قريش في بعض المناسبات كقوله عرضاً في مقطوعة غزلية (طوق الحمامة ص ٢٧) :

ومذ لاحت الرايات سوداً تيقنت نفوس الورى أن لا سبيل إلى الرشد

وعرفت أن عصره تداول حكم قرطبة فيه الأمويون والعلويون (الطالبيون) وابن جهور ، وكان للبرابرة والصقالبة سطوة يمارسونها في الفترات ، فاعرف أيضاً أن ابن حزم أصيب (أو تحلى - كما تحب -) بصراحة متناهية ، وصلابة قوية ، وصدع بالحق ، كل ذلك يصدم به الناس غير مبال بالعواقب ولا مستعمل فيه شيئاً مما نسميه سياسة ومداراة . وأنت خبير بأن صاحب هذه الأمزجة مضطر إلى مجابهة حروب يشنها عليه الراعي والرعية ، والعلماء والزمان من كل صوب ، فقدّر بنفسك الشدة التي عانى غمراتها وصلي بوقداتها ابن حزم .

تنكر الزمان لوالد ابن حزم بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد سنة ٤٠٠ فانكمش هو وابنه ثم مات سنة ٤٠٢ هـ ، فلما كانت فتن البرابرة وتخريبهم غادر قرطبة سنة ٤٠٤ وهي غارقة

---

(١) كلمة ابن حيان : تذكرة الحفاظ . والناصبة طائفة تبغض علياً رضي الله عنه .

في الفتن ـ وقد أخرب البرابرة قصور آل حزم الجميلة في بلاط مغيث ـ قاصداً المرية وأقام بها . فلما كاتب خيران العامري علي ابن حمود الذي حضر إلى قرطبة وملكها وقتل سليمان المستعين الأموي ، أوجس خيران من ابن حزم لتشيعه لبني أمية ، واتهمه بالقيام بدعوتهم ؛ فسعى حتى اعتقله عند نفسه أشهراً ثم غرّبه إلى حصن القصر هو وصديقه محمد بن إسحاق ، و كان من حظهما أن أكرم صاحب الحصن مثواهما . فلما بلغهما المناداة بعبد الرحمن ابن محمد سنة ٤٠٨ في بلنسية ركبا إليها بحراً وحمدا فيها الإقامة ، ووزر ابن حزم للمرتضى ، ثم كان مامر بك من قتل المرتضى . عاد ابن حزم إلى قرطبة بعد غياب ست سنوات (٤٠٩ هـ) و لبث حتى كانت خلافة المستظهر ووزارة ابن حزم له أسابيع معدودة سنة ٤١٤ هـ .

ثم كانت وزارته لهشام المعتد .

ونرى من الواجب علينا أن نستمع إلى مترجمنا يحدث عن رحيله ونكباته وآثارها في نفسه لتتم للقارئ الصورة التي نتوخاها له ، قال :

« ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والتغريب والإغرام الفادح والاستتار ، وأرزمت (اشتدت) الفتنة وألقت باعها ،

وعمت الناس وخصتنا إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ونحن في هذه الأحوال ، بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام ٤٠٢ ﻫ واتصلت بنا تلك الحال بعده ... ثم ضرب الدهر ضربانه ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة ٤٠٤ ﻫ ... ثم دخلت قرطبة في شوال سنة ٤٠٩ فنزلت على بعض نسائنا[1] ... » ويقول في موضع آخر (طوق الحمامة ص ١١٧) : « ... إلى أن ألقت الفتنة جرانها ، وأرخت عزاليها ، ووقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي بقرطبة ، ونزولهم فيها ... وتقلبت بي الأمور إلى الخروج عن قرطبة . وسكنى مدينة المرية ... إلى أن انقطعت دولة بني مروان وقتل سليمان الظافر أمير المؤمنين ، وظهرت دولة الطالبية وبويع علي بن حمود الحسني المسمى بالناصر بالخلافة ، وتغلب على قرطبة وتملكها واستمر في قتاله إياها بجيوش المتغلبين والثوار في أقطار الأندلس ، وفي إثر ذلك نكبني (خيران) صاحب المرية ، إذ نقل إليه من لم يتق الله عز وجل من الباغين (وقد انتقم الله منهم عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي) أنا نسعى في القيام

---

(١) طوق الحمامة ص ١١٠

بدعوة الدولة الأموية ، فاعتقلنا عند نفسه أشهراً ثم أخرجنا على جهة التغريب ، فصرنا إلى حصن القصر ، ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هذيل التجيبي المعروف بابن المقفل ، فأقمنا عنده شهوراً في خير دار إقامة وبين خير أهل وجيران ، وعند أجل الناس همة وأكملهم معروفاً وأتمهم سيادة . ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور المرتضى عبد الرحمن بن محمد وسكناه بها ... ثم دخلت أنا قرطبة في خلافة القاسم بن حمود المأمون ... » وقال واصفاً خراب دوره وفيه ترى نثره البديع الممتع :

« وقد [1] أخبرني بعض الوراد من قرطبة وقد استخبرته عنها : أنه رأى دورنا ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها ، وقد امّحت رسومها ، وطمست أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيّرها البلى ، وصارت صحاري مجدبة بعد العمران ، وفيافي موحشة بعد الأنس ، وخرائب منقطعة بعد الحسن ، وشعاباً مفزعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ومعازف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش بعد رجال كالليوث وخرائد كالدمى ، تفيض لديهم النعم الفاشية ، تبدّد شملهم فصاروا في البلاد أيادي سبا ، فكأن تلك المحاريب المنمقة والمقاصير المزينة التي كانت تشرق إشراق الشمس ، ويجلو

---

(١) المصدر السابق ص ٩١

الهموم حسن منظرها : حين شملها الخراب وعمها الهدم ، كأفواه السباع فاغرة تؤذن بفناء الدنيا ، وتريك عواقب أهلها ، وتخبرك عما يصير إليه كل من تراه قائماً فيها ، وتزهد في طلبها بعد أن طال مازهدت في تركها ... الخ »

وكثيراً ما ترى أمثال هذه الحسرة اللاذعة بين دفتي كتابه الجميل (طوق الحمامة) من أشباه قوله ص ٧٨ : « ذكرت فيها (أي في قصيدة) ما مضنا من النكبات ودهمنا من الحل والترحال والتحول في الآفاق » وقوله ص ١٥٣ في خاتمة كتابه : « فأنت تعلم أن ذهني متقلب وبالي مهتم بما نحن فيه من نبوّ الديار ، والجلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغيّر الإخوان ، وفساد الأحوال ، وتبدل الأيام ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة في البلاد ، وذهاب الجاه والمال ، والفكر في صيانة الأهل والولد ، واليأس من الرجوع إلى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر وانتظار الأقدار ... » وانظر ص ٧٦ تر فيها طرفاً من تنكر الأصحاب له بتنكر الزمان .

لم ينعم ابن حزم بعد نشأته بطمأنينة الاستقرار ، فضرب في الأرض مضطراً ، لايألف بلدة إلا نبت به ولحقه فيها أذى

الخصوم والحكام فيهجرها إلى غيرها ، وكيد أعـدائه ألزم له من ظله . طوّف في المرية وشاطبة وبلنسية وقصد ابن عباد بإشبيلية ، وحل في جزيرة ميورقة فتواطأ عليه فقهاؤها فأخرجوه ، وحل في القيروان ثم رجع إلى الأندلس . ولم يتح له أن يرحل إلى المشرق ، إذاً لأرانا إياه في ألوانه الزاهية بريشته البديعة المصورة ، ولعرفنا رأي عالم كبير خصب القريحة في حضارة المشرق وعلومه وعلمائه . ولكن الزمن أمكر من أن يغفل عن عبقري لحظة من اللحظات .



ج — طلبه وعلمه ومصنفاته

« ما تمنت به الأندلس أن تكون كالعراق »
الفتح بن خاقان

أول طلبه

تقدم أن أول من لقن ابن حزم مبادئ العلوم والقرآن : نساء قصره ثم أقام في الوزارة من بعد بلوغه حتى صار له ست وعشرون سنة لم يكن له فيها طلب يذكر . وقد رووا عنه أنه قال : « إنني بلغت إلى هذه السن وأنا لا أدري كيف أجبر صلاة من الصلوات [1] » .

ولنا أن نشكر كل الشكر المجتمع النقاد الذي عاش فيه ابن حزم ، فإليه يرجع الفضل في توجيهه إلى طلب العلوم والانكباب عليها حتى كان لتاريخنا منه فصل ضاف قلما أتحفنا بمثله غيره .

أما السبب المباشر في انقطاعه إلى العلم فقد حدث به الوزير الإمام أبو محمد بن العربي قال : « أخبرني الشيخ الإمام

---

(١) إرشاد الأريب . وفيه أن (أجبر) عند أهل الاندلس بمعنى (أقضي) عند أهل المشرق .

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أن سبب تعلمه الفقه : أنه شهد جنازة لرجل كبير من إخوان أبيه فدخل المسجد قبل صلاة العصر والحفل فيه ، فجلس ولم يركع ، فقال له أستاذه (يعني الذي رباه) بإشارة : « أن قم فصل تحية المسجد » فلم يفهم ، فقال له بعض المجاورين له : « أبلغت هذه السن ولا تعلم أن تحية المسجد واجبة ؟ ! وكان قد بلغ حينئذ ستة وعشرين عاماً . (قال) فقمت وركعت وفهمت إذاً إشارة الأستاذ إليّ بذلك . (قال) فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلى المسجد ، مشاركة للأحياء من أقرباء الميت ، دخلت المسجد فبادرت بالركوع ، فقيل لي : (اجلس اجلس ، ليس هذا وقت صلاة) فانصرفت عن الميت وقد خزيت ولحقني ماهانت عليّ به نفسي وقلت للأستاذ : « دلني على دار الشيخ الفقيه المشاور أبي عبد الله ابن دحون . » فدلني ، فقصدته من ذلك المشهد وأعلمته بما جرى فيه ، وسألت الابتداء بقراءة العلم واسترشدته فدلني عَلَى كتاب الموطأ لمالك بن أنس رضي الله عنه فبدأت به عليه قراءة من اليوم التالي لذلك اليوم ، ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحو ثلاثة أعوام وبدأت بالمناظرة » .

والمقري يحدد لنا التاريخ الذي بدأ فيه ابن حزم الطلب

بقوله : « أول سماعه سنة ٣٩٩ هـ » والذهبي جعله سنة (٤٠٠ هـ)
وقول المقري يقويه ابن بشكوال في الصلة (رقم ٤٠٨) إذ
يذكر مع التاريخ أستاذه الذي قرأ عليه فيه فيقول : « وأول
سماعه من ابن الجسور قبل الأربعمائة » .

وهناك من يذكر سبباً ثانياً في طلبه الفقه ، يرويه عن
عمر بن واجب قال : « بينما نحن عند أبي بيلنسية وهو يدرس
المذهب ، إذ بأبي محمد بن حزم يسمعنا ويتعجب ، ثم سأل
الحاضرين عن شيء من الفقه أجيب عليه فاعترض فيه ، فقال
له بعض الحضار : « هذا ليس من منتحلاتك » فقام وقعد
ودخل منزله فعكف ، ووكف منه وابل فما كف ، وما كان
بعد أشهر قريبة حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فناظر أحسن مناظرة
قال فيها : « أنا أتبع الحق وأجتهد ولا أتقيد بمذهب[1] » .

شيوخه وكبار تلاميذه

سمع ابن حزم من : أبي عمر أحمد بن الحسين — ويحيى بن
مسعود ابن وجه الجنة — ويوسف بن عبد الله القاضي — وأبي
بكر حمام بن أحمد القاضي — ومحمد بن سعيد بن سات — وعبد الله

(١) تذكرة الحفاظ . وكف : سال قليلاً قليلاً .

ابن ربيع التميمي — وعبد الله بن محمد بن عثمان — وأبي عمر الطلمنكي — وعبد الرحمن بن عبد الله بن خالد — وعبد الله بن يوسف بن يامي .

وقرأ الفقه على أبي عبد الله بن دحون الذي مر ذكره آنفاً وروى عن القاضي يونس بن عبد الله (انظر حديثه في ص ٨ من طوق الحمامة) — وأبي محمد بن بنوش القاضي — وأبي عمر ابن الجسور — وأحمد بن محمد — وعلي بن سعيد العبدري من أهل جزيرة ميورقة وغيرهم وأخذ المنطق عن محمد بن الحسن المذحجي [(١)]

وذكروا من شيوخه مسعود بن سليمان بن مفلت أبو الخيار ، وعنه — علَى ما يظهر — أخذ القول بالظاهر حتى صار فيه إماما متفرداً قال الضبي : «مسعود .. فقيه عالم زاهد يميل إلى الاختيار والقول بالظاهر ، ذكره أبو محمد بن حزم وكان أحد شيوخه [(٢)] »

وعين ابن حزم في كتابه (طوق الحمامة) ثلاثة من شيوخه مع الفنون التي قرأها عليهم ، أولهم أبو سعيد الفتى الجعفري (ص ٦٦) : ذكر أنه قرأ عليه معلقة طرفة بن العبد مشروحة في المسجد الجامع بقرطبة ، يروي شيخه الشرح عن أبي بكر المقرئ عن أبي جعفر النحاس . فعلمنا من هذا الخبر أن حلقات الأدب كانت حافلة

---

(١) إرشاد الاريب ، وتذكرة الحفاظ ، والصلة لابن بشكوال . وطوق الحمامة (٥٢ ، ٥٣ ، ١٠٦ ، ١٢٢ ، ١٢٤) الخ .

(٢) بغية الملتمس رقم ١٣٦١

في المساجد بالأندلس لا يتحرجون فيها من رواية الشعر وشرحه ولا يتأثمون . وثانيهم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي (ص ١١٧) وكان أستاذه في القرآن والحديث والنحو واللغة . ومجلسه مقصود بالرصافة (ص ٦٨) .

وثالثهم والد صديقه أبي بكر المصعب بن عبد الله الأزدي المعروف بابن الفرضي (ص١١٨) ، وكان قاضي بلنسية أيام أمير المؤمنين المهدي ، طلب عليه الحديث .

وله غير هؤلاء شيوخ كثيرون ، فقد أجمع المترجمون له أنه سمع سماعاً كثيراً وذكر هو نفسه أنه طلب الحديث على سائر شيوخ المحدثين بقرطبة[1] . ووصفوه بالاستكثار من علوم الشريعة والأدب ، وقرطبة إذ ذاك تغص بالفحول من العلماء .

وقرأ عليه رهط جم ، والذين أكثروا الرواية عنه جداً : تلميذه أبو عبد الله الحميدي وابنه الفضل أبو رافع ، والإمام الوزير أبو محمد بن العربي . وهذا الأخير صحبه سبعة أعوام وقرأ عليه أكثر تصنيفاته قال :

«صحبت الإمام أبا محمد علي بن حزم سبعة أعوام ، وسمعت منه جميع مصنفاته ، حاشا المجلد الأخير من كتاب (الفصل) وهو

---

(١) طوق الحمامة ١١٨

يشتمل على ست مجلدات من الأصل الذي قرأنا منه فيكون الفائت نحو السدس[1] . وقرأنا من كتاب (الإيصال) أربع مجلدات من كتاب الإمام أبي محمد بن حزم سنة ٤٥٦ ولم يفتني من تأليفاته شيء سوى ما ذكرته من الناقص وما لم أقرأه من كتاب (الإيصال) .. وربما كان له شيء من تواليفه ألفه في غير بلده في المدة التي تجول فيها بشرق الأندلس فلم أسمعه ، ولي بجميع مصنفاته ومسموعاته إجازة منه مرات عديدة كثيرة ، آخر ما كان بخط اليحكمي رحمه الله[2] . »

وممن سمع عليه أيضاً على بن سعيد العبدري المتقدم الذكر في شيوخه ، فإنه لما حل ابن حزم جزيرة ميورقة أخذ عنه العبدري الفقه واتبع المذهب الظاهري ، حتى إذا رحل إلى المشرق وحج ودخل بغداد ترك مذهب ابن حزم إلى المذهب الشافعي[3] .

ومنهم : أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد النهري الطرطوشي المتوفى سنة ٥٥١ هـ : وهو أحد علماء المسلمين الأعلام ينسب إلى طرطوشة من بلاد الأندلس . نشأ بها وطلب العلم في البلاد

---

(١) المطبوع من هذا الكتاب خمسة أجزاء ولا يعرف لها سادس

(٢) إرشاد الأريب .

(٣) التكملة لابن الأبار ، رقم ١٤٦٧

الأندلسية ، وأخذ عن أبي الوليد الباجي وابن حزم ورحل إلى الشرق سنة ٤٤٦ هـ وحج ولقي شيوخ العراق وأقام بالشام زمناً ودرس بها . وله مؤلفات أعظمها (سراج الملوك) وله كتاب البدع (وهذا الكتاب و كتاب البدع لابن وضاح : مأخذ كتاب الاعتصام للشاطبي صاحب الموافقات) وبين وفاته ووفاة ابن رشد الكبير شهران أو ثلاثة ودفن في الإسكندرية[١] .

هذا بعض ممن أقرأهم وممن قرأ عليهم لا على سبيل الاستقصاء[٢] .

وحري بمن طلب العلم للعلم كابن حزم أن يستكثر من الشيوخ والطلب ويجهد في ذلك همته العالية حتى يقتعد الذروة بين العلماء ، وإن نظرة فيما تحاور به هو وخصمه الباجي من كبار علماء الأندلس ، كافية في أن تقفنا على عزيمته ونيته في طلب العلم ، وإذاً لا نستغرب ما اغترف منه ولا نستكثر عليه أن يحوز ما حاز :

دخل الباجي وابن حزم فى مناظرة فقال له الباجي : « أنا أعظم منك همة في طلب العلم لأنك طلبته وأنت معان عليه ، تسهر بمشكاة الذهب ، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت

---

(١) عبد الوهاب عزام (مجلة الرسالة العدد ٣٣٤) .

(٢) انظر بعض ذكرياته عن أيام الطلب ص ٦٦ ، ٦٨ ، ١٠٧ ١١٨ من (طوق الحمامة) .

في السوق » فكان من جواب عالمنا المهذب الدقيق قوله :

هذا الكلام عليك لا لك ، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، وأنا طلبته في حين ماتعلمه وما ذكرته ، فلم أرج به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة [1] » فأفحمه وحق له ذلك .

وقال له مرة بعد انقضاء مناظرة بينهما : « تعذرني فإن أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب والفضة ! » أراد (أن الغنى أمنع لطلب العلم من الفقر [2]) .

وهكذا لم يحظ ابن حزم بنصيبه الأوفى من العلم حتى انصرف إليه بكل عزائمه وأخلص له ولم يخلط به مأرباً آخر قط . حتى إذا تمت له أدواته فيه تفرغ لنشره بين الناس فنفع الله به من شاء من خلقه في حياته ، ومن لايحصيهم إلا هو بعد مماته . وما أصدق كلمة ابن حزم في نفسه :

مناي من الدنيا علوم أبثها　　　وأنشرها في كل باد وحاضر
دعاء إلى القرآن والسنن التي　　　تأسى رجال ذكرها في المحاضر [3]

كذلك كان رحمه الله .

---

(١) المقري ١ : ٣٥٨

(٢) إرشاد الاريب .

(٣) الصلة لابن بشكوال ص ٤٠٨ رقم الترجمة (٨٨٨) .

علمه

انصرف ابن حزم إلى الطلب وأقبل على دراسة العلوم الشائعة لعصره من المنقول والمعقول حتى أربى فيها على الغاية ، فحفظ القرآن والسنن والآثار ، وطالع التاريخ والأخبار و كتب الفلسفة . وقد متّع بحافظة نادرة المثال حتى قال اليسع بن حزم الغافقي : « أما محفوظ أبي محمد فبحر عجاج وماء ثجاج ... لقد حفظ علوم المسلمين وأربى على كل دين ..[1] » وكان - على ماقال الذهبي - إليه المنتهى في الذكاء والحفظ وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية والآداب والمنطق والشعر . وشهد الغزالي بأن كتابه (في أسماء الله الحسنى) يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه . برز على فحول العلماء بالأندلس حتى تفرد دونهم بميزات وكان - عَلى حد قول صاعد - أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر ومعرفته بالسنن والآثار . وقال الحميدي : « كان أبو محمد حافظاً للحديث وفقهه مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة ، متفنناً في علوم جمة ، عاملاً بعلمه ، مارأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين » .

---

(١) تذكرة الحفاظ ، العجاج : المتلاطم ، الثجاج : الغزير الدفاق .

ولأبي مروان بن حيان : « كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعليم القديم من المنطق والفلسفة » . وقال الذهبي : « ابن حزم رجل من العلماء الكبار ، فيه أدوات الاجتهاد كاملة [1] » تمثل ابن حزم كل هذه العلوم التي درسها وصار له في كل منها رأي واجتهاد ، وترك في أكثرها تواليف جمة ضخمة تدل على ثروته الواسعة فيها وتمكنه القوي من ناصيتها ، وكان له — إلى ذلك — طبع حاد وصراحة متناهية ومعارضة قوية لمخالفيه ، حتى تبرم به الفقهاء والسلاطين فطاردوه بأنواع المقاومة من سجن وتشريد وإحراق كتب ونهي الناس عن سماعه حتى صار في الأندلس أحق من المتنبي بالكلمة المشهورة : « مالئ الدنيا وشاغل الناس » لقد ملأ ابن حزم المغرب كله بكتبه وردوده وأدبه وجدله ومذهبه ، وشغل أهله طرفاً صالحاً من حياته وأحقاباً طوالاً بعد مماته حتى لكأنه أمة وحده لا فرد من أمة ، ويحق ما قال فيه الفتح بن خاقان :

« ما تمنت به الأندلس أن تكون كالعراق ، ولا حنت الأنفس معه إلى تلك الآفاق [2] ، وما أدراك ما العراق يومئذ :

---

(١) تذكرة الحفاظ

(٢) مطمح الأنفس ص ٦٣ .

عالم يعج بحضارة ما رأى التاريخ لها مثيلاً فيما سبق ، ونهضة علمية ماحلم بمثلها إنسان .

وسنفرد بالذكر أسلوبه في حياته مع الناس ، بعد الكلام على مذهبه .

وخير مايعرفك بعبقريته ومكانته أن تطالع بإمعان أياً شئت من آثاره القليلة الباقية في الدين أو الأدب أو الكلام ، فستجد ثمة بحراً زاخراً من العلم ، وطرقاً متشعبة من المعارف يضل سالكها ، إلا أنك واجد ابن حزم – على هذا كله – متمكناً من موضوعه ، قابضاً على ناصيته ، متصرفاً فيه تصرف الفارس في الحلبة ، وتلك صفة نادرة في العلماء الواسعي الثقافة ، فأكثرهم ينتشر عليه أطراف موضوعه فتوجهه بدل أن يوجهها . يأخذ بيدك فلا يزال بك موغلاً في أغوار البحث ينبهك إلى ما يشاء ويصرفك عما يشاء ، حتى يوصلك إلى الهدف الذي نصبه لك قبل البدء ، فابن حزم صاحب طريقة متقنة ومنهج مضبوط منطقي متزن . وستجد مصداق هذا بوضوح إذا وصلت إلى رسالته (في المفاضلة بين الصحابة) .

خصه الله بالتعمق والغوص على الأسرار في كل ما يقرأ ويسمع ويرى ، فبينما تراه في كتابه (طوق الحمامة) عالماً من أساطين علماء النفس ، الخبيرين بدخائلها ، الغائصين على أسرارها

الدارسين لمظاهرها وبوادرها وعواقبها ، تراه في بحوثه في كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) واحداً من علماء الكلام البارعين، ذوي الحجة الدامغة والذهن اللقن ، جدلاً محنكاً لو حاول أن يريك الليل في رابعة النهار لفعل ، إذا بك تراه في كتابه «المحلى» فقيهاً مجتهداً ذا بصر ثاقب في معاني القرآن والسنن ، مستنبطاً دقيقاً لأحكام الدين وفروع الفقه ، واسع الإلمام بطرق المذاهب الفقهية خبيراً بحجج الشافعية والمالكية والحنفية ، مواهبه أقصى ما يتمناه العلماء : فكر ثاقب ، وبصر نافذ ، وملاحظة دقيقة ، ونبل نفس ، يزين ذلك كله إقامة إلى جانب الصدق طول حياته .

ليس للظاهرية مثله في جميع العصور وأكاد أقول : مارأيت أحداً بعد الصدر الأول من الأئمة، فهم الشريعة حق الفهم ، وأفهمها بإخلاص وصدق وحماسة مثل رجلين : ابن حزم هذا في المغرب وابن تيمية في المشرق ، أرسلهما الله على أهل الدس والدخائل الخبيثة ، الذين أرهقوا جسم الإسلام بما حشوه من بدع المجوسية والنصرانية واليهودية ، فكانا عليهم وعلى ما أتوا به ، صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود .

ألقيا عن الإسلام ما علق به ولقيا في سبيل ذلك من الأذى والاضطهاد مايكرم الله به كل مصلح مخلص ، حتى أبرزاه أبيض

نقياً كما بدأ فجزاهما الله خير الجزاء .

ملأ ابن حزم بعد موته كتب الفقه والحديث والتفسير ، فقلما يؤلف مؤلف في هـذه الفنون إلا اعتمد على مؤلفاته أو استشهد بأقواله أو ذكر مذهبه . وهو في حياته ما ادخر وسعاً في الإحاطة بكل مـا وصل إليه حتى كان له رأيـ في المصادر الأمهات نحن عارضون له بعد قليل .

ومن الحتم علينا أن ننبهك إلى رسالة له في فضل الأندلس أدرجها المقري في كتابه (نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٥ — ١٢٨) لأنه يطلعك على معلمة (دائرة معارف) كاملة لمعارف الأندلسيين وعلمائهم ومؤلفاتهم ، بل إنه كتبها ليفاخر بها المشرق كله ـ وهو منبع العلوم والعلماء ـ بعلم الأندلس وعلمائها ، فلا يذكر مؤلفاً لمشرقي في فن إلا ذكر ما يقابله لأندلسي في الفن نفسه مفضلاً الثاني على الأول ، ومن الخير لك أن تطالعها لأنك مصيب بهـا فائدتين : الأولى أنك تدرك بعض الإدراك مدى الأفق الذي حلقت فيه عبقرية ابن حزم ، والثانيـة أنها تغنيك عن فهرس وتصنيف للعلوم والعلماء في الأندلس حتى زمن كتابتها .

جاء في تذكرة الحفـاظ للذهبي (ترجمة ابن حزم) :

« ذكر لابن حزم قول من يقول : (أجل المصنفات الموطأ) فقال :

« بل أولى الكتب بالتعظيم . (الصحيحان) و (صحيح سعيد بن السكن ، و (المنتقى) لابن الجارود ، و (المنتقى) للقاسم بن أصبغ و (مصنف الطحاوي) و (مسند البزار) و (مسند ابن أبي شيبة) و (مسند أحمد بن حنبل) و (مسند ابن راهويه) و (مسند الطيالسي) و (مسند الحسن بن سفيان) و (مسند سنجر) و (مسند عبد الله بن محمد المسندي) ، و (مسند يعقوب بن شيبة) و (مسند علي بن المديني) و (مسند ابن أبي غرزة) وما جرى مجرى هذه الكتب التي أفردت لكلام رسول الله ﷺ صرفاً .

ثم بعدها التي فيها كلام غيره : مثل (مصنف عبد الرزاق) و (مصنف أبي بكر بن أبي شيبة) و (مصنف بقي بن مخلد) وكتاب (محمد بن نصر المروزي) و (كتاب أبي بكر بن المنذر الأكبر ، والأصغر) . ثم (مصنف حماد بن سلمة) و (مصنف سعيد بن منصور) و (مصنف وكيع) و (مصنف الفريابي) و (موطأ مالك بن أنس) و (موطأ ابن أبي ذيب) و (موطأ ابن وهب) و (مسائل أحمد بن حنبل) و (فقه أبي عبيد) و (فقه أبي ثور) . »

فما ظنك بمن استحضر ذهنه على البديهة تلك الامهات الفخام

لفن واحد ، واعرف بعد هذا أن المصنفات التي ذكرها لا تجدها في موضع واحد في أي كتاب أو فهرس فتحته في المكتبة العربية ، ثم انظر مبلغ إحاطته وتمكنه وفحولة أحكامه التي يرسلها في كبار المصنفين الأئمة ، مقارناً بينهم وموازناً بين آثارهم الجليلة ، تؤمن بسعة علمه وبعد غوره ، حتى كان من اعتداده بنفسه - على تواضعه المشهور - أن قال في أحد أئمة الأندلس الكبار بقيّ ابن مخلد حين عرض لتفسيره : « أقطع أنه لم يؤلف في الإسلام مثل تفسيره ، لا تفسير محمد بن جرير ولا غيره [(١)] » وقال عن مسنده : (مسند بقي روى فيه عن (١٣٠٠) صاحب ونيف ، ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه فهو مسند ومصنف ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث [(١)] » ، « وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين ممن ذكرهم ، أربى فيه على مصنف أبي بكر بن أبي شيبة ، وعلى مصنف عبد الرزاق وعلى مصنف سعيد بن منصور » [(١)] . ثم قال لافظاً نتيجة رأيه في بقي : « [(١)] فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام وكان

---

(١) المقري ١ : ٥٨٠ ، وبقي ولد في رمضان سنة ٢٠١ هـ ومات في جمادى الآخرة سنة ٢٧٦ هـ .

متخيراً لا يقلد أحداً و كان جارياً في مضمار البخاري ومسلم والنسائي» .

سقت إليك أقواله في بقي لترى الفرق بينه وبين من شاركوه في العلم الغزير من الأئمة العظام المجتهدين ، لقد تفرد بينهم بميزة حسن الموازنة وإتقانها ، إنه فاضل بين مسنده ومصنفه وبين مسندات غيره ومصنفاته فدل على سعة إحاطة بفنه ثم حكم له بالتفضيل ، ثم وضعه حيث يستحق إلى جنب البخاري ومسلم والنسائي . وكأنه — رحمه الله — أحد مؤرخي العلوم والآداب على الطريقة الفنية الغربية لعصرنا الحديث .

ولا تستغرب بعد هذا احتجاج العلماء على اختلاف فنونهم بآراء ابن حزم الذي أسعده الله فيسر له كل ما يفتح العبقرية منذ نعومة أظفاره . والذي هيأ الله له « فجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات كثيراً ، وسمع سماعا جماً [1] » . وستجد أمراً مألوفا إذا فتحت أي رسالة صغيرة في الحديث أو غيره مثل (الإجابة : لإيراد مااستدركته عائشة على الصحابة [2]) التي أخرجناها قبل شهور ، فوجدت مؤلفها الزركشي يستشهد بأحكام ابن حزم في الحديث تخريجاً وتأويلاً وتجريحاً وتوثيقاً .

---

(١) ابن بشكوال في الصلة .

(٢) طبع المكتبة الهاشمية بدمشق .

حسبك هذا وأعجب معي من هذه الذخيرة التي خلفها لنا ابن حزم :

مصنفاته :

غرف ابن حزم من جميع العلوم التي كانت في متناوله ، وترك كتباً في المنطق والفلسفة ، إلا أنه قد استكثر جداً من علوم الشريعة وأوغل فيها لذا كانت أكثر مؤلفاته شرعية ، ومع أنه صنف المصنفات القيمة في كل العلوم التي تحقق بها ، نراه قد عني العناية كلها بأمر واحد هو تأييد المذهب الذي اعتمد عليه حتى آخر حياته ، عنينا به مذهب الظاهرية : فقد نافح عنه وطلب له الحجج والمؤيدات إلى أن مات وترك في ذلك آثاراً كثيرة تطفح بنصرته والحملة على خصومه وشرح أصوله وفروعه ، ببيان قوي سهل محبوب يذكرنا ببلاغة الجاحظ ، ولا شك أن ابن حزم — في سعة معارفه وبلاغة أسلوبه — هو جاحظ الأندلس بلا منازع .

ومن المؤسف حقاً أن يضيق علماء عصره وحكامه ، بحرية ابن حزم وصراحته ، حتى أشهروا عليه وعلى كتبه حرباً عواناً لا هوادة فيها ، وحتى بلغ بهم الغيظ أن أحرقوا كتبه علناً في إشبيلية كما سيأتي ، فكان ما عرفنا اسمه من مؤلفاته قليلاً وأقل منه ما وصل إلينا ومع ذلك فإنه شيء عظيم .

ولقد ذكر أبو مروان بن حيان في كلام له أنه كمل من مصنفات ابن حزم وقر بعير لم يجاوز أكثرها عتبة باديته لزهد الفقهاء فيها ، حتى لأحرق بعضها بإشبيلية ومزقت علانية . اه

ولقد بلي من حساده بأصناف البلاء وشكاهم في شعره ، ومن قوله في إحراق ابن عبّاد كتبه :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلّت ركائبي وينزل إن أنزلْ ويدفن في قبري

دعوني من إحراق رَقّ وكاغد وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

وإلا فعودوا في المكاتب بدأة فكم دون ما تبغون لله من ستر[1]

قال صاعد : أخبرني ابنه الفضل المكنى أبا رافع ، اجتمع عندي بخط أبي من تواليفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارضين ، نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة . ثم قال صاعد : « وهذا شيء ما علمناه من أحد ممن كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر بن جرير الطبري ، فإنه أكثر أهل الإسلام تأليفاً . ذكر الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير :

---

(١) إرشاد الأريب ، نفح الطيب .

«أن قوماً من تلاميذ أبي جعفر أحصوا أيام حياته مذ بلغ الحلم إلى أن توفي في سنة ٣١٠ هـ وهو ابن ست وثمانين سنة ، فصار منها لكل يوم أربع عشرة ورقة . وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بكرم عناية الباري به وحسن تأييده »[١] اهـ .

ولا بد من التنبيه على أمر ذي بال وهو أن ابن حزم أدمج كثيراً من رسائله في كتابه الكبير (الفصل في الملل والأهواء والنحل) ونستطيع بقليل من مقابلة أسمائها بمواضيع فهرس الكتاب أن تجد شبهاً بين بعض مواضيع كتابه وبعض أسماء كتبه : كالكلام على تحريف اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل ، وكقوله في الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة ، وكرسالته هذه (في المفاضلة بين الصحابة) وغيرها .

وإليك الآن أسماء كتبه التي وصلت إلينا مرتبة على حروف المعجم[٢] :

---

(١) طبقات الأمم ، نفح الطيب ، تذكرة الحفاظ ، إرشاد الأريب ، أخبار الحكماء للقفطي

(٢) اعتمدنا في حصر مؤلفاته على المصادر الآتية : كشف الظنون ، تذكرة الحفاظ ، نفح الطيب ، إرشاد الأريب ، أخبار الحكماء ، طبقات الأمم ، مطمح الأنفس ، الفصل ، مجلة المجمع العلمي العربي — ابن خلكان ، المعلمة الاسلامية ، بروكلمان ، وبعضها لم يذكره أحد وإنما عثرنا عليه عرضاً . وعلى من يريد معرفة أماكن وجودها اليوم أن يرجع إلى (بروكلمان)

١ — **إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد**

(بروكلمان ، المعلمة الاسلامية)

٢ — **الاتصال**

هكذا ذكره في كشف الظنون ٢:٢٥٨

٣ — **أجوبة** (كالأجوبة على المسائل المستغربة من البخاري لابن عبد البر)

قال في كشف الظنون بعد ذكر كتاب ابن عبد البر : ولأبي محمد بن حزم عدة أجوبة عليه

٤ — **الإحكام لأصول الأحكام**

(بروكلمان ، مطمح الأنفس ، كشف الظنون)

مطبوع في مجلدين

٥ — **الأخلاق والسير**

طبع (بالقاهرة ١٩٠٨)

٦ — **أخلاق النفس**

ذكره ياقوت

٧ — **الاستقصاء**

لم يذكره أحد وإنما عثرنا عليه في رسالة الزركشي (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) (ص ٧٩ طبع المكتبة الهاشمية بدمشق) .

٨ – أسماء الصحابة الرواة وما لكل منهم من الأحاديث

(بروكلمان ، الذيل)

٩ – أسماء الله الحسنى (بروكلمان ، الذيل)

قال الغزالي : « وجدت في أسماء الله الحسنى كتاباً ألفه أبو محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه » تذكرة الحفاظ

١٠ – الأصول والفروع (بروكلمان ، الذيل)

١١ – اظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والانجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل[١] .

١٢ – الإمامة والسياسة (بروكلمان ، الذيل ، كشف الظنون ، ارشاد الأريب) .

في قسم سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها (ياقوت ، المقري) واسمه في المقرى : الإمامة والخلافة .

١٣ – الإيصال الى فهم كتاب (الخصال الجامعة لمحصل[٢] شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام) [والسنة والاجماع]

(بروكلمان ، الذيل)

قال في كشف الظنون بصدد الكلام على كتاب (الخصال الجامعة لمحصل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام) : « شرحه ابن حزم وسماه (الإيصال إلى فهم كتاب الخصال)

---

(١) في معلمة الإسلام : « تبديل اليهود .. » بحذف كلمة إظهار

(٢) في بعض المصادر : لجمل ولعله تصحيف .

وهو شرح كبير أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة في مسائل الفقه ودلائله » زاد ابن خلكان : « والحجة لكل طائفة وعليها وهو كتاب كبير » .

قال الإمام الوزير أبو محمد بن العربي (أحد كبار تلاميذ ابن حزم القارئين عليه أكثر تواليفه) : كان عند الإمام أبي محمد بن حزم كتاب الإيصال في أربعة وعشرين مجلداً بخط يده ، وكان في غاية الإدماج . إرشاد الأريب .

١٤ — **البيان عن حقيقة الإيمان** (الذيل)

١٥ — **التعقيب في نقد زكريا الرازي** في كتابه (العلم الإلهي) (الذيل)

أشار إليه ابن حزم في كتاب الفصل : ١ : ٣

١٦ — **التقريب لحدود المنطق** (الذيل ، صاعد ، كشف الظنون)

والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية ، لا بألفاظ الفلاسفة . جاء في كشف الظنون (١ : ٣١٩) : « تقريب في المنطق لابن حزم الظاهري : وهو مختصر جعله مدخلاً إليه وأورد الأمثلة الفقهية بألفاظ عامية بحيث أزال سوء الظن عنه » . وقد عاب هذا الكتاب كثير ممن ترجموا له فقال صاعد في (طبقات الامم ص ١١٨) :

« بسط فيه القول على تبيين طرق المعارف ، واستعمل فيه أمثلة فقهية وجوامع شرعيـة وخالف (أرسطاطاليس) واضع هذا العلم في بعض أصوله مخالفة من لم يفهم غرضـه ولا ارتاض في كتابه . فكتابه من أجل هذا كثير الغلط ، بيّن السقط . »

وقال أبو مروان بن حيان (إرشاد الأريب ترجمة ابن حزم) :

« وله في بعض تلك الفنون (يعني المنطق والفلسفة) كتب كثيرة غير أنه لم يخل فيها من غلط وسقط لجراءته في التسور على تلك الفنون لا سيما المنطق ، فإنهم زعموا أنه زل هنالك ، وضل في شكول المسالك ، وخالف أرسطاليس واضعه ، مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض . »

١٧ — **التلخيص لوجوه التخليص** (الذيل) وفي بعض المصادر : (التلخيص والتخليص)

في المسائل النظرية وفروعها التي لا نص عليها في الكتاب والحديث .

١٨ — **تنوير المقباس** (الذيل)

١٩ — **التوفيق الى شارع النجاة باختصار الطريق** (الذيل)

٢٠ — **الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد** (الذيل)

زاد ياقوت : والاقتصار على أصحها واجتلاب أكمل ألفاظها وأصح معانيها .

٢١ — **جمهرة الأنساب** (بروكلمان ، المعلمة الاسلامية ، كشف الظنون)

عيّنت المعلمة الإسلامية وضع هذا الكتاب في سنة ٤٥٠ ﻫ وذكرت أن ابن خلدون يعتمد عليه ويذكره كثيراً في كتابه . نشر وترجم في مدريد عام ١٨٩٢

وجاء في النشرة الشهرية لدار الكتب (يولية ١٩٣٨) عن هذا الكتاب ما يلي :

أوله : (الحمد لله مبيد القرون الأول ، ومزيل الدول ، خالق الخالق ...) صدّره بجملة من الأحاديث الدالة على فضل النسب ، وبين أن من فوائده اختيـار الخليفة من القرشيين ، وذكر باباً في أقسام الفن جملة . ثم ذكر أولاد عدنان من ولد إسماعيل ، وأولاد كنانة ، وأولاد النضر ، وأولاد فهر ، وأولاد عبد المطلب ، وأولاد أبي طالب وغيرهم على سبيل الإجمال . ثم ذكر قبائل العرب وأنسابهم وبطونهم وأفخاذهم وما تفرع منهم[1] .

٢٢ — **الحدود**[2]

٢٣ — **الدرة في تدقيق الكلام** فيما يلزم الإنسان اعتقاده والقول به في الملة والنحلة باختصار وبيان (الذيل)

---

(١) نسخة دار الكتب هذه مأخوذة بالتصوير الشمسي عن الأصل المخطوط الخاص بالأستاذ بروفنسال .

(٢) تهذيب التهذيب ٧ : ١٨٥

٢٤ — رسالة عهد حكم من قال : ان أرواح اهل الشقاء معذبة الى يوم الدين (الذيل)

وفي الجزء الثالث من (الفصل) ص ٨٣ هـذا العنوان : بقاء أهل الجنة والنار أبداً ٠

٢٥ — رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سوءال التعنيف ؟

كذا ذكر بروكلمان في (الذيل)

٢٦ — السيرة النبوية (الذيل ، تذكرة الحفاظ)

قال الذهبي : في مجلد ٠

٢٧ — شرح أحاديث الموطأ والكلام على مسائله (الذيل ، ياقوت)

٢٨ — الصادع في الرد على من قال بالتقليد (الذهبي ، ياقوت)

في إرشاد الأريب : الصادع والرادع على من كفّر أهـل التأويل من فرق المسلمين والرد على من قال بالتقليد ٠

٢٩ — طوق الحمامة في الألفة والألاّف ٠

أشهر من أن يذكر وطبع موءخراً بدمشق (١٣٤٩ هـ) والغريب أن صاحب كشف الظنون ذكر بهذا الاسم كتاباً للسيوطي وأهمل كتاب ابن حزم ٠ والمطبوع من هذا الكتاب (في ليدن ١٩١٤م ثم في دمشق) هو مختصره حسبما أثبت في آخره

٣٠ — الفصل في الملل والأهواء والنحل

معروف مطبوع في خمسة أجزاء ، ذكر الذهبي في (تذكرة الحفاظ) أنه ثلاث مجلدات

وهو على ما جاء في إرشاد الأريب — وإليه أميل — ست مجلدات وقد قرأ منها ابن العربي خمسة فقط والظاهر أن السادس مفقود .

٣١ — فصل في معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها (الذيل)

٣٢ — فصل هل الموت آلام أم لا (الذيل)

٣٣ — في الإجماع ومسائله (على أبواب الفقه) (الذيل)

٣٤ — في الاعتقاد (تذكرة الحفاظ)

رسالة نقضها أبو بكر بن العربي .

٣٥ — في الإمامة (الذيل)

لعله الذي مر باسم (الإمامة والسياسة) ولابن حزم فصل في الإمامة في كتابه الكبير (الفصل) ٨٧:٤

٣٦ — في الرد على ابن نغريلا اليهودي (الذيل)

٣٧ — في الرد على الهاتف من بعد ؟ (الذيل)

٣٨ — في الغناء الملهي : أمباح هو أم محظور (الذيل)

٣٩ — في مسألة الكلب ؟ (الذيل)

٤٠ – **في المفاضلة بين الصحابة** (الذيل ، مجلة المجمع العلمي العربي ١٢ — ٧٠٤)

هي التي ستقرؤها بعد .

٤١ – **فيما خالف فيه أبو حنيفة ومالك والشافعي جمهور العلماء وما انفرد به كل واحد ولم يسبق إلى ما قاله .**

قال الذهبي (تذكرة الحفاظ) : « ذكر اسم هذا الكتاب هو في أثناء الفرائض من المحلى . ولا ريب أن الأئمة الكبار تقع لهم مسائل ينفرد المجتهد بها ولا يعلم أحداً سبقه إلى القول بتلك المسألة ، قد تمسك فيها بعموم أو بقياس أو بحديث صحيح عنده والله أعلم . »

٤٢ – **كشف الالتباس لما بين الظاهرية وأصحاب القياس** (الذيل)

وفي بعض المصادر : كشف الالتباس بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس .

٤٣ – **المجلى شرح المحلى** (الذهبي ، الذيل)

في ثمانية مجلدات

٤٤ – **المحلى بالآثار : في الفقه**

مطبوع معروف ، قال الذهبي « على مذهبه واجتهاده » وروى قول الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل (المحلى) لابن حزم و (المغني) للشيخ الموفق »
(تذكرة الحفاظ)

٤٥ — **مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل** :

صغير طبع مراراً

٤٦ — **مراتب الإجماع** (الذيل)

٤٧ — **مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض**
(الذيل ، مطمح الانفس ، كشف الظنون ، الفصل)

٤٨ — **منتقى الإجماع** (الذيل)

ذكره الذهبي في التذكرة وزاد ياقوت : « وبيانه من جملة ما لا يعرف فيه اختلاف »

٤٩ — **الناسخ والمنسوخ** (الذيل)

طبع في مصر بهامش تفسير الجلالين .

٥٠ — **النبذة الكافية في أصول أحكام الدين** (الذيل)

٥١ — **النصائح المنجية** من الفضائح المخزية والقبائح المردية عن أقوال أهل البدع والفرق الأربعة المعتزلة والمرجئة والخوارج والشيعة . (الذيل)

٥٢ — **نقط العروس** (الذيل ، معلمة الاسلام)

صغير جمع فيه كل غريبة ونادرة مفيدة ، وهو — على ما جاء في معلمة الإسلام — في تواريخ الخلفاء .

٥٣ — **نكت الإسلام** نشر وترجم إلى الإسبانية في (غرناطة سنة ١٩١١) .

جزء رآه أبو بكر ابن العربي ورد عليه قال : « فيه دواهي فجردت عليه نواهي » تذكرة الحفاظ

. . .

هذا ما وصل اطلاعنا إليه ولا شك أن له كتباً كثيرة ضاعت أسماؤها أيضاً ، فالمقري يذكر عرضاً (٢ : ١٣٦) أن له كتباً جمة في التواريخ مثل (نقط العروس) . ولو أن مؤرخاً لازمه في حله وترحاله لروى لنا أسماء مجلدات كثيرة ما نعلم الآن عنها شيئاً .

مات صاحب هذا الكنز الزاخر ، بعد أن ملأ الأندلس حركة فكرية عنيفة أثارها سلبية وإيجابية ، وجعل مجالس العلم وأقطاب الفكر معسكرين أنصاراً وخصوماً . ولكن حيوية ابن حزم لم تنقطع بموته ، بل بقيت مستمرة تعمل عملها بعده زمناً طويلاً . وإن شئت فامرد كتاب (التكملة) لابن الأبار أو (الصلة) لابن بشكوال ، أو (بغية الملتمس) للضبي ، أو غير هذه الموسوعات ، لترى : كم من أصحاب العلم والفكر حملوا أنفسهم على الرد عليه أو الانتصار له ، وهذا غاية ما يؤثره ذو رسالة سامية من الآثار .

د — مذهبه

لم يعتنق ابن حزم في الفقه المذهب الشائع في الأندلس لعهده ، وهو مذهب الإمام مالك بن أنس ؛ وإنما اتخذ فيه مذهب الإمام الشافعي ، وطفق يدافع عنه حتى عرف به بين العلماء ونصب نفسه هدفاً لأتباع غيره من المذاهب المستفيضة بالأندلس ، « فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء وعيب بالشذوذ »[1] ولا جرم ففي جبلّة ابن حزم ثورة فطرية على التقليد ، فلما اشتد واستحكم عدل عن مذهب الشافعي واجتهد لنفسه على قواعد أهل الظاهر ، ولزم دعوة الظاهرية ينشرها ويؤيدها في أكثر تصانيفه ويناضح عنها خصومها بقوة وعنف ونشاط حتى مات رحمه الله .

إمام هذه الطائفة وأول من قال بالظاهر هو داود بن علي الأصفهاني المتوفى سنة (٢٧٠هـ) « أخذ بالكتاب والسنة وألغى ما سوى ذلك » من رأي وقياس . وألف كتباً كثيرة في الفقه على أصوله بلغت قريباً من المئتين ، على فضل وعلم وورع وصدق . وعلى خطته درج ولده محمد وتتابعت بعدهما أئمة الظاهريين[2] .

---

(١) إرشاد الأريب .

(٢) انظر أئمة المدرسة الظاهرية وما خلفوا من الكتب في فهرست ابن النديم .

قال الشهرستاني : « ومن أصحاب الظاهر مثل داود الأصفهاني وغيره ممن لم يجوز القياس والاجتهاد في الأحكام وقال : (الأصول هو الكتاب والسنة والإجماع فقط) ومنع أن يكون القياس أصلاً من الأصول وقال : (أول من قاس إبليس) وظن أن القياس أمر خارج عن مضمون الكتاب والسنة ، ولم يدر أنه طلب حكم الشرع من مناهج الشرع ، ولم تنضبط قط شريعة من الشرائع إلا باقتران الاجتهاد به ، لأن من ضرورة الانتشار في العالم : الحكم بأن الاجتهاد معتبر . وقد رأينا الصحابة كيف اجتهدوا و كم قاسوا ، خصوصاً في مسائل الميراث من توريث الإخوة مع الجد و كيفية توريث الكلالة وذلك مما لا يخفى على المتدبر لأحوالهم . . . »[1]

وقد ترك الظاهريون المشكلات التي لم تخطر للنبي ﷺ ولا لأصحابه من حملة السنة ووقفوا عندها ، وانتشر مذهبهم بعض الانتشار في العراق وفارس وخراسان ، وكان منهم أناس في بلاد الشام ، في حين لم يكن بالأندلس منهم لعهد ابن حزم غيره . وقد حفظ الشعراني في ميزانه والرازي في تفسيره والمقريزي ، أنماطاً وقضايا للظاهرية فانظرها ثمة وعدوا ممن قال بالظاهر الإمام

---

(١) ٢ : ٤٥ على هامش كتاب الفصل لابن حزم .

أحمد بن حنبل أحد الأئمة الأربعة ، فهو بتركه القياس وأخذه بالمأثور ووقوفه عند النصوص أشبه الظاهرية .

جاء في رسالة للشيخ محمد الشطي . « ولما كان الإمام أحمد من أئمة الظاهر كداود بن علي الظاهري وابن حزم وغيرهما التزم البعض من متقدمي فقهاء الحنابلة نقل أحكام مذهب داود وغيره ككتاب رؤوس المسائل لأبي الخطاب محفوظ ... والرعايتين الصغرى والكبرى لابن حمدان وغيرهما من الكتب المعتمدة في المذهب[1] . »

والظاهريون بوقوفهم عند النصوص وطرحهم القياس كانوا إلى الرخصة والتسامح في بعض المسائل وإلى الشدة في بعض حتى إن المرء ليعجب من بعض أحكام يطبقونها ، فمن أمثلة ذلك :

أنهم يوجبون غسل الإناء من ولوغ الكلب (لظاهر الحديث) ولا يغسلونه من ولوغ الخنزير[2] لعدم وجود نص في الغسل من ولوغ الخنزير على التعيين .

---

(١) مجموع يشتمل على رسالتين الأولى في مذهب داود الظاهري جمع محمد الشطي والثانية في مسائل شيخ الإسلام ابن تيمية جمع برهان الدين ابن قيم الجوزية ص ٣ (دمشق سنة ١٣٣٠ هـ مطبعة روضة الشام)

(٢) المصدر السابق ص ٧

وهم يعدون الكلب والخنزير طاهرين ، وتطهر جلودهما بالدباغ[١]
ولا يشترطون الطهارة للصلاة على الجنازة[٢] .

ويجوزون للجنب قراءة القرآن والجلوس بالمسجد[٣] .

ولهم إزاء أمثال هذه الرخص تشديدات ألجأهم إليها الأخذ بحرفية النصوص ، من ذلك :

أنهم لم يشترطوا في البيع صيغة ما كبعض المذاهب واكتفوا بمجرد التراضي ، وهذا يسر ظاهر ، إلا أنهم أوجبوا فيه الإشهاد[٣] فرجع البيع في مذهبهم أشد منه في المذاهب الأخرى .

وأنهم جعلوا أكل لحم الجزور ناقضاً للوضوء[٤] أخذاً بألفاظ الحديث المشهور ، والرسول إنما أمر أصحابه بالوضوء بعد أكل لحم الجزور ستراً على الذي أحدث .

وأنهم أوجبوا غسل اليد ثلاثاً بعد النوم وحكموا بنجاسة الماء الذي مسته يد مستيقظ لم يغسل[٥] .

وإليك هذا المثال الأخير لتعرف طراز أخذهم بالظاهر :

« الماء ينجس إذا بال فيه بائل لحديث (لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه) فلو بال في إناء وصبه في الماء

---

(١) المصدر السابق ص ٧ أيضاً (٢) ص ١٠ (٣) ص ٢٠
(٤) ص ٩ (٥) ص ٦

أو بال عَلَى شيء فجرى البول إلى الماء فلا ينجس ! ![1] »

وأظن في هذا القدر كفاية في إطلاعك عَلَى أنماطهم في النظر ، وأصبح مذهبهم سمحاً سهلاً في أمور وشديداً في أمور . ومن الطريف أن تطلع على المسائل التي جمعها الشطي في مذهب داود وتقابلها بأمثالها في المذاهب الأخرى . وقد جاء في ختام الرسالة المذكورة : « ومن أراد الاطلاع على مذهب داود فعليه بكتب الإمام ابن حزم الظاهري و كتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي[1] » .

ولم يخل الأمر من حملة عنيفة يسوقها عليهم خصومهم : شأن كل مذهب ، فنرى القاضي أبا بكر بن العربي يصمهم بأنهم : « أمة سخيفة تسورت على مرتبة ليست لها ، وتكلمت بكلام لم تفهمه ، تلقفوه من إخوانهم الخوارج حيث تقول : لا حكم إلا الله » وقال عنهم :

« يقولون : (لا قول إلا ما قال الله ، ولا نتبع إلا رسول الله ، فإن الله لم يأمر بالاقتداء بأحد ولا بالاهتداء بهدي بشر) فيجب أن يتحققوا أنهم ليس لهم دليل وإنما هي سخافة وتهويل » ثم قال يوصي أصحابه بالطريق إلى تعجيزهم : « فأوصيكم وصيتين : ألا تستدلوا عليهم ، وطالبوهم بالدليل ، فإن المبتدع إذا استدللت

---

(١) المصدر السابق ص ٦ (٢) المصدر نفسه ص ٢٧

عليه شغب ، وإذا طالبته بالدليل لم يجد إليه سبيلا .

فأما قولهم : (لا قول إلا ما قال الله) فحق ، ولكن أرني ما قال الله . وأما قولهم : (لا حكم إلا لله) فغير مسلّم على الإطلاق ، بل من حكم الله أن يجعل الحكم لغيره مما قاله وأخبر به ، فصح أن رسول الله ﷺ قال : « وإذا حاصرت أهل حصن فلا تنزلهم على حكم الله فإنك لا تدري : ما حكم الله ؟ ولكن أنزلهم على حكمك . » وصح قوله : عليكم بسنتي وسنة الخلفاء ... الحديث »[1] اه

هذا ولست بصدد شرح آراء الموافقين والمخالفين ، فإن جمود المذهب على ظاهر النصوص أورثه بطئاً في حركة انتشاره حتى لم يعدُ طائفة خاصة ، ثم انقرض مع الزمن ، ولم يرزق ما رزقت بقية المذاهب من الانتشار ، لفقدانه المرونة الضرورية لكل زمان ومكان ، فاندثر ليبقى الأنسب .

خذ أياً شئت من كتب ابن حزم في الدين : الإحكام ، أو المحلّى أو غيرهما ، فستجد أينما قرأت أمثلةً من نظره الظاهري ووقوفه عند حرفية النصوص ، انظر مثلاً نقده لـ (فليلزم الجماعة) ص ١٩١ فتراه نقداً ظاهرياً يتعلق بالألفاظ لا يحيد عن مدلولها ،

---

(١) تذكرة الحفاظ .

وكذلك نقده القول المعروف (الشيطان مع الواحد) فقد رده : بأن انفراد الرجل في بيته غير منكر وقد قال رسول الله ﷺ (يرحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده) ، ومالي أشرع في ضرب الأمثلة ورسالة (المفاضلة بين الصحابة) هذه من أولها إلى آخرها بحث محكم على قواعد مذهبه الظاهري ، وقد وفق فيها وفي طريقة معالجة موضوعها توفيقاً يشعر بلذته القارئ المدقق .

وكأن القدر وضع ابن حزم بموضع المخالف المجاهد ، فاتباعه الشافعي أول الأمر جر عليه عداوة الفقهاء وتشنيعهم ، والقول بالظاهر بعد ذلك ، ألّب عليه وعلى نحلته أقواماً لا قبل له بهم ، ومع هذا استصغر الأذى في سبيل ما يرى أنه الحق وصمد لخصومه وكافحهم ولم يلق السلاح من يده حتى فارق الحياة ، بعد أن ملأ المغرب بدعوته وهو فرد ، كما اعترف خصمه العنيد أبو بكر بن العربي على ما يأتي .

ومن قصيدة لابن حزم تراها في موضع آخر أبيات يشرح فيها وجهة النظر الظاهرية وهي :

فقلت : هل عيبهم لي غير أني لا ... أقول بالرأي إذ في رأيهم أفن

وأنني مولع بالنص لست إلى ... سواه أنحو ولا في نصره أهن

لا أنثني نحو آراء يقال بها في الدين، بل حسبي القرآن والسنن

وخير لنا في وقفك على جهاده وما تحمله في سبيل دعوته، أن نسوق إليك قول أبي مروان بن حيان، فقد لخص لنا مجمل مالاقى في حياته من اضطهاد وإعراض في سبيل مذهبه، قال:

« ثم عدل إلى الظاهر فنقّحه وجادل عنه، ولم يكن يلطف صدعه بما عنده بتعريض ولا يرقّه بتدريج، بل يصك به معارضه صك الجندل وينشقه إنشاق الخردل، فينفر عنه القلوب ويقع به الندوب، حتى استهدف إلى فقهاء وقته، فتمالؤوا عليه، وأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنوّ منه. فطفق الملوك يُنصّونه (يبعدونه) ويسيِّرونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به منقطع أثره وهي بلدة من بادية لبلة وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع: يبث علمه لمن ينتابه من بادية بلده من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة، يسمعهم ويفقههم ويدارسهم، كمل من مصنفاته وقر بعير، لم يجاوز أكثرها عتبة باديته لزهد الفقهاء فيها، حتى لأُحرق بعضها بإشبيلية ومزقت علانية الخ »

على أنه قد وجد بعض التأييد من حاكم جزيرة ميورقة: العباس بن أحمد بن رشيق، فقد استدعاه إلى جزيرته بعد أن كانت

الفتيا فيها على مذهب مالك فلبى الدعوة ودخلها بعد سنة ٤٣٠ﻫ فنشر مذهب الظاهرية في كنفه حتى فشا، وكانت تقوم المناظرة بينه وبين خصومه في مجلس الحاكم نفسه، حتى إن أبا الوليد بن البارية الميورقي الفقيه المالكي لما ناظره بمجلس ابن رشيق، لم يستطع الوقوف لابن حزم وأتى ببعض الهفوات فأغلظ عليه القول ابن حزم، وعظم عليه ما أتى، ثم سجنه ابن رشيق أياما ولم يطلقه حتى أشهد عليه بالتوبة. وتركه يخرج إلى الحج فتوفي في وجهه. هذه هي كل الحماية التي ظفر بها ابن حزم.

ومن الغريب أن بعض الناس استغلوا تشيعه لبني أمية فرموه ببغض علي أي بالنصب. وما أكثر ما يلقى من نصب نفسه لقول الحق والصدع به، بمزاج مثل مزاج ابن حزم صراحةً وصدقاً وعدم مبالاة وإهمالاً للعواقب تجر عليه ما جرت.

وليس لأصحاب مذهب الظاهر كتب نعرف منها آراءهم وأصول مذهبهم إلا ما سمح ببقائه الدهر من كتب ابن حزم حتى قيل على ما مر بك آنفاً: « من أراد الاطلاع على مذهب داود فعليه بكتب الإمام ابن حزم الظاهري وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي » ولا ريب أن ابن تيمية عيال في هذا على ابن حزم.

هذا وقد أطبق الذين ترجموا له على ورعه وتدينه وزهده

وتحريه للصدق ، وتواضعه ولين جانبه ، مع عمل صالح وجرأة نادرة ، وصبر طويل واحتمال في ذات الله ، إلى فضائل جمة . وأنعم بها من مزايا لا تكمل إلا لعدد قليل يبعثهم الله في أحقاب متطاولة ، ليقربهم حقاً أضيع ويهدم باطلاً أشيع ، ويرجع عباده إلى دينهم الحق ، ويمتحنهم الله بما امتحن به أنبياءه الكرام عليهم الصلاة والسلام من أذى الناس وحسدهم ، وعذابهم ، فيحملون ذلك كله بصبر كبير وصفح جميل ويهدي بسيرتهم هذه أكثر مما يهدي بعلومهم .

وإنك لتلمس خوف ابن حزم من الله واليوم الآخر ، في كل ما تقرأ له ، بلغت الحماسة لدينه من نفسه كل مبلغ ، وملكت عليه وقته وتفكيره فطرح الدنيا وجاهها وغرورها ونبذ المناصب والوزارات لينشر الدين غريباً مشرداً طريد سجون وحكام ووشايات . وهذا ما تفعله العقيدة إذا حلت قلباً كبيراً ونفساً مخلصة . وقف قليلا عند ما ختم به رسالته (طوق الحمامة) ليغمرك جانب من هذا الإيمان العظيم ، لقلب طافح بشكر الله ، قال — وقد عرض لما أصابه من النكبات وقد مر بك أول هذا القول ص ٣٠ — : « لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا ، وإن الذي أبقى لأكثر مما أخذ ، والذي ترك أعظم

من الذي تحيّف ، ومواهبه المحيطة بنا ونعمه التي غمرتنا لا تُحدّ ولا يؤدى شكرها ، والكل منحه وعطاياه ، ولا حكم لنا في أنفسنا ، ونحن منه ، وإليه منقلبنا ، وكل عارية فراجعة إلى معيرها وله الحمد أولاً وآخراً وعوداً وبدءاً وأنا أقول :

إذا ماصح لي ديني وعرضي فلست لما تولى ذا اهتمام

جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين الحامدين[1] »



(١) طوق الحمامة ص ١٥٣

ه — أدبه

أولى من هذا المكان ببيان أدب ابن حزم ، كتاب برأسه يخصص لعرض أدبه الواسع العميق وتستجلي فيه صفاء نفسه الكبيرة وخطرات فكره العجيب . ولكننا نريد أن نرسم لمترجمنا صورة قريبة من الكمال بقدر الإمكان ، فلا مناص لنا إذن ، من الإلمام بأدبه في كلمة موجزة .

الأدباء الموهوبون قليلون ، وربما لم يكن لبعض العصور إلا أديب واحد ، بل ربما لم نظفر عصور متعاقبة بأديب ، والذين يتركون لنا مرآة واضحة عن نفوسهم ومجتمعهم وينقلوننا بسحر بيانهم وقوة روحهم إلى أعصارهم فنعايشهم ونخالطهم ونشعر بما شعروا ونحلق في الآفاق التي حلقوا ... هم صفوة هذا القليل . وأنا لا أعرف من هؤلاء في القرون الخمسة التي تلت الهجرة غير اثنين فقط : الجاحظ في المشرق وابن حزم هذا في المغرب ، على تفاوت بين الرجلين وميزات لكل منهما على الآخر .

كلا الرجلين عالم متمكن في الدين ، إمام مجتهد في مذهبه ، و كلاهما جادل و كافح ووضع الكتب والرسائل في نصرة مذهبه ومهاجمة خصومه . و كلاهما كان من الفصحاء الأبيناء الذين يمتزج كلامهم بأجزاء النفس سهولة ورقة ، وتستعذبه الآذان تقطيعاً

ورنينا . ثم كلاهما غرف من علوم عصره ما استطاع ، فكان رجل دين وأدب واجتماع وفلسفة ومنطق وتاريخ وأخبار ونوادر . وكلاهما لقي من حسد خصومه وكيد أعدائه ما عرضه للمحن وأذى الحكام ، وأخيراً كلاهما ترك من تواليفه مكتبة عظيمة ضاع أكثرها وبقي منها النزر اليسير ، دليلاً على سعة آفاقه وعظمة ثقافته .

فأما ما يفترقان فيه فالمزاج : كان الجاحظ هادئاً ساكن الطائر على دهاء ومصانعة ، وكان ابن حزم صلباً صريحاً عنيفاً حاد المزاج ذا لسان أمضى من سيف الحجاج . ثم هناك بعد ذلك ، عالمان كبيران تنقل فيهما ابن حزم وتمتع حتى تمكن ولم نعلم للجاحظ فيهما أثراً يذكر : الأول عالم الشعر فلقد كان ابن حزم شاعراً بليغاً مرهف الحس بعيد الأثر في النفس ولم يمتع الجاحظ من الشعر في ورد ولا صدر ، والثاني عالم الحب فقد نهل منه ابن حزم وعلّ ، وشرب كأسه حتى الثمالة ، وبلا من أحواله وأعراضه وأحزانه ومفارحه شيئاً كثيراً حتى لقد تفرد في المشرق والمغرب بالإيغال فيه والغوص على أسراره . وأكاد أقول إنه فيه إمام مجتهد كما هو في الدين إمام مجتهد . ولم يكن — فيما علمنا — للجاحظ في هذا اللون من الحب نصيب .

وابن حزم على هذا لم ينزو انزواء العلماء ، بل عوضه الله

عن رج عزلتهم وتأملاتهم نظرة فاحصة عميقة ، وذكاء سريعاً وقاداً ، فنزل إلى الساحات والأسواق ، وغشي المجالس والمجتمعات ، وخالط الفقهاء والعوام والصناع والنساء والعطارين والفتيان والأمراء والخلفاء ، فترك لنا معارف زاخرة عن مجتمعه لا نجدها في شيء من كتب التاريخ . والغريب أن هذا كله محشور بين دفتي رسالة مختصرة عن كتاب في موضوع الحب هي : طوق الحمامة . فما ظنك لو سلم لنا تراث ابن حزم كله ، إذن لنعمنا بحياة خصبة نحياها حالمين في فردوسنا الأندلسي .

عرّفنا ابن حزم كثيراً من أسرار الأسر النبيلة ووقائع الغرام فيها على رغم الحجاب الغليظ والرقابة الدقيقة ، وأنهم إلى التصوّن في علائقهم هذه أقرب منهم إلى التبذل ، كما أطلعنا علَى مجتمعات النساء بباب العطارين في قرطبة . ولقد تكفل بفضح الهوى الساحقة التي ارتطم فيها أُناس نساك تنطعوا في نسكهم وتكبروا به على المستورين ، فما هي إلا جولة حتى هووا من حالق صوامعهم إلى قيعان الفساد ، كل هذا بأسلوب قصصي ساحر جذاب . والشيء الخطير حقاً هو أن ابن حزم حين يؤلف ، يستمد من تجاربه الشخصية أكثر مادته ، لقد خاض الحياة وتقلب في نعيمها وتمرغ في بأسائها وخبرها عُلواً وسفلاً خبرة العالم النفسي الدقيق في ملاحظاته وتقييدها . لقد انعكست في فكره وكتبه الأندلس كلها بأجناسها وعلومها وآدابها وعاداتها وسموها

وإسفافها وترفها وفتنها وأسرارها فجلاها لنا في مرآة صافية لا تعلوها غبرة ولا صدأ .

وفق في بيان هذا كما وفق قرينه الجاحظ ، وما أظن تصوير الجاحظ للحسود ببعيدة عن ذهنك حين وصف تغير سحنته وتحول لونه وخوص عينيه[1] . . . وجميع العوارض (الفسيولوجية) ، فوازنها بما سيمر بك من دراسة ابن حزم للتغيرات الطارئة على المرأة في حضرة رجل أو الرجل إذا أحس امرأة ! في نبرة الصوت وإطالة الكلام ، وتكلف الحركات . . . وإن تفوق ابن حزم في هذا على صاحبه راجع إلى أن القرن الخامس في الأندلس أبسط آفاقاً في الثقافة وألوانها من زمن الجاحظ .

ولك أن تقابل بين وصف الجاحظ للحسد ووصف ابن حزم له في رسالة (فضل الأندلس) لقد أحسن الرجلان تصويراً لأن كلاً منهما يصف ما يعاني ويجد .

* * *

لم يصل إلينا من آثار ابن حزم في الأدب إلا القليل . والظاهر أن له طائفة صالحة من الشعر حتى استطاع ابن بشكوال

---

(١) أنظر ذلك في رسائل الجاحظ ص ٥ طبعة الساسي .

أن يجمع له ديواناً على حروف المعجم[١] ..

وذكر هو في كتابه طوق الحمامة ص (١١٩) إتلاف صديق له جميع ما كاتبه به من نثر أو شعر . وإذا عرفنا أن المقاطيع الصغيرة الباقية في طوق الحمامة ، هي من قصائد طوال في الأصل أدركنا مبلغ الضائع من شعره ، والذي في الطوق دون الألف من الأبيات ، وأنا أقدرها كاملة بعشرة آلاف بيت في موضوع واحد هو الحب .

وله في طبقات السبكي (٢ : ١٨٤) قصيدة طويلة بلغت أبياتها ١٤٠ أجاب بها ملك الروم « نقفور » عن رسالته التي أرسلها إلى المسلمين يهدد ويتوعد . والقصيدة تزخر بالقوة والتبكيت ، والفخر والوطنية ، والاعتداد بجميع أقاليم العرب . وقد أظهر فيها اطلاعه الواسع على التاريخ والجغرافية والملاحم ، وختمها بمدح الرسول ﷺ وتقريع من يسميهم (عبدة عيسى) والهزء بزاعمهم على أسلوبه الخاص ، فانظرها في مظنتها .

لم يتكسب ابن حزم بشعره قط ، ولم يمدح إلا نادراً وكان

---

(١) قال ابن بشكوال في الصلة : وله في الآداب الشعر نفس واسع وباع طويل وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه . وشعره كثير قد جمعناه على حروف المعجم .

مدحه لأقرانه في الجاه والعلم فهو إذن يقول الشعر إرضاء لفنه الخالص كما يقولون ، وتفريجاً لهمومه وأحزانه ، وترجماناً عن نزواته وخلجاته .

ومع اشتغاله بالعلوم الدينية وغيرها ، لم يكن شعره ليشبه في وجه من الوجوه ما يسمى (شعر الفقهاء) . وهو شاعر فحل مطبوع قبل أن يكون فقيهاً وقبل أن يكون عالماً . والأدب هبته الأصلية والعلم طارئ عليه ولم يؤثر فيه من الناحية الشعرية ، بل لا نكون إلى الغلو إذا قلنا إن ابن حزم طبع العلوم والدين والجدل والتأليف ... بالطابع الأدبي الجميل . وإنه على كل حال في الطليعة من بلغاء الأندلس شعراً ونثراً .

وعلة التفوق في جميع الموضوعات التي طرقها ابن حزم هو أنه لا يعالج إلا ما أوسعه بحثاً ودرساً وتفكيراً فيه . أما في الأدب خاصة فيرجع السبب في إجادته وسموه إلى أنه لم يصف إلا ما شاهد وكابد وشعر به ، لم يكن عالة على غيره في وصف طبيعة أو ترجمة عاطفة أو شكوى أو سرور أو حزن ... قال في مقدمة الطوق :

« وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ولا أتحلى بحلي مستعار [1] » .

هذا هو السر في تأثير بلاغته وأخذها بمجامع القلوب ونفاذها إلى أعماق النفوس .

---

(١) ص ٣

لغة ابن حزم من السهل الرقيق الممتنع ، لا يكاد يستعمل لفظة غير مأنوسة ، وهو أبعد ما يكون عن الحوشي والتعقيد ، تقرأ له في الأدب كتاباً بكامله مثل طوق الحمامة نثراً وشعراً فلا تكاد تشعر بحاجة إلى الرجوع إلى المعاجم ، بعيد عن الصنعة المتكلفة ، غني عن اللعب بالألفاظ ، أغنته عنها تلك البحور الدافقة على ذهنه من المعاني الخصبة والعواطف الصادقة المشبوبة ، فليس إلا أن يقول . وكثيراً ما كان يقول الشعر الجيد على البديهة بسرعة لا تجارى .

وإذا لجأ إلى المجاز في بيانه ، أمتعك بأصدقه وأقربه ثم حشد فيه صوراً طافحة بالألوان الزاهية السارة . انظر إلى تصويره آخرة الحب ، وغرور المرء بأوله :

كمغتر بضحضاح قريب فزلّ فغاب في غمر المدود

تجد أنه تصوير أوضح من المحسوس ، ومجاز أصدق من الحقيقة ، مع تلخيص بليغ لتاريخ الحب من جميع نواحيه ، وما أدركت قط فهماً أعمق في بيان مزالق الحب من هذا .

ويريد أن يبين عن حال عاشق متيم متكتم لا يفصح عن حبيبه على رغم ضناه ، فيطلب له مجازاً يقر رحاله فينتزع مراده بلطف مما ترى العين وتسمع الأذن :

كخط يرى رسمه ظاهراً　　وإن طلبوا شرحه لم يبن

كصوت حمام على أيكة　　يرجّع بالصوت من كل فن

تلذ بفحواه أسماعنا　　ومعناه مستعجمٌ لم يبن

وانظر تلطفه في تشبيه الهلال :

كحاجب الشيخ عم الشيب أكثره　　.　.　.

وقوله في قوس قزح :

ولاح في الأفق قوس الله مكتسيا　　من كل لون كأذناب الطواويس

والبيت الأخير يعج بالألوان البراقة ، وقد أبدع فيه بما لا مزيد عليه .

والغريب أن صاحبنا يلذ أن يحاكي أحياناً أرباب الصنعة للتسلية فقط ، فيتكلف لذلك ما لو رامه أحدهم لجاء بغاية الاستكراه . وأنت تعلم أن الأقدمين ما زالوا يعجبون من تشبيه امرئ القيس شيئين بشيئين في قوله :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً　　لدى وكرها العناب والحشف البالي

ويقطعون لصاحبه بالانفراد في الإجادة حتى جاء بشار ببيته :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا　　وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ثم أتى المتكلفون يقلدون فلا يبلغون ، وعنّ لابن حزم أن يجاريهم فسبقهم إذ شبه ثلاثة بثلاثة في بيت واحد :

كأن الحيا والمزن والروض عاطراً　　دموع وأجفان وخد مورّد

بل شبه خمسة بخمسة في بيت واحد فأتى أبعد ما يكون من التكلف وأقرب إلى الطبع وأحظى في الإجادة :

كأني وهي والكأس والخمر والدجى ثرى وحيا والدر والتبر والسنج[1]

وانظر نظمه قصيدة أعجازها من معلقة طرفة بن العبد (طوق الحمامة ص ٧٤) .

وفي ثنايا شعره حكم جيدة رمى بها طبعٌ مواتٍ وبصيرة نافذة ، أراد أن يبين عن أثر العادة وقوة تحكمها في الإنسان فقال :

فلو يتغذى المرء بالسم قاته وقام له منه غذاء مجرب

وتأمل قوله :

أفعال كل امرئ تنبي بعنصره والعين تغنيك عن أن تطلب الأثرا

وهل ترى قط دفلى أنبتت عنبا أو تذخر النحل في أوكارها الصبرا

وما أسرع ابن حزم حين يلقي حكمه ، إلى الإتيان بالصورة المقررة التي لا تدع مجالاً لريب الفكر وتردده ، هو مغرم بالصور موفق في إجادتها وصدقها . وإنها لتستقر في الأذهان على الدهر لإحكامها وقربها . ولقد قال الأول :

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد

على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذي ود

فلما أتى الشاعر العالم بالنفس المجرب في الحب ، أخذ المعنى

---

(١) كذا في الأصل (طوق الحمامة ص ١٥) ولعل التحريف عن (السبج) بالباء وهو الخرز الأسود .

(خاماً) فردده في نفسه وفكره ثم أخرجه بهذه الصورة :

بلى إن في قرب الديار لراحة كما يمسك الظمآن أن يدنو الورد

والشطر الأخير آية في الروعة والسحر وكلمة (يمسك) منه محط الإعجاز ، والتشبيه هنا هو الذي يقرر المعنى ويوطد له حتى يتمكن .

* * *

لنثر ابن حزم خصائص نثر الجاحظ تقريباً ، إلا أنه يتفوق عليه بميزتين اثنتين : الأولى خلوه من الاستطرادات التي قد تمل كثرتها قارئ الجاحظ ، والثانية ترتيب معانيها ترتيباً يكاد يكون منطقياً . ثم يستقل أبو عثمان بطول النفس وجمال النكتة وخفة الروح .

وإذا كان شعر ابن حزم مأنوس اللفظ قريب المتناول سلس الأسلوب ، فأحر بهذه السمات أن تكون في نثره أظهر .

وسأعرض عليك قطعة من طوق الحمامة ، لو دسستها في كتاب للجاحظ ، ما استطاع ناقد عارف مهما أوتي من دقة البصر أن يميزها مما حولها : معانٍ خصبة ، في جمل صغيرة مقطعة تقطيعاً موسيقيا ، لذيذ الجرس ، حلو النبرات ، فيها دلالة صريحة على أن اللغة طوع يد ابن حزم يدع منها ويأخذ ما شاء كيف شاء ،

تتوارد عليه مفرداتها وتراكيبها ومترادفاتها من كل جانب ، فيعقد منها الفقر المزدوجة التي تسحر اللب وتطرب السمع ، قال :

« وإن فيما يبدو إلينا من تعادي المتواصلين في غير ذات الله تعالى بعد الألفة ، وتدابرهم بعد الوصال ، وتقاطعهم بعد المودة ، وتباغضهم بعد المحبة ، واستحكام الضغائن ، وتأكد السخائم في صدورهم ... لكاشفاً ناهياً لو صادف عقولاً سليمة وآراء نافذة وعزائم صحيحة ... ولقد رأيت امرأة كانت مودتها في غير ذات الله عز وجل ، فعهدتها أصفى من الماء ، وألطف من الهواء ، وأثبت من الجبال ، وأقوى من الحديد ، وأشد امتزاجاً من اللون في الملوّن ، وأنفذ استحكاماً من الأعراض في الأجسام ، وأضوأ من الشمس ، وأصح من العيان ، وأثقب من النجم ، وأصدق من كدْر القطا ، وأعجب من الدهر ، وأحسن من البر ، وأجمل من وجه أبي عامر ، وألذ من العافية ، وأحلى من المنى ، وأدنى من النفس وأقرب من النسب ، وأرسخ من النقش في الحجر » فهل يخطر على بالك شيء بعد هذا الاستيفاء الذي جمع فيه ابن حزم كل المحاسن والأطايب ليخبر عن شمائل تلك المرأة ؟ وهل رأيت فناً كفنه وعذوبة كعذوبة جمله لفظاً ومعنىً وطيب موقع ؟ لقد أتى بها في جمل قصيرة ملحنة ، تدل علَى سعة محفوظه وحضور ذهنه

وإحاطته بلغته وتمكنه من معانيه ، فانظر بعد ذلك كيف انقلبت مودة المرأة إلى أضداد تلك الصفات ، وزد إن كنت مستطيعاً على ما ذكر ابن حزم فقرة واحدة ، إنه جمع لنا مساوئ الدنيا ومرائرها في هذه النغمات :

« ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة : أفظع من الموت ، وأنفذ من السم، وأمر من السقم ، وأوحش من زوال النعم ، وأقبح من حلول النقم ، وأمضى من عقم الرياح ، وأضر من الحمق ، وأدهى من غلبة العدو ، وأشد من الأسر ، وأقسى من الصخر ، وأبغض من كشف الأستار ، وأنأى من الجوزاء ، وأصعب من معاناة السماء ، وأكبر من رؤية المصائب، وأشنع من خرق العادات ، وأقطع من فجأة البلاء ، وأبشع من السم الذعاف ، ومالا يتولد مثله عن الذحول والترات ، وقتل الآباء وسبي الأمهات[1] .. »

هذا ولا يفوتنك لطف مذهبه في إدخال ألفاظ فنه المجردة في هذه القطعة الأدبية ، فإن (امتزاج اللون بالملون ، واستحكام الأعراض في الأجسام ، والعيان ..) وما شابهها من ألفاظ المشتغلين بالمنطق والفلسفة والكلام ... مما لا تهضمه صفحات الأدب ، إلا

---

(١) طوق الحمامة ص ١٣٢

إذا أتيح لها صوّاغ موهوب مفن كابن حزم .

وقد ذكرت لك في بحث حبه القصة الشائعة التي رسمها هو نفسه بريشته ، ولا شك أنك ستولي انتباهاً خاصاً للعبه بالنفوس بمثل هذه الجمل الرائعة « .. فلقد أثارت وجداً دفينـاً وحركت ساكناً ، وذكرتني عهداً قديماً ، وحباً تليداً ، ودهراً ماضياً ، وزمناً عافياً ، وشهوراً خوالي ، وأخباراً بوالي ، ودهوراً فواني ؛ وأياماً قد ذهبت ، وآثاراً قد دثرت ... ، زاد الشجى ، وتوقدت اللوعة ، وتأكد الحزن ، وتضاعف الأسف ... ، وقد تغير أكثر محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفنيت تلك البهجة ، وغاض ذلك المـاء الذي كان يرى كالسيف الصقيل ، والمرآة الهندية ... الخ » لقد افتن كل الافتنان،واحتال ألطف الاحتيال حتى أضفى على معانيه هذه الحلل البراقة ، والنور اللألاء ، ومكّن للمعنى من أطرافه وحواشيه حتى يقر في الصدر ويفوز من النفس بأبلغ الأثر . وهذه ميزة ابن حزم على المتكلفين في التزام السجع وحشر المترادف .

إنه إذا قصد إلى معنى طريف لم يهجم بك عليه بادئ الرأي ، ولكنه يأخذ بيدك في طريق ملتف فلا يزال بك كالنحلة من زهرة إلى زهرة ومن ثمرة إلى ثمرة ومن روضة إلى ينبوع ،

حتى تطمئن وتظن كلما وقفت على روعة من الروائع أنها هي المقصودة بالذات الممهد لها بما سبق ، فما أسرع ما يخلف ظنك حين يقفك موقفاً أحلى من الأول ولا ينفك بك في لف ودوران لذيذين ... هكذا حتى يستقر بك على غرضه فإذا بك في سدة عدن ، وإذا كل ماسبق تمهيدات يغري بعضها ببعض ، خذ هذا المثال :

« ولقد جربت اللذات على تصرفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها . فما للدنوّ من السلطان ، ولا المال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوبة بعد طول الغيبة ، ولا الأمن بعد الخوف ، ولا التروّح على المال ... من الموقع في النفس ماللوصل؛ ولا سيما بعد طول الامتناع وحلول الهجر ... وما أصناف النبات بعد غب القطر ، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات في الزمان السجسج ، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوْر ، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر ... بأحسن من وصل حبيب ... »[1] أو هذا المثال[2] :

« ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه . ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء ، وتحكم الوزراء ، وانبساط مدبري الدول ، فما رأيت

---

(١) طوق الحمامة ص ٥٦ (٢) ص ٦٧

أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ... وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان . »

وماذا أختار لابن حزم ؟ فيكفيك ما في الفصول السابقة واللاحقة وخاصة حديثه عن حبه وعن نكباته ، ففيه أصدق صورة عن فنه . ولقد قص قصة عن قاض وقور عشق عشقاً عفيفاً بقيت حسرته تزداد حتى أوردته حتفه ، ثم يذيلها بشمائل هذا القاضي تذييلا يذكرنا بصفة الجاحظ لقاضي البصرة سوار . قال ابن حزم : « هذا ، على أن أبا عبد الله (يعني القاضي) أكرم الله نزله ، ممن لم يكن له ولهٌ قط ، ولا فارق الطريقة المثلى ، ولا وطئ حراماً قط ، ولا قارف مسكراً ، ولا أتى منهياً عنه يخل بدينه ومروءته ، ولا قارض من جفا عليه ، وما كان في طبقتنا مثله[1] » .

* * *

لست أستطيع الإفاضة في عرض ألوان ابن حزم الأديب ، وكل ما فعلته وثبات سريعة تعطي عن الرجل فكرة فقط . غير أنه لا مندوحة لي — والرسالة التي أنشرها في الدين — أن أعرض لأثر ثقافته في أدبه ، فلا يجمل بي طيها وابن حزم ذلكم العالم الديني المجتهد الإمام .

---

(١) طوق الحمامة ص ١٦٨

اشتغال المرء بصناعة ما ، يجعل ألفاظ أدواتها وأفعالها وأشيائها كثيرة الدوران على لسانه ، بحكم دؤوبه وممارسته لها ، والمرء أكثر ذكراً لما يعانيه ويكد خاطره . وهذه ظاهرة نجدها بارزة في كثير من الأدباء فتندس مفردات الحرفة التي تزاولها أسرهم في آثارهم من حيث لا يشعرون . وفي أدبنا العربي طوائف من هذا النمط ، فبعض الشعراء دارت في أشعارهم كلمات ومصطلحات تتعلق بالدين أو المنطق أو النحو أو الفلسفة أو غيرها ، والمتنبي استعمل ألفاظ الفلاسفة والحكماء حتى أغرب في ذلك وسمجت أبياته الحاملة لهذه الألفاظ . ولأمر ما سموا بعض الأشعار أسماء خاصة فقالوا : شعر الفقهاء وشعر الكتاب وشعر النحاة ، يريدون بذلك إبعاد هذه الألوان عن ساحة الشعر . إلا ابن حزم فإنه على رغم ما حمل شعره من ثقافته الدينية والنحوية والتاريخية ، بقي خالصاً من الشوائب للتوفيق الذي وهب له في (تأديب) العلم إن صح هذا التعبير . لا يشعر قارئه وهو يقرأ في شعره أموراً هي من أدب الدين أو من النحو أو التاريخ ، أنه فوجئ بما يبعده عن جوه العلوي الساحر . وسترى أنه — لقوة طبعه وجبروت ذهنه — وفق في هذه الناحية من حيث أخفق المتنبي وإليك الأمثلة ، قال :

عَلى كل من حولي رقيبان رتبا وقد خصني ذو العرش منهم بثالث

يعني بهما الملكين اللذين يحصيان حسنات المرء وسيئاته . وقال

كأنما هو توحيد تضيق به نفس الكفور فتأبى حين تودعه

وقال :

وخذني عصاموسى وهات جميعهم ولو أنهم حيات بيض نضانض

وقال :

يرجون مالا يبلغون كمثل ما يرجي محالاً في الإمام الروافض

وقال :

كأن زماني عبشمي يخالني أعنت على عثمان أهل التشيع

يشير إلى بغض الأمويين للذين أعانوا على قتل الخليفة عثمان ابن عفان ، وتعقبهم لهم بالقتل . وقال :

كذب المدعي هوى اثنين حتماً مثل ما في الأصول : أكذب ماني

فكما العقل واحد ليس يدري خالقاً غير واحد رحمان

فكذا القلب واحد ليس يقوى غير فرد مباعد أو مدان

هو في شرعة المودة ذو شـ ـك بعيد عن صحة الإيمان

وكذا الدين واحد مستقيم وكفور من عنده دينان

وقال :

كذلك يعقوب نبي الهدى إذ شفه الحزن على يوسف

شم قميصاً جاء من عنده وكان مكفوفا فمنه شفي

وقال :

كذلك فعل السامري وقد بدا لعينيه من جبريل إثر ممجد

فصير جوف العجل من ذلك الثرى فقام له منه خوار ممدد

وقال مشيراً إلى قضية نحوية :

أبت عن دنيء الوصف ضربة لازم كما أبت الفعل الحروف الخوافض الخ

فالتوحيد والكفر والإيمان وأهل التشيع والروافض والثانوية ...
قضايا تتعلق باختصاصه الديني ، كما أن عصا موسى مع الحيات ،
والنبي يعقوب وقميص يوسف ، والسامري الذي قبض قبضة من أثر
جبريل فقذفها في فم العجل فخار ، كلها قصص وردت في القرآن
الكريم . وقتل عثمان وما نشأ حوله من شيعة وأمويين يناصب
الفريق منهم الفريق الآخر العداء ، وشخصية ماني والثانوية ... أمور
معروفة استمدها من ثقافته التاريخية الواسعة . والفعل والحروف
الخوافض قضية معروفة في النحو . وستأتيك عند الكلام على
حبه ، مقطوعة شعرية له ذهب بها إلى حل الهوى العفيف وأصمى بها
المتنطعين بضربة قاطعة ، إنها اتخذت شكل فتوى شرعية مؤيدة
بالحجج ومُناهضة للخصوم بجدل قوي محكم ، وهي بعد هذا
وهذا من الشعر الرائق الجميل .

وأختم هذا الفصل بوصف نزهة حضرها ، تضيفها إلى ما اطلعت
عليه – مع قلته – من نعته للجمال في الطبيعة والناس ، وقد اخترتها
لأنها جمعت نثراً وشعراً في موضوع واحد قال :

« تنزهت أنا وجماعة من إخواني من أهل الأدب والشرف

إلى بستان لرجل من أصحابنا . فجلنا ساعة ثم أفضى بنا القعود إلى مكان دونه يُتمنى ، فتمددنا في رياض أريضة[١] ، وأرض عريضة ، للبصر فيها منفسح وللنفس لديها منسرح ، بين جداول تطرد كأباريق اللجين ، وأطيار تغرد بألحان تزري بما أبدعه معبد وابن الغريض ، وثمار مهدلة قد ذلت للأيدي وذللت للمتناول ، وظلال مظلة ، تلاحظنا الشمس من بينها فنتصور بين أيدينا كرقاع الشطرنج والثياب المدبجة ، وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة ، وأنهار متدفقة تنساب كبطون الحيات ، لها خرير يقوم ويهدأ ، ونواوير مونقة مختلفة الألوان ، تصفقها الرياح الطيبة النسيم ، وهواء سجسج[٢] ، وأخلاق جلاس تفوق كل هـذا ؛ في يوم ربيعي ذي شمس ذليلة ، تارة يغطيها الغيم الرقيق والمزن اللطيف ، وتارة تنجلي فهي كالعذراء الخضرة والخريدة الخجلة ، تتراءى لعاشقها من بين الأستار ، ثم تغيب فيها حذر عين مراقبة . وكان بعضنا مطرقاً كأنه بحالة أخرى ، وذلك لسر كان له ، فعرّض لي بذلك وتداعبنا حيناً ، فكلفت أن أقول على لسانه شيئاً في ذلك ، فقلت بديهة ، وما كتبوها إلا من تذكرها بعد انصرافنا وهي :

---

(١) معجبة للعين . (٢) معتدل لا حر ولا قر .

ولما تروحنا بأكناف روضة مهدلة الأفنان في تربها الندي
وقد ضحكت أنوارها وتضوعت أساورها ؟ في ظل فيء ممدد
وأبدت لنا الأطيار حسن صريفها فمن بين شاك شجوه ومغرد
وللماء فيما بيننــا متصرف وللعين مرتاد هنــاك ولليد
وما شئت من أخلاق أروع ماجد كريم السجايا للفخار مشيد
تنغص عندي كل ما قد وصفته ولم يهنني إذ غاب عني سيدي
فياليتني في السجن وهو معانقي وأنتم معاً في قصر دار المجدد
فمن رام منا أن يبدل حاله بحـال أخيه أو بملك مخلد
فلا عاش إلا في شقاء ونكبة ولا زال في بؤس وخزي مردد

فقال هو ومن حضر : آمين آمين[1] » .

هذا وقد مر بك من شعر ابن حزم في موضعه ، طائفة إلا تكن وافية فإنها مفصحة بعض الإفصاح عن طبعه في الشعر ورقة عاطفته وعذوبة لفظه وحلاوة مدخله . ولا بأس في أن أزيدك إلى ما تقدم ، حفنة جد قليلة مع تنبيهك إلى أن كتابه (طوق الحمامة) على صغر حجمه يصلح أن يكون له ديوان شعر ونثر .

فمن قوله يصف دهره وما لقي فيه :

هل الدهر إلا ماعرفنا وأدركنا فجـائعه تبقى ولذاته تفنى

---

(١) طوق الحمامة ص ٩٧ — ٩٨

إذا أمكنت فيه مسرة ساعة تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات في المعاد وموقف نود لديه أننا لم نكن كنا
حصلنا على هم وإثم وحسرة وفات الذي كنا نلذ به عينا
حنين لما ولى وشغل بما أتى وغم لما يرجى فعيشك لا يهنا
كأن الذي كنا نسر بكونه إذا حققته النفس لفظ بلا معنى (١)

وقال يشكو ما لقي من أهل بلده من الضياع :

ولي نحو أكناف العراق صبابة ولا غرو أن يستوحش العاشق الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب
هنالك تدري أن للعبد قصة وأن كساد العلم آفته القرب (٢)

ومن لطيف دعابته قوله :

وذي عذل فيمن سباني حسنه يطيل ملامي في الهوى ويقول :
أمن أجل وجه لاح لم تر غيره ولم تدر كيف الجسم : أنت عليل ؟؟
فقلت له : أسرفت في اللوم فاتئد فعندي رد لو أشاء طويل :
ألم تر أني ظاهري وأنني على ما أرى حتى يقوم دليل (٣)

فلم يشأ ابن حزم أن يدع (ظاهريته) حتى في الحب والجمال .

ومن قوله في الشوق لأحبابه :

---

(١) معجم الأدباء والصلة لابن بشكوال ص ٤٠٨ .
(٢) معجم الأدباء .
(٣) المصدر السابق ونفح الطيب .

لئن أصبحت مرتحلا بجسمي   فقلبي عندكم أبداً مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى   له سأل المعاينة الكليم[(١)]

وقصد يوماً أبا عامر بن شهيد في يوم غزير المطر والوحل، شديد الريح، فلقيه أبو عامر وأعظم قصده وقال له: «يا سيدي مثلك يقصدني في مثل هذا اليوم؟ !!» فأنشده ابن حزم بديهاً:

فلو كانت الدنيا دُوَيْنك لجة   وفي الجو صعق دائم وحريق
لسهّل ودي فيك نحوك مسلكاً   ولم يتعذر لي إليك طريق[(٢)]

وقال في الفراق:

أقمنا ساعة ثم ارتحلنا   ومايغني المشوق وقوف ساعه
كأن الشمل لم يك ذا اجتماع   إذا ما شتت البين اجتماعه[(٣)]

ومن قوله في الحكم ما أرسله يعتذر عن تخلف حظه:

لا تلمني لأن سبقة حظ   فات إدراكها ذوي الألباب
يسبق الكلب وثبة الليث في العد   و ويعلو النخال فوق اللباب[(٤)]

إلى غير ذلك من الأشعار التي كانت بحق كما نعتها في مقطوعته التي قرّع فيها ابن عمه:

وأبعث في أهل الزمان شوارداً   تلينهم وهي الصعاب النوافر

ومن قوله يفتخر بعلمه وعصاميته ويذكر جاهه الذي صدف عنه:

---

(١) نفح الطيب.
(٢) المصدر السابق ١ : ٤٢٨ فما بعد.
(٣) ابن خلكان.   (٤) نفح الطيب.

بلغت من الدنيا ذرى أربي … في لذة العيش والسلطان والنشب
فأذهبت دول الأيام منزلتي … وزاد فقدي للذات في كربي
وكان مالي لهذا كله تبعاً … بل صار عوناً لأعدائي على طلبي
لكن رجعت وقد جلد الزمان إلى … كنز من العلم والأخلاق والأدب
فأعجز الدهر أن يودي بواحدة … منها وأقصر عني واهي السبب
لا أختشي تضع الأيام منزلتي … مدى الزمان وعندي أغلب الطلب
لا يستطيعون عزلي عن ولايتها … إذ كل وال لهم بالعزل في العقب
هذا بلا كلفة مني ولا حرس … ولا عديد ولا إنفاق مكتسب
وكل من كان في دنياي يصحبني … ناديته حين خانتني فلم يجب
كلام من جرّب الأمرين واتضحت … له المذاهب من جد ومن لعب
أنا ابن من دبر الدنيا بخاتمه … عشرين عاماً وعشر بعد لم يرب
وإن منزلتي في العلم منزلة … في الملك حظ كحظ الصادق النسب
ما زلت أذخره دهري وأنفقه … (دأباً) كمثل اللجين المحض والذهب
وإنني لبخيل بالسلام إذا … بخلت بالعلم من لفظي ومن كتبي
لو استطعت منحت الناس كلهم … ما قد تجمع في حفظي وفي كتبي
أأبذل المال يفني البذل حاصله … ولست أبذل ما ينمي على النهب
سائل بأي علوم العالمين تجد … عندي ينابيع ذاك العلم من كتبي [1]

* * *

---

(١) مجلة المقتبس : المجلد الاول .

هذا ما أمكنت منه خطتي في الترجمة ، وما واتت عليه الفرصة ، وليس أدب ابن حزم بالذي تستوفى إحدى نواحيه في هذه الصفحات ، لأنه – وخاصة في رسالة طوق الحمامة – : أديب عالمي سبق عصره قروناً ، وإني لأرجو أن أتيح لنفسي فرصة أخرى فأتكلم على أدبه خاصة إذا يسر الله لي جمع ما تفرق من شعره ونثره .



و — حبه

شاء الله لابن حزم أن يكمل من حيث نقص كثيرون فهيأ كل شيء لهذه النفس السامية حتى خفقت بالحب النبيل العف الطهور ، ذلك الحب الذي نعمت به قلوب الصفوة من العباد الصالحين .

والأندلس لعهد ابن حزم مرتع الجمال العجيب : في طبيعته وفي أهله رجالاً ونساء ، عجت بالحور من مختلف الأجناس ، من آسية وإفريقية وأوروبة فتوالد من تمازج الأعراق جيل جديد تم للأندلس به جمال خاص أثر في رجالها فلطّف طباعهم وطبع أدب الأندلس بهذا الطابع الرقيق الجذاب الذي تفردت به .

وابن حزم منذ نعومة أظفاره ، صافي النفس رقيق الشمائل مرهف الحس ، مشبوب العاطفة . يزين ذلك كله تهذيب (أرستقراطي) متوارث ، وعقل واسع وعزيمة ضابطة مع خوف من الله عز وجل .

والذي عجل تفتح قلبه ، إشراف أرقى الأندلسيات على تربيته ، وإحاطته إلى زمن استتمام رجولته بسيدات هن أرقى نساء مجتمعه . فصبا وخفق بالحب قلبه ثم تمكن واشتد ، ونفّس عنه بمقاطيع من الشعر تفيض رقة وحرقة . وليس لأحد أن يستغرب من إمام كابن حزم أن يملكه الجمال ، ويأسر لبه ، فما كان رجال الشريعة يوماً

من الدهر غُلف القلوب ولا عُمي العيون ولا متبلدي الحس ، بل إن ثقافتهم بطبيعتها لتهديهم إلى معجزات الله في الجمال ، وتحدوهم على تقديرها والتمتع بنعمها وشكر المبدع في صنعها .

وإن من أعرض عن نداء عواطفه التي أودع الله في قلبه ، وتهاون بنظام بنى الله عليه الكون منذ بدء الخليقة ، لكائن لم تكمل آدميته ، رجلاً كان أو امرأة . والله الذي ميز الانسان بالتفكير السامي هو الذي غرس في قلوب كل جنس نوازع نحو الجنس الآخر ، وجعل بينهما مودة ورحمة لتتم حكمته في عمران الدنيا والعازفون عن سنة الله في بريته معطلون ناقصون ، وما جعل الله يوماً من القربات إليه تعطيل نظام أحكمه بيديه .

ولقد بهرج ابن حزم — رحمه الله — هذا الضرب من الورع الكاذب ، وزيفه أشد تزييف فقال :

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى

وسيان عندي فيك لاح وساكتُ

يقولون : جانبت التصاون جملة — وأنت عليهم بالشريعة قانت

فقلت لهم هذا الرياء بعينه — صراحا وزي للمرائين ماقت

متى جاء تحريم الهوى عن محمد — وهل منعه في محكم الذكر ثابت

إذا لم أواقع محرماً أتقي به — مجيئي يوم البعث والوجه باهت

فلست أبالي في الهوى قول لائم　　　سواء لعمري جاهر أو مخافت
وهل يلزم الإنسان إلا اختياره　　　وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت [1]

إذاً لقد أحب ابن حزم ولا مناص ، والحب السامي اضطراري لا اختياري ، يبعثه الجمال في القلب الكامل والنفس الزكية والطبيعة الشاعرة . وكان من نعمة الله على المكتبة العربية ، أن يسلم لها مختصر لكتاب (طوق الحمامة) ، الكتاب الذي قصره مؤلفه على الحب ودواعيه وحالاته وآثاره وعوارضه ويعنينا منه بوجه خاص أمران لا تتم لنا صورة صادقة عن حياة ابن حزم ، حتى نعرض لهما : أما الأول فأخبار حبه وآثاره في نفسه ، وأما الثاني فهو اختباراته في هذا الميدان ودراسته العميقة لمجتمعه في الحب ، ثم دقة وتحليل وفق إليهما في دراسته النفسية العميقة . ونحن فيما نسوق إليك عيال على هذا المصدر الوحيد ، ولولاه ما استطعنا أن نعرف شيئاً عن حياته الشعرية هذه ، ولبقيت سراً مجهولاً ، ولم ننعم إلا بصورة شوهاء عن حياته .

أطلعنا ابن حزم على حوادث ثلاث في تاريخ قلبه ، وكلها أصابه في صباه وحداثة سنه ، وكلها كان له الأثر البليغ في حزن نفسه وإثارة عواطفه وفجيعة شبابه .

---

(١) طوق الحمامة ص ٣٣ .

فأما الأولى فتبين لنا أثر الحب الأول إذا صادف قلبًا خاليا ، كيف يتمكن حتى لا يولع المحب إلا بما شابه صفة محبوبه الأول قال :

« وعني أخبرك : أني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو أنه على الشمس أو على الحسن نفسه . وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت ، لا تواتيني نفسي على سواه ، ولا تحب غيره البتة . وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضي الله عنه وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله » .

ثم ذكر ملاحظته الخاصة بخلفاء بني مروان وكيف تتابعوا جميعا على محبة الشقراء من النساء حتى أتى أغلبهم أشقر أشهل نزاعًا إلى أمهاتهم . فأيد بذلك نظريته في ابتغاء الانسان الصفة التي عليها محبوبه الأول . وهذا هو أسلوبه في أكثر الكتاب يشرح العارض ويصف أحواله ثم يؤيده بالشواهد التي عانى أو عاين أو سمع .

وأما الثانية ففاجعة بحبيب حل من قلبه أسمى محل ، فغبر ابن حزم بعدها لا يطيب له عيش ولا يجد عنها سلوى ، وقد أثرت في نفسه أبلغ الأثر حتى ما كاد ينتفع بنفسه بعد ، وحتى فاضت قريحته بمقطوعة من أصدق الشعر العاطفي ذكر منها مع الأسف

أبياتاً متفرقة، نثره في سرد في الحادث أشعر منهن وأبلغ، قال في باب البين :

« وعني أخبرك : أني أحد من دهي بهذه الفادحة، وتعجلت له هذه المصيبة . وذلك أني كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لي كانت فيما خلا، اسمها (نُعْم) وكانت أمنية المتمني وغاية الحسن خَلْقاً وخُلُقاً وموافقة لي، وكنت أبا عذرها . وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتني بها الأقدار واخترمتها الليالي ومر النهار وصارت ثالثة التراب والأحجار، وسني حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في السن .

فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ولا تفترّ لي دمعة على جمود عيني وقلة إسعادها، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن (أي بعد خمس عشرة سنة) ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف، وببعض أعضاء جسمي العزيزة عليّ مسارعاً طائعاً . وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها، ولقد عفّى حبي لها على كل ما قبله وحرم ما كان بعده، ومما قلت فيها :

مهذبة بيضاء كالشمس إن بدت وسائر أرباب الجمال نجوم

---

(١) طوق الحمامة ص : ٢٥ .

أطار هواها القلب عن مستقره   فبعد وقوعٍ ظل وهو يحوم

ومن مراثيّ فيها قصيدة منها :

كأني لم آنس بألفاظك التي   على عقد الألباب هن نوافث

ولم أتحكم في الأماني كأنني   لإفراط ما حكمت فيهن عابث

وفيها :

ويبدين إعراضاً وهن أوالف   ويقسمن في هجري وهن حوانث[1]

والحقيقة أن هيام ابن حزم بنُعم بلغ الغاية في الشدة ، حتى أنه بعد موتها لم يكن ليسلوها في يقظة ولا منام ، والمرء يرى في أحلامه ما تهتف به نفسه الباطنة : لقد رآها مرة في نومه فسر بها كل السرور ، وخلد لنا بشر نفسه في هذه الأبيات الصادقة القوية ، دليلاً على المحل الذي حلته من قلبه ، محل لم ينزله غيرها أحد قط :

أتى طيف نعم مضجعي بعد هدأة   ولليل سلطان وظل ممدد

وعهدي بها تحت التراب مقيمة   وجاءت كما قد كنت من قبل أعهد

فعدنا كما كنا وعاد زماننا   كما قد عهدنا قبل والعود أحمد[2]

وأما الثالثة فقصة حب لم يستجب له ، بقي شديداً متسعراً

---

(١) ص ٨٨ .

(٢) ص ٩٥ .

سنين طويلة ثم برد فجأة حين رأى محبوبته بعد غياب ، وقد غاض جمالها لعدم تعهده . والقصة على طولها طريفة جداً لأنها تشرح بإسهاب لذيذ مطاردة ابن حزم للجارية ، وتمنعها . ثم هي إلى ذلك تصف لنا مجتمع ابن حزم وصفاً دقيقاً لا نجد تفصيله في مكان آخر ، وحسبنا أن الذي يقوم ببيان هذا كله هو ابن حزم نفسه ، ولا تنس أن ذلك كان منه أيام الصبا قبل تفرغه لطلب الفقه ، قال :

« وإني لأخبرك عني أني ألفت في أيام صباي إلفة المحبة ، جارية نشأت في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مسبلة الستر ، فقيدة الذام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النفار ، لا توجه الأراجي نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرّس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد من أمها ، تزدان في المنع والبخل ، مالا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد في أمرها ، غير راغبة في اللهو ، على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً ، فجنحتُ إليها وأحببتها حباً مفرطاً شديداً ، فسعيت

عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة وأسمع من فمها لفظة — غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع — بأبلغ السعي فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة .

فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء تجمعت فيه دخلتنا [١] ودخلة أخي رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ويلطف محله ، فلبثن صدراً من النهار ثم تنقلن إلى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة ، وفحوصها [٢] مفتحة الأبواب ، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن . فإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنساً بقربها ، متعرضاً للدنو منها ، فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة ، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره ، وكانت قد علمت كلفي بها ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ، لأنهن كن عدداً كثيراً ، وإذ كلهن يتنقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض الأبواب

---

(١) الدخلة مثلثة الدال : البطانة .

(٢) الفحوص : جمع فحص وهو كل موضع يسكن .

على جهات لا يطلع من غيرها عليها · واعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج[١] في الآثار ، ثم نزلن إلى البستان فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيدتها في سماع غنائها ، فأمرتها فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله ، وإن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنه ، ثم اندفعت تغني بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول :

إني طربت إلى شمس إذا غربت ... كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس ممثلة في خلق جارية ... كأن أعطافها طي الطوامير[٢]
ليست من الإنس إلا في مناسبة ... ولا من الجن إلا في التصاوير
فالوجه جوهرة والجسم عبهرة[٢] ... والريح عنبرة والكل من نور
كأنها حين تخطو في مجاسدها[٢] ... تخطو على البيض أو حد القوارير

فلعمري لكأن المضراب إنما يقع على قلبي ، وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها وفي ذلك أقول :

---

(١) القيافة معرفة آثار الناس ، ومدلج قبيلة اشتهرت بحذقها في القيافة بين العرب ·

(٢) الطوامير : الصحف · والعبهرة الممتلئة الجسم الناعمة الطويلة والمجسد (كمبرد) : ثوب يلي الجسد « قاموس » ·

لا تلمها على النفار ومنع الوصـ ـل بل[1] ماذا لها بنكير
هل يكون الهلال غير بعيد أو يكون الغزال غير نفور

وأقول :

منعتِ جمال وجهكِ مقلتيا ولفظكِ قد ضننت به عليا
أراك نذرت للرحمن صوما فلست تكلمين اليوم حيا
وقد غنيت للعباس شعراً هنيئاً ذا لعباس هنيا
فلو يلقاك عباس لأضحى لفوز[2] قالياً وبكم شجيا

ثم انتقل أبي رحمه الله من دورنا المحدث[3] بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة ، إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة وانتقلت أنا بانتقاله وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، ولم تنتقل هي بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك . ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد ، بالنكبات وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار ، وأرزمت [اشتدت] الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ونحن في هذه

---

(١) في الأصل : كم . وما : نافية .

(٢) فوز : معشوقة العباس بن الأحنف .

(٣) لعل الصواب : المحدثة .

الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنتين وأربعمائة .

واتصلت بنا تلك الحال بعده إلى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها – وقد ارتفعت الواعية(١) – قائمة في المأتم وسط النساء في جملة البواكي والنوادب : فلقد أثارت وجداً دفيناً ، وحركت ساكناً وذكرتني عهداً قديماً ، وحباً تليداً ، ودهراً ماضياً ، وزمناً عافياً ، وشهوراً خوالي ، وأخباراً بوالي ، ودهوراً فواني ، وأياماً قد ذهبت ، وآثاراً قد دثرت ، وجددت أحزاني ، وهيجت بلابلي . على أني كنت في ذلك النهار مرزأً مصاباً من وجوه وما كنت نسيت ، ولكن زاد الشجى وتوقدت اللوعة ، وتأكد الحزن ، وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان منه كامناً فلباه مجيباً فقلت قطعة منها :

يبكي لميت مات وهو مكرم — وللحي أولى بالدموع الذوارف
فيا عجباً من آسف لامرئٍ ثوى — وما هو للمقتول ظلماً بآسف

ثم ضرب الدهر ضربانه ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر ، فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة .

---

(١) الضمير يعود إلى الجارية صاحبة القصة ، والواعية : الصراخ والصوت .

وغابت عن بصري بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر ، ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع وأربعمائة فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها هنالك، وما كدت أن أميزها حتى قيل لي : « هذه فلانة » وقد تغير أكثر محاسنها وذهبت نضارتها وفنيت تلك البهجة ، وغاض ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية، وذبل ذلك النوار[١] الذي كان البصر يقصد نحوه متبوراً[٢] ويرتاد فيه متخيراً ، وينصرف عنه متحيراً ، فلم يبق إلا البعض المنبئ عن الكل ، والخبر المخبر عن الجميع ، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها ، وعدمها الصيانة التي كانت غذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلنا ، ولتبذلها في الخروج فيما لا بد لها منه مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك وإنما النساء رياحين : متى لم تتعاهد نقصت ، وبنية : متى لم يهتبل بها استهدمت . ولذلك قال من قال : « إن حسن الرجال أصدق صدقاً وأثبت أصلاً وأعتق جودة لصبره على ما لولقي بعضه وجوه النساء لتغيرت أشد التغير : مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكن . » وإني لو نلت منها أقل وصل ،

(١) النوار : كرمان الزهر .

(٢) علق مصحح الطبعة ما يلي : كذا في الأصل ولعل الصواب مبتاراً أي مختبراً .

وأنست لي بعض الأنس ، لخولطت طرباً ، أو لمت فرحاً ، ولكن هذا النفار الذي صبرني وأسلاني ، وهذا الوجه من أسباب السلو ، صاحبه في كلا الوجهين معذور وغير ملوم إذ لم يقع تثبت يوجب الوفاء ، ولا عهد يقتضي المحافظة ، ولا سلف ذمام ، ولا فرط تصادق يلام على تضييعه ونسيانه .

* * *

وانظر الآن إلى الإرادة القوية والعفة الأصيلة كيف تغلبتا على ابن حزم ، حين استحكم واستوى ، في موقف لايسلم فيه إلا القليل ، لقد جاز امتحاناً بغاية النجاح ، وقهر هواه وملك لبه وكان على حد قول الرافعي رحمه الله :

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

قال : « ولقد ضمني المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارفي ، مشهورة بالصلاح والخير والحزم ومعها جارية من بعض قراباتها من اللاتي قد ضمها معي النشأة في الصبى ثم غبت عنها أعواماً كثيرة ، وكنت تركتها حين أعصرت ، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب ، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت ، وطلعت في سماء وجهها نجوم

الحسن فأشرقت وتوقدت ، وانبعثت في خديها أزاهير الجمال فتمت واعتمت وأتت كما أقول :

خريدة صاغها الرحمن من نور جلت ملاحتها عن كل تقدير
لو جاءني عملي في حسن صورتها يوم الحساب ويوم النفخ في الصور
لكنت أحظى عباد الله كلهم بالجنتين وقرب الخرّد الحور

وكانت من أهل بيت صباحة ، وقد ظهرت منها صورة تعجز الوصاف ، وقد طبق وصف شبابها قرطبة ، فبت عندها ثلاث ليال متوالية ولم تحجب عني على جاري العادة في التربية . فلعمري لقد كاد قلبي أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسي الغزل ، ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفاً على لبي أن يزدهيه الاستحسان ، ولقد كانت هي وجميع أهلها ممن لاتتعدى الأطماع إليهن ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل » .

ولا تحسبن مايلقى من المكابرة في حبه أمراً هيناً ، أو تظنن أن حبه لم يبلغ من القوة بحيث يتغلب على عفته وصلابته . بل اعلم أن عاطفته تشتد كأقوى ماتشتد في فحول الرجال ، وهواه مضطرم عاصف لايقف له شيء ، وإن الذي ينعى إليه بعض من يحب من بلد نازح فيجد لذلك من الوجد والحزن ماتضيق معه

الأرض على رحبها ، حتى يفر بنفسه نحو المقابر ويهيم على وجهه بينها وهو ينشد [1]

وددت بأن ظهر الأرض بطن ... وأن البطن منها صار ظهراً
وأني مت قبل ورود خطب ... أتى فأثار في الأكباد جمرا
وأن دمي لمن قد بان غسل ... وأن ضلوع صدري كن قبرا

ثم يتصل به بعد حين كذب هذا النعي فلا يكاد يستقر فرحاً ثم ينشد :

بشرى أتت واليأس مستحكم ... والقلب في سبع طباق شداد
كست فؤادي خضرة بعد ما ... كان فؤادي لابساً للحداد
جلّى سواد الغم عني كما ... يجلى بنور الشمس لون السواد

إن الذي يهيم هذا الهيام ويستخفه نعي وبشرى ذلك الاستخفاف ، فتفيض لوعته كما يطفح فرحه ، إن هذا لرجل ممكّن له في دنيا الحب حتى بلغ فيها درجة الفناء على تعبير الصوفيين ، فإذا سلط على حبه هذا العظيم دينه وورعه ، عرفنا مبلغ قوة التدين فيه وأنه شيء لا يكاد يفي بوصفه البيان .

* * *

هذا ما قصه علينا ابن حزم من أحاديث صبوته في صباه [2] . وهو حين يتكلم فيما يعرض للحب والمحبين من أحوال ، أسرع ما

---

(١) طوق الحمامة ص ١٢٥ (٢) ص ٨٥

يكون إلى إيراد الشاهد في نفسه أو في غيره . وبهذا اطلعنا على خصائص حبه وتاريخ قلبه ، وأنه حب مكين يتأصل ببطء بعد امتحان طويل ، ولكنه ثابت لا يسلو عنه قط . قال في باب (من لا يحب إلا مع المطاولة) :

« وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لي دهراً وأخذي معه في كل جد وهزل . وكذلك أنا في السلوّ والتوق : فما نسيت وداً لي قط ، وإن حنيني إلى كل عهد تقدم لي ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء ، ولا أسرعت إلى الأنس بشيءٌ قط أول لقائي له ، وما رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت ، لا أقول : في الألاف والإخوان وحدهم ، لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ولا فارقني الإطراق والانغلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشجىً يعتادني وولوع هم ما ينفك يطرقني ، ولقد نغص تذكري ما مضى كل عيش أستأنفه ، وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء ودفين الأسى بين أهل الدنيا ، والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو . وفي ذلك أقول شعراً منه :

محبة صدق لم تكن بنت ساعة   ولا وريت حين ارتياد زنادها

ولكن على مهل سرت وتولدت ... بطول امتزاج فاستقر عمادها

فلم يدن منها عزمها وانتقاضها ... ولم ينأ عنها مكثها وازديادها

يؤكد ذا أنا نرى كل نشأة ... تتم سريعاً عن قريب نهادها

ولكنني أرض عزاز صليبة ... منيع إلى كل الغروس انقيادها

فما نفذت منها لديها عروقها ... فليست تبالي أن يجود عهادها[١] »

وهذه غاية في الإخلاص وصدق المحبة والوفاء . وعلى هذا الغرار فليكن الحب المخلص والعلاقة البريئة وحفظ العهد .

ومن رزق حظ ابن حزم من العشق ، لم يروه منه شيء ، وكلما نهل طلب مزيداً ، لأن القلب الصادق الحب ظامئ أبداً مستزيد كلما روي ، بهذا حكم ابن حزم وأيد حكمه بهذه الحادثة التي رواها عن نفسه قال :

« وعني أخبرك أني ما رويت قط من ماء الوصل ، ولا زادني إلا ظمأ ؛ وهذا حكم من تداوى برأيه وإن رفه عنه سريعاً . ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى ، فما وجدتني إلا مستزيداً ، ولقد طال بي ذلك ، فما أحسست بسآمة ولا رهقتني فترة ، ولقد ضمني مجلس مع من كنت أحب ، فلم أجل خاطري في فن من فنون الوصل

---

(١) طوق الحمامة ص ٢٢ النهاد : المناهضة . والعهاد : المطر .

إلا وجدته مقصراً عن مرادي وغير شاف وجدي ، ولا قاض أقل لبانة من لباناتي ، ووجدتني كلما ازددت دنواً ازددت تلوذاً ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي فقلت في ذلك المجلس :

وددت بأن القلب شق بمدية وأدخلتِ فيه ثم أُطبق في صدري
فأصبحت فيه لا تحلين غيره إلى منقضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ماحييت فإن أمت سكنت شغاف القلب في ظلم القبر (١)

ولست بحاجة إلى التنبيه على سمو هذه العاطفة وروعة هذا الشعر الصادق ، عبر فيه ابن حزم عن ذات صدره ولم يشأ الإغراق على طريقة الشعراء . وقد يبدو في شعره هذا شيء من الأثرة (الأنانيـة) لم يتصنع فيه الإيثار المألوف في الغزل ، لأنه إنما أحب لنفسه فترجم عن هذا الحب بأصدق عبارة وأدق صورة . ومن الطريف أن جـدلاً قام بينه وبين أبي عبد الله محمد بن كليب في القيروان ، حول هذه النقطة ، كان فيها مجادله داعية إلى الإيثار فقال محمد :

— إذا كره من أحب لقائي وتجنب قربي فما أصنع ؟

ابن حزم — أرى أن تسعى في إدخال الروْح على نفسك بلقائه وإن كره .

(١) طوق الحمامة ص ٥٩

محمد — لكني لا أرى ذلك ، بل أوثر هواه على هواي ، ومراده عَلَى مرادي وأصبر ولو كان في ذلك الحتف .

ابن حزم — إني إنما أحببته لنفسي ، وللالتذاذها بصورته فأنا أتبع قياسي وأقفو طريقتي في الرغبة في سرورها .

محمد — هذا ظلم من القياس : أشد من الموت ماتمني له الموت ، وأعز من النفس ما بذلت فيه النفس .

ابن حزم — إن بذلك نفسك لم يكن اختياراً بل كان اضطراراً ، ولو أمكنك ألا تبذلها لما بذلتها . وتركك لقاءه اختياراً منك ، أنت فيه ملوم لإضرارك بنفسك وإدخالك الحتف عليها .

محمد — أنت رجل جدلي ولا جدل في الحب[1] . »

وحيناً نرى ابن حزم يتحفنا بثمرات دراسته القيمة لأحوال المحبين ، فيطلعنا على الفرح الشديد ينعم به من أيقن بمحبة حبيبه ، وعلى الغم القاتل يقاسيه من حرم عطف من يحب ، والحالات النفسية التي يلقى بها المحب حبيبه غير مختار . ثم يطلعنا بإخلاص على سريرة نفسه وما وقع له هو في الحالين ، في نثر بديع يأخذ بمجامع القلوب ، قال :

---

(١) انظر طوق الحمامة ص : ٤٢

« ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ؛ ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء ، وتحكم الوزراء وانبساط مدبري الدول ، فما رأيت أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ، ووثق بميله إليه وصحة مودته له ؛ وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان : قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء . » ثم قال عن نفسه :

« ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف : لا أجيب إلى الدنية ولا أساعد على الخضوع ، وفي الثانية أذل من الرداء وألين من القطن : أبادر إلى أقصى غايات التذلل لو نفع ، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجع . وأتحلل بلساني ، وأغوص على دقائق المعاني ببياني . وأفنن القول فنوناً وأتصدى لكل مايوجب الترضي [١] . »

وأمر آخر في ابن حزم يثير الدهشة والإعجاب ، وهو أنه وصل في خبرته وتجاربه إلى نتائج مايماري فيها الإنسان لاستنادها

---

(١) طوق الحمامة ص ٦٧

على دراسة نفسية عميقة مع ملاحظة وانتباه وتأمل ، وكأني به في وصفه التغيرات (الفسيولوجية) التي تطرأ على المحب في حضرة حبيبه ، واحداً من كبار علماء النفس في عصرنا العشرين قال :

« وشيء أصفه لك تراه عياناً ، وهو أني ما رأيت قط امرأة في مكان تحس أن رجلاً يراها أو يسمع حسها ، إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأتت بكلام زائد كانت عنه في غنية ، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك . ورأيت التهمم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها لائحاً فيها ، ظاهراً عليها ، لا خفاء به ، والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء . وأما إظهار الزينة وترتيب المشي وإيقاع المزح عند خطور المرأة بالرجل واجتياز الرجل بالمرأة ، فهذا أشهر من الشمس في كل مكان . والله عز وجل يقول : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ [1]) وقال تقدست أسماؤه : (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ [2]) فلولا علم الله عزوجل برقة إغماضهن في السعي لإيصال حبهن إلى القلوب ولطف كيدهن في التحيل لاستجلاب الهوى ، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس

---

(١) سورة النور (٢٤) الآية : ٣٠

(٢) سورة النور (٢٤) الآية : ٣١

وراءه مرمى . وهذا حد التعرض فكيف بما دونه»[١] .

* * *

سنقرأ قريباً كلمة ابن حزم في ترفعه عن الحرام ، وعصمته منه ، آخر الكلام على أخلاقه ، وستطلع الآن على السبب في أنه ما حل مئزره على حرام قط منذ عقل ، وأنه بريء الساحة نقي الحجرة ، وهو يعود في جملته إلى رقابة أسرته وتوجيه شيخه قال :

«وكان السبب فيما ذكرته (يعني من عفته العجيبة) أني كنت وقت تأجج نار الصبى وشرة الحداثة وتمكن غرار الفتوة مقصوراً محظراً علي : بين رقباء ورقائب ؛ فلما ملكت نفسي وعقلت صحبت أبا علي الحسين بن علي الفاسي في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي شيخنا وأستاذي رضي الله عنه ، وكان أبو علي المذكور عاقلاً عاملاً عالماً ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح والزهد في الدنيا والاجتهاد للآخرة ، وأحسبه كان حصوراً لأنه لم تكن له امرأة قط ، وما رأيت مثله جملة : علماً وعملاً وديناً وورعاً ، فنفعني الله به كثيراً وعلمت موقع الإساءة وقبح المعاصي[٢] » .

ونجاة ابن حزم من الحرام مع كثرة اختلاطه بالنساء وأنسهن إليه ، وإفضائهن إليه بأسرارهن ، واطلاعه منها على ما لا يتيسر لغيره ... إحدى الأعاجيب التي لا تتأتى لبشر إلا في الفرط النادر .

---

(١) طوق الحمامة ص ١٢٤ (٢) طوق الحمامة ص ١٢٥ .

ويدهشني منه خروجه على المألوف من الغلط ؛ فيما شاع من تعريف الصالح والفاسق ، فقد ألف الناس لهاتين الكلمتين معنى بعيد الوقوع غير فطري . يشك فيه كل من أمعن في سيرة المختارين من البشر ... حتى وضع لهما ابن حزم الحدود المعقولة الواقعية ، مستفيداً من خبرته بخبايا الصدور وأسرار النفوس قال :

« إني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة أعني الصلاح غلطاً بعيداً . والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي : إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت . والفاسدة هي التي : إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش ، تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ، ولا يتعرض (للمناظر) الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصور البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ويتصدى للمشاهد المؤذية ويحب الخلوات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك ، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شي »[1] .

---

(١) طوق الحمامة ص ١٢٣

وهذا نعت معقول ، ونظن أن الصالح — بالمفهوم الشائع — الذي لا يؤثر فيه الجمال ولا تحدثه نفسه بشيء حياله ... كائن لم يخلقه الله قط .

وبعد فهذا هو ابن حزم في حبه ونبله وسمو عواطفه وهزة نفسه ورقة حسه وطهارة ذيله ... عظيم نادر المثال في الرجال المحبين ، كما كان عظيماً نادر المثال في المفكرين أولى الأذهان الحداد والقرائح الصافية والعبقرية العجيبة .

ز ـ أخلاقه

البيت الذي درج فيه ابن حزم بيت فضل وتهذيب ونبل ، فلا عجب إذا نشأ كريم الخلق ، جم المزايا ، طيب النفس . ولقد عرفت — مما مر — كثيراً من سجاياه ورأيت إجماع من ترجموا له على صدقه وتحريه وتدينه وزهده وورعه وحشمته وسؤدده وتواضعه وعفته [1] .

عني والده — وكان جليلاً محتشماً كبير الشأن — بتنشئته أحسن العناية ، ورأى هو من أفراد أسرته السَرية من كانوا مثال الكمال وعلو الأخلاق ، وعاش محاطاً بجماعة من طبقته فلم يصب بمعاشرة سفلة الناس ، وكان بمنأى عن الحاجة التي تعرض صاحبها للذل والاحتيال ، وجد الدنيا تجر أذيالها في داره فتقلب في نعيمها ماشاء ، وبلغ من جاهها حتى منصب الوزارة ، ثم صدف عن ذلك كله وعكف على طلب العلم والمعالي .

أما أبوه الذي عرف أن السعادة لاتدوم لكائن ، فقد أخذ ولده بتوطين نفسه على الخشونة والقلة والنكد وكان فيما أوصاه به قوله :

---

(١) المقري والذهبي وابن بشكوال وياقوت والفتح بن خاقان .

إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها [(١)]

وأول ماشاهدناه من كبر نفسه زهده في جاه حاضر ، ودنيا مقبلة مع مجد طريف وتالد في الوزارة له ولأبيه قبله ، مع تحريه الحق مهما جر عليه ، ثم صلابته في المضي فيه متحملاً المكاره والشدائد . ولابن بشكوال كلمة جمعت أخلاقه في جملة واحدة وهي قوله : « كان ... عاملاً بعلمه » .

ولم يذكروا من هناته إلا « طول لسانه واستخفافه ووقوعه في أئمة الاجتهاد بأقبح عبارة وأفظ محاورة وأمنع تمرد [(٢)] » . وإذا طرحنا نحن جانب المبالغة في هذا القول ، وجدنا عذره في ذلك ما سترى من مزاجه وحماسته في سبيل مايعتقد أنه الحق ، ثم اندفاعه في الجدل والنضال عن مذهبه ، مرخياً لحدته العنان . ونحن نعرف أن أصحاب العقائد من الناس أبعد عن المجاملة والمداراة . أما فيما لايمس العقيدة والعلم فقد كان ابن حزم مطبوعاً — كما قال — « على التأني والتربص والمسالمة [(٣)] ما أمكنت . » وعلى مقدار تشدد هذه الطبقة فيما يمس العقيدة تجد فيهم تساهلاً وتسامحاً فيما يمس

---

(١) نفح الطيب .

(٢) تذكرة الحفاظ .

(٣) طوق الحمامة ص ٥٤ .

أنفسهم وحظوظهم ، لدرجة يظنها الجاهل عجزاً ورهبة . وما هي بهما وإنما وجهوا مواهبهم وعزائمهم جهة واحدة سامية صرفوا إليها جهودهم ووقفوا عليها تفكيرهم وقواهم وجعلوها محوراً مركّز فيه كل شعورهم ، فلا يشغلهم عنها شاغل مهما أكبره الناس واهتموا به . وهذا هو السر في زهد الأنبياء ومن وليهم من من طبقات المصلحين أولي العقائد في حظوظ أنفسهم وعدم الانتصار لها ، ومقابلتهم السوء بالإحسان [١] حتى ليتجرأ عليهم — مع قوتهم — أضعف الناس ومن لا يدفع عن نفسه . ولعل هذا أيضاً يفسر لك إعراض ابن حزم عن دنيا نشأ فيها ووزارة ذاق حلاوتها .

* * *

أما « وقوعه في أئمة الاجتهاد بأقبح عبارة » فلم أجد عليه شاهداً قط ، وليس في مخالفته أئمة الاجتهاد في آرائهم ما يعد من هذا القبيل ، وما كان تركك اجتهاداً ليعد طعناً في صاحبه . والذي أعرفه أن ابن حزم كان جم التواضع جم الأدب مع الأحياء والأموات ، وإليك الدليل :

جاء في طوق الحمامة قبل أبيات له :

« وأنا أقول من غير أن أمثل شعري بأشعارهم ، فلهم فضل التقدم والسابقة ؛ وإنما نحن لاقطون وهم الحاصدون ، ولكن اقتداء

(١) سيأتي شاهد هذا في ابن حزم بعد قليل .

بهم وجرياً في ميدانهم وتتبعاً لطريقتهم التي أنهجوا وأوضحوا[١] »

ومن كان أديباً مع الذين سبقوه من الشعراء فأحر به أن يكون أكثر أدباً مع الفقهاء وأئمة الاجتهاد .

هذا كله مع استقلال في التفكير ، واعتداد بالنفس ، واستغناء عن كل أحد ، في جميع ما نظم وأرسل وألّف وفكر : « وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ، ولا أتحلى بحلي مستعار[٢] . »

ومع هذا التواضع لم يبارحه كرمه قط ، حتى في حال محنته ، وكانت داره في مغتربه بشاطبة ، منزلاً لإخوانه مدة مقامهم بها[٣] . وأنا لم أنص على كرمه والزمن مقبل عليه ، وداره محط الرحال بقرطبة ، ومقصد أرباب الحوائج والمنتجعين ، ينالون فيها من ماله وجاهه ، لأن هذا أمر مألوف لا غرابة فيه ، وإنما الكرم الأصيل هو الذي لا يفارق صاحبه في أشد أيامه عليه .

أما الخلق النادر في الرجال ، في مثل زمن ابن حزم الرهيب ، فهو الوفاء وعزة النفس . وأيام المحن وتقلبات الدول هي أصدق الظروف لامتحان الأخلاق ، فيها يحيق المكروه بأصحاب الوفاء

---

(١) طوق الحمامة ص ٩٦

(٢) طوق الحمامة ص ٣

(٣) طوق الحمامة ص ٨٢

وفيها يغيض الوفاء ويستفيض الغدر ، ويشيع الرياء ويغيب الإخلاص .
فمن صادق رجلاً دالت سلطته تبرأ منه في سلطة خصمه تجنباً لأذاه ، أو آذاه تقرباً لذي السلطان . وأعزاء النفوس أيام الرخاء يضطرون إلى إهانتها في الشدائد ، إلا أناساً قليلين يستحلون الموت والعذاب الأليم في سبيل أخلاقهم . ومن هذا القليل النادر صاحبنا ابن حزم .

أخبر عن نفسه — وهو الصادق بإجماع — فقال :

« لقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل من يمت إليّ بلقية واحدة ، ووهب لي من المحافظة لمن يتذمم مني ولو بمحادثته ساعة حظاً أنا له شاكر وحامد ، ومنه مستمد ومستزيد . وما شيء أثقل عليّ من الغدر ، ولعمري ما سمحت نفسي قط في الفكرة في اضرار من بيني وبينه أقل ذمام وإن عظمت جريرته ، وكثرت إليّ ذنوبه . ولقد دهمني من هذا غير قليل ، فما جزيت على السوء إلا بالحسنى والحمد لله على ذلك كثيراً[١] . »

ووضّح أكثر من هذا في موضع آخر بكلمة تكاد تكون صورة صادقة لحياته مع الناس قال :

« وعني أخبرك أني جبلت على طبيعتين لا يهنيني معهما عيش

---

(١) طوق الحمامة ص ٧٨

أبداً ، وإني لأبرم بحياتي باجتماعها ، وأود التثبت من نفسي أحياناً لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلها وهما : وفاء لايشوبه تلون ، قد استوت فيه الحضرة والمغيب ، والباطن والظاهر تولده الألفة التي لم تعزف بها نفسي عما دريته ، ولا تتطلع إلى عدم من صحبته ، وعزة نفس لاتقر على الضيم ، مهتمة لأقل مايرد عليها من تغير المعارف ، مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها . وإني لأجفى فأحتمل ، وأستعمل الأناة الطويلة والتلوم الذي لايكاد يطيقه أحد ، فإذا أفرط الأمر وحميت نفسي تصبرت وفي القلب مافيه ، وفي ذلك أقول:

لي خلتان أذاقاني الأسى جرعاً ونغصا عيشتي واستهلكا جلدي

وفاء صدق فما فارقت ذا مقة فزال حزني عليه آخر الأبد

وعزة لايحل الضيم ساحتها صرامة فيه بالأموال والولد [(١)]

وما مر بك من حياة ابن حزم شرح ضاف لكلمته هذه .

وإنه ليغلو في خلق الوفاء حتى لينقلب نوعاً من الإلفة التي لاصبر له على فراقها ، بل يغرق أكثر من ذلك فيفي لما يألفه من الأشياء قال ص ٢٢ : « فما نسيت وداً لي قط ، وإن حنيني إلى كل عهد تقدم لي ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء . وقد استراح من

---

(١) طوق الحمامة ص ١٠٤

لم تكن هذه صفته ، وما مللت شيئاً بعد معرفتي به ... وما رغبت في الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت ، لا أقول في الألاف والإخوان وحدهم ، لكن في كل مايستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم .. »

* * *

لابن حزم إلى جانب فضائله أشياء ربما عدها بعض الناس من العيوب . ومما يعجبني أن يدل عليها هو نفسه بصراحته المعهودة وصدقه المألوف . فقد ذكر السر في كثرة اطلاعه على شؤون النساء وأسرارهن وعدم نسيانه لحوادثهن فقال : « وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظن في جهتهن فطرت به [١] » وفي موضع آخر . « ولقد اطلعت من سر معتقد الرجال والنساء في هذا على أمر عظيم . وأصل ذلك أني لم أحسن قط بأحد ظناً في هذا الشأن مع غيرة شديدة ركبت فيّ [٢] » وذكر بعد ذلك لنفسه صفة أخرى وهي الكتمان ، فقد أفادته في الغوص على أسرار النساء ووفى هو بعد ذلك فلم يبح بشيء اطلع عليه قال : « فلم أزل باحثا عن أخبارهن كاشفا عن أسرارهن وكن

---

(١) طوق الحمامة ص ٤٧ .

(٢) ص ١٢٤ .

قد أنسن مني بكتمان فكن يطلعنني على غوامض أمورهن ، ولولا أن أكون منبهاً على عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من تنبههن في الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباء [١] ٠ »

هذا ، وأميز صفات ابن حزم وأبعدها في الدلالة على رجولته وصلابته ومتانة خلقه : أنه مع تربيته في حجور النساء وترعرعه بينهن ، ومخالطته لكثير منهن ، واطلاعه على أسرارهن ٠٠٠ مع هذا كله لم يخرج عن عفته لحظة من اللحظات ، مع اعتقادي بأنه لو عرض لغيره بعض ما عرض له ما ثبت أمام نفسه لحظة واحدة ٠ وهذا خلق عظيم يقدره من عرف النفس البشرية وضعفها في هذا الباب ٠

وأحب شيء لدي أن أستمع لهذه النفس الكبيرة الصادقة ، وهي تتبرأ مما قد يقع في خلد كل قارئ لكتابه (طوق الحمامة) ، وكأنها تعطيه بعض العذر في ظنه السوء ، لأن من خبر من جماعات النساء ما خبر مؤلف الطوق لا يعقل بحال أن ينجو من الحرام ٠ ونحن نميل إلى هذا الظن أيضاً ولكن في رجل غير ابن حزم :

قال بعد ذكر حوادثهن وأسرارهن :

« وإني لأعرف هذا وأتقنه ، ومع هذا يعلم الله — وكفى به عليماً — أني بريء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقي

---

(١) طوق الحمامة ص ١٢٥

الحجرة . وإني أقسم بالله أجل الأقسام أني ما حللت مئزري على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنى مذ عقلت إلى يومي هذا . والله المحمود عَلَى ذلك والمشكور فيما مضى ، والمستعصم فيما بقي »[١] .

---

(١) طوق الحمامة ص ١٢٥ . هذا ومعلمة الإسلام تجعل زمن كتابته (طوق الحمامة) حول سنة ٤١٨ هـ ، فإن صح هـذا كان كلام ابن حزم المذكور بعد أن اجتاز مرحلتين خطيرتين : دور المراهقة والفتوة وأكثر دور الشباب ، وسنه حينئذ ٣٤ سنة وكان قد مضى على انقطاعه عن مجامع صباه وعكوفه على العلم والتأليف والدعوة سنون ثمان .

ح — مزاجه

تميز ابن حزم بمزاج حاد عنيف سيطر عليه طول حياته ، وجرّ عليه ما جرّ من تأليب الناس . وقد كان رحمه الله يعزو حدته لمرض فيه . ويستطيع من قرأ له فصلاً كاملاً من فصوله التي يجادل فيها المخالفين ، أن يجد في أسلوبه مناكر لا يمكن التسامح بها ، فهو في نقاشه معهم غير هادئ ولا واسع الصدر ، فكثيراً ما يستنزل عليهم لعنة الله وغضبه وقتاله ، وكثيراً ما يصمهم بالضلال والمروق والكفر والفسوق ، وأكثر من ذلك طعنه في عقولهم وعلومهم ونياتهم . وستقرأ من هذه الخيرات في رسالته (في المفاضلة) طائفة صالحة ، فوطن النفس على تحملها مذ الآن .

وليس لنا إلا أن نأسف لهذه الهفوات يقع فيها عالم جليل قلما جاد الزمان بمثله ، وهو كان أحق الناس باتباع سنة أمر الله بها في قوله : « وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »[1] وقوله : « وَلا تُجادِلوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »[2] وقوله : « اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذا الَّذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَميمٌ »[3] .

---

(١) سورة النحل (١٦) الآية : ١٢٥

(٢) سورة العنكبوت (٢٩) الآية : ٤٦

(٣) سورة فصلت (٤١) الآية : ٣٤

ولو كان للمرء أن يخرج على طبعه وجبلته لاستأصلنا شروراً كثيرة ، فلندعْ ما لا حيلة فيه ، ولنلتمس العذر لهذه النفس الخيّرة والعقل الكبير .

لم تترك الصراحة والحدة والصلابة لابن حزم صديقاً ولا شفيعاً عند الناس ، يجتهد في الرأي الاجتهاد الصائب ويتصيد الحجج القوية المحكمة ، ثم يشوّه ذلك كله بعبارات التقريع حتى يزهد السامع في خير الكلام وشره ، وحتى لا يكون عنده في اجتهاده الصائب وحجته السديدة شافع لهفوته وحدته . وقد مرت بك آنفاً كلمة ابن حيان : « ولم يكن يلطف صدعه بما عنده بتعريض ولا يرقه بتدريج بل يصكّ به معارضه صك الجندل وينشقه إنشاق الخردل . » وأنه مع ما أوقعه عنفه فيه من المصائب والتغريب والسجن وإحراق الكتب ، بقي « غير مرتدع ولا راجع » .

قال الذهبي : « وقد امتحن هذا الرجل وشدد عليه ، وشرد عن وطنه ، وجرت عليه أمور لطول لسانه واستخفافه بالكبار ، ووقوعه في أئمة الاجتهاد ، بأقبح عبارة وأفظ محاورة وأمنع رد . » ولست أجد في صفة لسانه كلمة أصدق من كلمة ابن العريف : « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين » ولا والله ما يستويان فقد أفادت شدة الحجاج فوطدت ملكاً وقطعت مفاسد

وأمّنت مخاوف ثم خلد نفعها إلى الأبد وزال ضررها بزواله .

ولم يفد عنف ابن حزم شيئاً بل أفسد عليه ما يرجو من نشر خير ودعوة إلى حق ، ثم مات وبقيت آثار لسانه تمض كل من يقرأ كتبه سواء كان من الفرق التي نالها بالقوارص أو لم يكن :

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

أما صلابته فهي في ثباته على هذا الأسلوب في علائقه مع الناس على رغم كل ما ناله ، وبقي رحمه الله طول حياته يتلقى عواقب مزاجه مما لا يحمله أقوى الرجال رجولة . ولا يزيده ذلك إلا مضياً في سبيله ، وعناداً في جداله وحماسة في كفاحه وعنفاً في خطابه . لقد أوتي العلم ولم يؤت سياسته وسياسة العلم — علَى ما قالوا — أعوص من إتقانه . قال ابن حيان : « وأكثر معايبه — عند المنصف له — جهله بسياسة العلم » .

ولست أريد قدحاً في ابن حزم وقد قدّمت له العذر المقبول من مزاجه وطبعه ، وأنا أعلم حق العلم أن اندفاعه وغلوّه في الدعوة وحماسته لها لم تكن إلا عن عقيدة وإخلاص وتفانٍ فيما يرى أنه الحق ، ومن كان في هذه المرتبة من الجهاد لم يبال الهفوات الصغار تصدر من هاهنا وهاهنا . ولقد أشار إلى هذا ابن حيان بعض الإشارة حين قال : « كان يحمل علمه هذا ويجادل من

خالفه فيه، على استرسال في طباعه، وبذل بأسراره، واستناد على العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده (لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ) »[1] .

عَلَى هذه الطباع قامت علائق ابن حزم مع الناس موافقين ومخالفين، فلننظر فيها وفي آرائهم فيه، في حياته وبعد مماته .

(١) سورة آل عمران ٣ الآية : ١٨٧

ط — هو والناس

« من قدر أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون »
« ابن حزم »

أكثر ابن حزم من الحساد والأعداء ببعده عن المصانعة وانتقاده أكثر فقهاء عصره ، وويل للفقهاء وويل منهم ويلاً كثيراً إذا دبت بينهم العداوة والحسد . لقد تألبوا على ابن حزم وكفروه وضللوه وحذروا منه العوام والسلاطين وطاردوه بدعاياتهم من بلد إلى بلد ومن بادية إلى بادية ، وحذرته الملوك وتفادت لقاءه وتقربت إلى العامة باضطهاده . لقد لقي في حياته أذى كثيراً ، وحمل صدره آلاماً كباراً ، وكان ينفس عن نفسه بعض الوقت في أبيات يرسلها تفيض عزة كما تفيض شكوى من الحساد جاء في كتابه طوق الحمامة ص ٧٩ « إن قوماً من مخالفيّ شرقوا بي ، فأساؤوا العتب في وجهي ، وقذفوني بأني أعضد الباطل بحجتي ، عجزاً منهم عن مقاومة ما أوردته من نصر الحق وأهله ، وحسداً لي ، فقلت وخاطبت بقصيدتي بعض إخواني — وكان ذا فهم — منها (الأبيات غير متتابعة) :

وخذني عصا موسى وهات جميعهم ... ولو أنهم حيات ضال نضانض

يريغون في عيني عجائب جمة — وقد يُتمنى الليث والليث رابض
ويرجون مالا يبلغون كمثل ما — يرجّي محالاً في الإمام الروافض

عانى ابن حزم من عصر ييه ما يعاني كل عبقري : نكران فضل ، وجحود إحسان ، وحسداً وطعناً واتهاماً . ومن حسن الحظ أن الزمان سمح لقليل من شعره بالسلامة ، فلمسنا فيه شكواه وآلامه ، لمساً يغنينا عن كثير من تفاصيل الترجمة ، قال وقد صرح بالعوامل التي غيّبت فضله على مواطنيه ، من أبيات بعث بها إلى قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشير :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة — ولكن عيبي أن مطلعي (الغرب)
ولو أنني من جانب الشرق طالع — لجدّ على ماضاع من ذكري النهب
ولي نحو آفاق العراق صبابة — ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم — فحينئذ يبدو التأسف والكرب !
فكم قائل أغفلته وهو حاضر — وأطلب ما عنه تجيء به الكتب
هنالك تدري أن للعبد قصة — وأن كساد العلم آفته القرب
فياعجباً : من غاب عنهم تشوقوا — له ، ودنوّ المرء من دارهم ذنب
وإن مكاناً ضاق عني لضيق — على أنه فسحٌ مهامهه سهب
وإن رجالاً ضيعوني لضيّع — وإن زماناً لم أنل خصبه جدب [1]

(١) ياقوت ، المقري . المهامه : الفيافي ، السهب : الواسعة .

لقد جرب الناس منذ القدم فوجدوا أن «المعاصرة حرمان» وأن أزهد الناس في عالم أهله وجيرانه . وقلما ظهر فضل فاضل في حياته في غير غربة .

وقال من قصيدة :

أنا العِلق الذي لا عيب فيه	سوى بلدي وأني غير طاري
تُقر لي العراق ومن يليها	وأهل الأرض إلا أهل داري
طووا حسداً على أدب وفهم	وعلم ما يشقّ له غباري
فمهما طار في الآفاق ذكري	فما سطع الدخان بغير نار[1]

وقد تقدم لك في الكلام على مصنفاته ، قوله في إحراق كتبه ، وله أشعار كثيرة طافحة بشكوى الحسد وآلامه من حساده وتقريعه الشامتين بنكبة الناس على ما عموا عن إدراكه من فضله ، من مثل قوله :

لا تشمتن حاسدي إن نكبة عرضت	فالدهر ليس على حال بمتّرك
ذو الفضل كالتبر يلقى تحت متربة	طوراً وطوراً يرى تاجاً على ملك[2]

ومن شدة بلاء ابن حزم أنه كان في أسرته من ناصبه العداء والحسد ، هذا ابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم

(١) ياقوت ـ والعلق : التحفة النفيسة التي تعلق .

(٢) ياقوت والمقري .

الوزير الكاتب الأديب ، يضن عليه بعطفه ، ويخذله ، ويعين الزمان عليه وكان من حقه أن يعينه على الزمان ، وتدب إليه عقارب الحسد لفضل ابن عمه ، وكان عليه أن يكون أول الفخورين به . أرسل إليه رسالة عاقة جافية ، اضطر ابن حزم إلى أن يجيبه عليها بما يلي :

[1][سمعت وأطعت لقوله تعالى : (وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)[2] . وأسلمت وانقدت لقول نبيه عليه الصلاة والسلام (صل من قطعك واعف عمن ظلمك) ورضيت بقول الحكماء (كفاك انتصاراً ممن تعرّض لأذاك إعراضك عنه) وأقول :

تتبع سواي امرأً يبتغي	سبابك إن هواك السباب
فإني أبيت طلاب السفاه	ونزهت عرضي عما يعاب
وقل ما بدا لك من بعد ذا	وأكثر فإن سكوتي خطاب

وأقول :

كفاني بذكر الناس لي ومآثري	ومالك فيهم - يابن عمي - ذاكر
عدوي وأشياعي كثير ، كذاك من	غدا وهو نفاع المساعي وضائر
وإني وإن آذيتني وعققتني	لمحتمل ما جاءني منك صابر]

فوقّع له أبو المغيرة على ظهر رقعته :

---

(١) هذه الراسلة في نفح الطيب للمقري الجزء الأول ترجمة ابن حزم .

(٢) سورة الأعراف (٧) الآية : ١٩٨

« قرأت هذه الرقعة العاقة ، فحين استوعيتها أنشدتني :

نحنح زيد وسعل   لما رأى وقع الأسل

فأردت قطعها وترك المراجعة عنها ، فقالت لي نفسي : قد عرفت مكانها ، بالله لا قطعتها إلا بيده فأثبت على ظهرها مايكون سبباً إلى صونها فقلت :

نعقت ولم تدر كيف الجواب   وأخطأت حتى أتاك الصواب

وأجريت وحدك في حلبة   نأت عنك فيها الجياد العراب

وبت من الجهل مستصحباً   لغير قرى فأتتك الذئاب

فكيف تبينت عقبى الظلوم   إذا ما انقضت بالخميس العقاب

لعمري مالي طباع تذم   ولا شيمة يوم مجد تعاب

أنيل المنى والظُبا سُخط   وأعطي الرضا والعوالي غضاب

وأقول :

وغاصب حق أوبقته المقادر   «يذكرني (حاميم) والرمح شاجر»[1]

---

(١) الشطر الثاني من مقطوعة قيلت في حرب الجمل : فإنه لما اشتدت المعركة أتى محمد بن طلحة إلى السيدة عائشة فقال : « يا أماه مريني بأمرك » قالت : « آمرك أن تكون كخير بني آدم إن تركت » فجعل لا يحمل عليه أحد إلا حمل عليه وقال : « حم لاينصرون » واجتمع عليه نفر من أصحاب علي فأنفذه أحدهم بالرمح وقال :

وأشعث قوام بآيات ربه   قليل الأذى فيما ترى العين مسلم

هتكت له بالرمح جيب قميصه   فخر صريعاً لليدين وللفم

يذكرني (حاميم) والرمح شاجر   فهلا تلا (حاميم) قبل التقدم

غدا يستعير الفخر من خيم خصمه ويجهل أن الحق أبلج ظاهر
ألم تتعلم يا أخا الظلم أنني برغمك ناه منذ عشر وآمر
تذل لي الأملاك حر نفوسها وأركب ظهر النسر والنسر طائر
وأبعث في أهل الزمان شوارداً تاينهم وهي الصعاب النوافر
فإن أثو في أرض فإني سائر وإن أنأ عن قوم فإني حاضر
وحسبك أن الأرض عندك خاتم وأنك في سطح السلامة عاثر
ولا لوم عندي في استراحتك التي تنفست عنها والخطوب الفواقر
فإني للحلف الذي مر حافظ وللنزعة الأولى بحاميم ذاكر
هنيئاً لكل ما لديه فإننا عطية من تبلى لديه السرائر

بهذه الشدة كانت معاملة أقربائه ، وقديماً قال طرفة :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

* * *

إجماع فقهاء عصره على تضليله ، ونزعته السياسية في عصبيته لبني أميـة على غيرهم من قريش ، وتوحش الحكام عادة ممن سبقت له سلطة وانتزعت منـه ... جعلت من حياة ابن حزم معارك متلاحقـة لاينفض عن نفسه غبار معركة حتى تقوم له أخرى يذكيها حساده ومنافسوه .

جادل اليهود والنصارى أشد جدال وأقساه ، ثم نازع أرباب المذاهب من المسلمين فلم يرفق بهم في شيء قط ، «وكانت له

معهم مجالس محفوظة وأخبار مكتوبة[١] » ، واستطاع أن يجلب جماهير إلى مذهبه ، مما حرك خصومه أن يرصدوا له ويسدوا عليه الطرق . ولم يتنفس إلا أياماً قليلة في جزيرة ميورقة ، تحت ظل حاكمها ابن رشيق وكان قد دخلها لينشر مذهبه الظاهري بدعوة من الحاكم نفسه على ما مر بك سابقاً .

قامت مناظرات عديدة ومنافرات بينه وبين الفقيه أبي الوليد الباجي ، فكان إذا غلبت حجة ابن حزم عيّره الباجي بغناه ، وأدلّ عليه بالفقر ، وقد مر بك جواب ابن حزم المفحم للباجي .

وسبب الخصام بينهما هو محمد بن سعيد من أهل ميورقة فإنه على ما ذكر ابن الأبار « صدر[٢] إلى ميورقة وقعد لإقراء الفقه والأصول ، ولما دخلها أبو محمد ابن حزم كتب ابن سعيد هذا إلى الباجي فسار إليه من بعض سواحل الأندلس وتضافرا جميعاً ، وناظراه فأفحماه وأخرجاه منها ، وكان ذلك سبب العداوة بين الباجي وابن حزم »

قال المقري[٣] « وجد لكلام ابن حزم طلاوة ، إلا أنه كان خارجاً عن المذهب ، ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه

---

(١) إرشاد الأريب .

(٢) التكملة لابن الأبار رقم ٤٤٣

(٣) نفح الطيب ١ : ٣٥٤ .

فقصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه . واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل (سبحان الله يامقري) وحل بجزيرة ميورقة فرأس فيها واتبعه أهلها . فلما قدم أبو الوليد كلموه في ذلك فدخل إليه وناظره وشهر باطله [1] وله معه مجالس كثيرة . »

هكذا قال المقري ، وقد رأيت فيما سبق (ص ٣٨) أن الباجي كان يتقعر في التنقير على ما يعيب به ابن حزم حتى إذا لم يجد عمد إلى ذكر غناه ، ومع هذا فانظروا الإنصاف وقول الصدق عند ابن حزم حين عرض لذكر خصمه الباجي فقال :

« لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب إلا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم . » لقد كان ابن حزم في هذا كبير النفس نبيلها .

وأشد من جرد على ابن حزم لسانه فيما أحسب : القاضي أبو بكر ابن العربي ، بعد أكثر من مئة عام ، وقد عرفت رأيه الظالم في الظاهرية فتأمل شهادته في ابن حزم ، قال :

« [2] . . . وكان أول بدعة لقيت في رحلتي القول بالباطن ، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيف كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم : نشأ وتعلق بمذهب الشافعي ثم

---

(١) كان ذلك نحو عام ٤٤٠ هـ على ماذهبت إليه معلمة الإسلام .

(٢) تذكرة الحفاظ .

انتسب إلى داود ، ثم خلع الكل واستقل بنفسه وزعم أنه إمام الأمة يضع ويرفع ، ويحكم ويشرع ، ينسب إلى دين الله ماليس فيه ، ويقول عن العلماء مالم يقولوا ، تنفيراً للقلوب عنهم . وخرج عن طريق المشبهة في ذات الله تعالى فجاء فيه بطوام ، واتفق بين قوم لابصر لهم إلا بالمسائل ، فإذا طالبهم بالدليل كاعوا فيتضاحك مع أصحابه منهم . وعضدته الرياسة بما كان عنده من أدب ونسبة كان يوردها على الملوك فكانو يحملونه ويحمونه لما كان يلقي إليهم في شبه البدع والشرك . وفي حين عودي من الرحلة ألفيت حضرتي منهم طافحة ، ونار ضلالتهم لائحة ، فقاسيتهم مع غير أحزان ، وفي عدم أبصار إلى حسان يطؤون عقبي (؟) تارة تذهب لهم نفسي وأخرى تنكسر لهم ضرسي . وأنا مابين إعراض عنهم وتشغيب بهم .

وقد جاءني رجل بجزء لابن حزم سماه (نكت الإسلام) فيه دواهي فجردت عليه نواهي ، وجاء آخر برسالة في الاعتقاد فنقضتها برسالة الغرة . والأمر أفحش من أن ينتقض ... »

هذا وإليك قصيدته التي يشرح فيها ما لاقى من الناس فيما خص مذهبه الديني فقط :

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت أقوالهم وأقاويل العدى محن

فقلت هل عيبهم لي غير أني لا — أقول بالرأي إذ في رأيهم فتن
وأنني مولع بالنص لست إلى — سواه أنحو ولا في نصره أهن
لا أنثني نحو آراء يقال بها — في الدين، بل حسبي القرآن والسنن
يا برد ذا القول في قلبي وفي كبدي — ويا سروري به لو أنهم فطنوا
دعهم يعضوا على صم الحصى كمداً — من مات من قوله عندي له كفن
إني لأعجب من شأني وشأنهم — واحسرتا إنني بالناس ممتحن
ما إن قصدت لأمر قط أطلبه — إلا وطارت به الأظعان والسفن
أما لهم شغل عني فيشغلهم — أو كلهم بي مشغول ومرتهن
كأن ذكري تسبيح به أمروا — فليس يغفل عني منهم لسن
إن غبت عن لحظهم ماجوا بغيظهم — حتى إذا ما رأوني طالعاً سكنوا
دعوا الفضول وهبوا للبيان لكي — يدري مقيم على الحسنى ومفتتن
وحسبي الله في بدء وفي عقب — بذكره تدفع الغماء والإحن

هذه المقاومة الشديدة، وإن ضايقت ابن حزم ونغصت عيشه، أجدت على المكتبة العربية وعلى العلوم أعظم الجدوى: فقد اضطرته إلى أن يجرد لسانه وقلمه ويتجول مجاهداً في سبيل دعوته واعظاً ومعلماً ومؤلفاً، قال في رسالته (مداواة النفوس ص ٣٠): « انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة: وهي أنه توقد طبعي واحتدم خاطري وحمي فكري وتهيج نشاطي، فكان

ذلك سبباً إلى تواليف عظيمة النفع ، ولولا استثارتهم ساكني واقتداحهم كامني ما انبعثت لتلك التواليف »

فإلى هؤلاء يعود إذاً فضل غير مباشر بما ننعم به من ثمرات هذا الفكر الخصب ، والله سبحانه زاوج في هذه الدنيا بين الخير والشر ، فليس عليها خير محض ولا شر محض .

والظاهر أن الحملة عليه التي لم تنقطع بمماته ، ولم تقتصر على ابن العربي كما ستعرف بعد قليل .

ترى هذا النمط من المتحاملين وإلى جانبه طرازاً آخر من الناس ، أخذوا أنفسهم بقول الحق فذكروا المحاسن والهفوات، من هؤلاء أبو مروان بن حيان وقد مر بك أكثر قوله فيه بمناسبات مختلفة وخاتمته قوله : « ... إلى أن يُحرّك بالسؤال فيفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء » .

قال الذهبي عقب روايته لكلام ابن حيان : « هذا القائل منصف ، فأين كلامه من كلام أبي بكر بن العربي وهضمه لمعارف ابن حزم » .

وبعد أن أورد ابن حيان شعره في نعي نفسه قال :

« ويا لبدائع هذا الحبر علي وغرره ، ما أوضحها على كثرة الدافنين لها والطامسين لمحاسنها . وعلى ذلك فلبس ببدع فيما أضيع

منه ، فأزهد الناس في عالم أهله ، وقبله ردي العلماء بتبريزهم على من يقصر عنهم ، والحسد داء لا دواء له » .

قلت (المتكلم ابن بسام) :

« ولعمري ما عقه ، ولا بخسه حقه »[١] .

ومن هؤلاء المنصفين الحافظ الكبير العدل الحجة الإمام الذهبي فقد شهد بأن « ابن حزم رجل من العلماء الكبار فيه أدوات الاجتهاد كاملة . تقع له المسائل المحررة والمسائل الواهية كما يقع لغيره . وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ . »

وصف ابن حزم مثبطات مجمعه الأندلسي وصفاً دقيقاً ، ولئن كان أجاد وطبق المفصل ، إنه إنما كان يصف ما عانى منه هو نفسه خاصة . والوصف في الجملة عام ينطبق على كل عالم نبغ بالأندلس فلنختم هذا الفصل بكلمته فإن فيها تاريخاً وبلاغاً قال :

« وأما[٢] جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر : أزهد الناس في عالم أهله . وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : لا يفقد النبي حرمته إلا في بلده . وقد تيقنا ذلك

---

(١) مجلة المقتبس ١ : ٦

(٢) نفح الطيب ٢ : ١٣٠

بما لقي النبي ﷺ من قريش وهم أوفر الناس أحلاماً وأصحهم عقولاً وأشدهم تثبتاً ، مع ما خصوا به من سكناهم أفضل البقاع وتغذيتهم بأكرم المياه حتى خص الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس والله يؤتي فضله من يشاء . ولاسيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي به واستهجانهم حسناته وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما في سائر البلاد ، إن أجاد قالوا : سارق مغير ومنتحل مدّع ، وإن توسّط قالوا : غث بارد وضعيف ساقط ، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أي زمن قرأ ؟ ولأمه الهبل . وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين: إما شفوفاً دائماً يعليه على نظرائه ، أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها ، فهنالك حمي الوطيس على البائس وصار غرضاً للأقوال وهدفاً للمطالب ونصباً للتسبب إليه ونهباً للألسنة وعرضة للتطرق إلى عرضه . وربما نحل ما لم يقل وطوّق ما لم يتقلد ، وألحق به ما لم يفه به ولا اعتقده قلبه وبالحراء – وهو المبرز السابق إن لم يتعلق من السلطان بحظ – ألا يسلم من المتالف وينجو من المخالف .

فإن تعرض لتأليف غمز ولمز ، وتعرض له وهمز واشتط

عليه وعظم يسير خطبه ، واستشنع هيّن سقطه ، وذهبت محاسنه وسترت فضائله ، وهُتف ونودي بما أغفل ، فتنكسر لذلك همته وتكل نفسه وتبرد حميته . وهذا عندنا يصيب من ابتدأ يحوك شعراً أو يعمل بعمل رياسة فإنه لا يفلت من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفائت والمطفف المستولي على الأمد . »

هذا ما تناهت إليه حاله مع الفقهاء والحكام وقد مضى الجميع إلى ربهم يحاسبهم وهو سبحانه يضع الموازين القسط ، ولا تظلم عنده نفس شيئاً .

وموضع الإشفاق في نكد ابن حزم أن خصومة الناس له لم تنقطع بموته بل استمر حظه السيء ينسج حول اسمه ذيولاً من الانتقاص والتعنت في محاسبته ، حتى نهى الشيوخ فيما بعد عن قراءة كتبه ، وحتى صرت ترى العالم أو المؤلف ، إذا استفاد من حكم لابن حزم أو اقتبس شيئاً من كلامه في تصانيفه عقب عليه بما يشعرك بعدم الاحترام ، ولست أحيلك على كتب الفرق التي خاصمها ابن حزم واشتد عليها [1] ، وإنما أعرض عليك

---

(١) ولا بأس أن تطلع من ذلك على عواطف إمام مجتهد شيعي هو بلدينا وعصرينا السيد محسن الأمين العاملي من معتدلي الإمامية والقائلين بالتقريب بين مذاهب المسلمين ، ولك أن تقيس على عواطفه —

مثلاً واحداً منتزعاً من كتاب لأحد أعلام أهل السنة ، تجد له أمثالاً كثيرة في تضاعيف المؤلفات نقل الزرقاني في (شرح المواهب) رأي ابن حزم في تفضيله أزواج النبي ﷺ على السيدة فاطمة وغيرها ، فلم يسعه إلا أن يجود بهذه العبارات : «قاله من لا يعتدّ به ! ! . . . وهو قول ساقط مردود ضعيف لا مستند له من نظر ولا نقل ! !»[1].

وليس كل من خالف الجمهور في مسألة يقال له هذا ، وليس ابن حزم بالذي يرسل القول ضعيفاً من غير مستند له من نظر

— نحو ابن حزم عاطفة غيره من الشيعة ممن هم أقل اعتدالا وأشد عصبية. قال يذكر رأيه في كتاب ابن حزم الكبير الفصل في الملل والأهواء والنحل : « وأمامنا الآن الجزء الثالث من كتاب ابن حزم المسمى بالفصل في الملل والنحل ، المطبوع بمصر ، وقد وجدنا فيه من الكذب والافتراء على الشيعة ومصادمة الحقائق بالإنكار وإظهار النصب والعداوة لأهل البيت وشيعتهم وأتباعهم وإطلاق لسانه بالسوء ما تقشعر منه الأبدان فاكتفينا بإيراد شيء من ذلك وتفنيده لأن استقصاء سخافاته كلها وتفنيدها يطول به الكلام وأكثره واضح البطلان » . اه أعيان الشيعة ١ : ٩٦

(١) شرح المواهب ٣ : ٢٢٥ وممن ذهب في ابن حزم هذا المذهب ، السبكي في طبقاته فقد قال عن كتابه (الفصل) : « كتابه هذا من أشهر الكتب ، وما برح المحققون من أصحابنا ينهون عن النظر فيه لما فيه من الازدراء بأهل السنة ، وقد أفرط فيه في التعصب على أبي الحسن الأشعري حتى صرح بنسبته إلى البدعة . اه انظر كشف الظنون ٢ : ٥٧١

أو نقل ، وسترى قوة حجته حين نصل إلى رسالته « في المفاضلة بين الصحابة . »

والظاهر أن خصومة الناس للرجل حياً وميتاً رزق من الله لا يؤتيه في الغالب إلا المخلصين الأحرار، الصدّاعين بالحق الجبّاهين به . جعل الله جزاء ابن حزم من جهاده أكثر مما لاقى في حياته من عنت الناس وأذاهم وكيدهم .



ي ـــ وفـــاته

استقرت النوى[1] بهذا المجاهد العظيم ، بعد أن طوّف في مدن الأندلس ورحل إلى القيروان وجزيرة (ميورقة) : يلفظه بلد إلى بلد ، وتقذفه بادية إلى بادية ، حتى أراد الله له الطمأنينة فاستراح إلى الأبد في قريته بالبادية من غرب الأندلس على خليج البحر الأعظم : مطارداً منفياً . استأثر الله بروحه في ٢٨ شعبان سنة ٤٥٦[2] ﻫ ودفن بقريته (مُنْتَلِيجَمْ) التي هي ملكه وملك آبائه من قبله . وختمت بوفاته إحدى وسبعون سنة قمرية وأحد عشر شهراً إلا يومين ؛ قضاها في كفاح ونضال ، ومرارة ونفي وإيذاء وتشريد ، صابراً محتسباً مستسيغاً ما يناله باحتمال عجيب وثبات عنيد ، لا يجد لكل ذلك خطراً في جنب الله .

---

(١) ذكر الذهبي عن أبي الخطاب بن دحية أن ابن حزم « قد برص من أكل اللبان وأصابه زمانة » – تذكرة الحفاظ .

(٢) هناك تاريخ آخر تفرد به محمد بن الغزال ، فقد روى عنه الذهبي أنه قال : « توفي في جمادى الأولى سنة سبع وخمسين » ثم قال الذهبي : « وأرخه في سنة ست غير واحد » اﻫ . قلت : وقد أجمع المترجمون له على أن الوفاة في سنة ست فلا يلتفت إلى الرواية الشاذة .

ولقد نعى — رحمه الله — نفسه بأبيات أنشدها وكأنه يطّلع في صفحة الغيب ، قال :

كأنك بالزوار لي قد تبادروا — وقيل لهم : أودى عليّ بن أحمد
فيارب محزون هناك وضاحك — وكم أدمع تذرى وخد مخدّد
عفا الله عني يوم أرحل ظاعنا — عن الأهل محمولاً إلى ضيق ملحد
وأترك ما قد كنت مغتبطاً به — وألقى الذي أنسيت دهراً بمرصد
فوا راحتي إن كان زادي مقدما — ويا نصبي إن كنت لم أتزود[1]

وبوفاته بدأ يشق طريقه إلى الخلود ، وطفقت حسرة الناس تعظم لفقده وأخذوا يشعرون شعوراً قوياً بعظم النكبة فيه . فعرفوا له — حسب العادة في الشرق — منزلته وعبقريته ، وبوّؤوه المكان اللائق به فكان أفحل ذهن انبثقت عنه الأندلس في جميع عصورها . وهو في رأيي الذهنية الفريدة التي تمثل الثقافة الأندلسية أصدق تمثيل ، ولست أرى هذه الميزة لآخر سواه .

خلّف من البنين غير أبي رافع الذي تقدم ذكره مراراً: أبا أسامة يعقوب وأبا سليمان[2] ، فنشروا معارف أبيهم وحفظوها جهد طاقتهم . رحمه الله وجزاه عن الحق وأهله خيراً

---

(١) إرشاد الأريب . مجلة المقتبس : المجلد الأول . وفي إرشاد الأريب رواية ثانية لعجز البيت الرابع هذا نصها : وألقى الذي آنست منه بمرصد

(٢) معلمة الإسلام (ابن حزم) .

القسم الثاني

رسالة

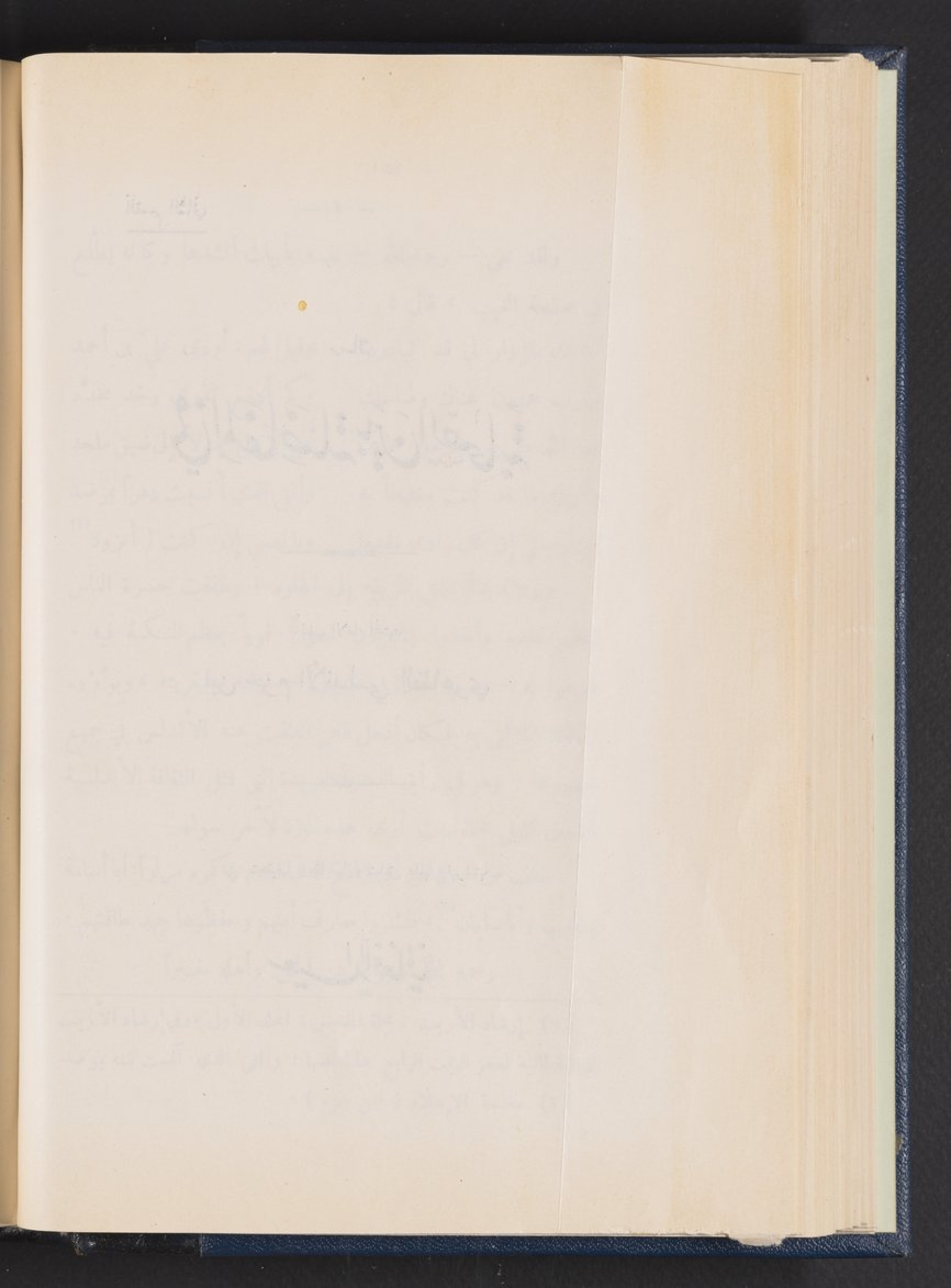
في المفاضلة بين الصحابة

تأليف الامام المجتهد

ابن حزم الأندلسي الظاهري

عني بتحقيقها ومقابلتها والتعليق عليها وفهرستها

سعيد الأفغاني



بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الرسالة

أعثرني عَلى هذه الرسالة ، اشتغالي بالبحث في السيدة عائشة وحداني على إعدادها للطبع أنها كرسالة (الإجابة)[1] ذات علاقة بالسيدة عائشة ، لأن ابن حزم ألفها ليشرح مذهبه في المفاضلة، ومذهبه يجعل أُمهات المؤمنين أفضل الناس بعد الأنبياء ثم يجعل أفضلهن خديجة وعائشة .

هذه الرسالة محفوظة في دار الكتب الظاهرية ضمن مجموعة خطية رقمها (٤٥ أدب) حجمها ٢ر١٣ × ٢ ر ١٧ س٠م مكتوبة بخط نسخي . و كثيراً مـا يلتزم الناسخ ترك التنقيط . ويرجع تاريخ كتابتها إلى القرن الثامن الهجري ففي آخرها مايشير إلى أنه فرغ من كتابتها وقت صلاة العصر من يوم السبت السابع والعشرين من رجب سنة ٧٥٥ هـ . وفي أعلى الصفحة الأولى من

---

(١) « الاجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة » للإمام الزركشي ، طبعتها المكتبة الهاشمية بدمشق قبل شهور .

الكتاب هذا الكلام : « كتاب فيه المفاضلة بين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين » في سطرين، وتحتهما « تصنيف ابن حزم الظاهري» وفي أسفل الصفحة أثبت الناسخ هذه الأبيات :

إن لله رجالاً فُطُنـاً   طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا   أنها ليست لحي قطنا

جعلوها لجة واتخذوا   صالح الأعمال فيها سفنا

بخط غير منقوط وجعل كلمة (سفنا) سطراً رابعاً . وفي ذيل الصفحة أعاد اسم المؤلف (ابن حزم الظاهري)

أما الناسخ فغير معروف ، والظاهر أنه عامي لأن الأغلاط في النسخة فاشية، والآيات الكريمة محرفة، وفيها نقص في مواضع كثيرة مخل بالمعنى ، مما يدل على أن ناسخها لانصيب له من العلم .

* * *

لم أكد أقرأ هذه الرسالة حتى عزمت على استنساخها وتهيئتها للنشر ، فدفعتها إلى الناسخ وشرعت أحضر مقدمتها ، وإني لعاكف على التدقيق في كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) إذا بي أقرأ هذا العنوان : (في المفاضلة بين الصحابة) فدهشت وجعلت ألتهم سطور الموضوع فإذا هو عين ما في ذاكرتي من النسخة الخطية مع خلاف يسير فوقفت النسخ وطفقت أقابل بين المخطوط والمطبوع ، فإذا الأمر كما قررت ، فوقعت في حيرة وهرع إليّ أمين

المكتبة فشده لما عرف ، وأخبرني أن هذه النسخة المخطوطة استنسخها منذ أكثر من عام ناشر فاضل في مصر ، وفكر في طبعها اثنان من أجلاء العلماء بدمشق ، وهذان وذاك لا يعرفون أنها هي المطبوعة في كتاب ابن حزم الكبير . ولم نقض عجباً مما وقع وكيف خفي الأمر على أولئك الأجلاء وغيرهم وهو حادث لم يعهد مثله تاريخ دار الكتب قط .

عدلت عن المضي ثم بدا لي أن أنفذ ما كنت عزمت عليه لأمرين: الأول طرافة البحث وكون صاحبه سلك فيه طريقة منطقية محكمة ، فمن الخير أن تفشو بين الناس ويستفيدوا منها مجلوّة في قالب علمي متقن . والثاني أن بالمطبوع نقصاً عن المخطوط في بعض المواضع وفي المخطوط نقص عن المطبوع في بعض ، هذا إلى خلاف يسير في بعض الجمل وتحريف ونقص في أسماء بعض الأعلام في المطبوع والمخطوط معاً ، فأخذت أسجل الفروق وأصحح الخطأ وأعلّق حيث الحاجة إلى التعليق .

ورجعت في ضبط الأعلام إلى كتب الطبقات المشرقية والمغربية ، وأخذت أترجم لهم تراجم سلكت فيها طريقة خاصة بهذا الكتاب : فما كان من الأعلام بحيث لا يجهله أحد كأبي بكر الصديق رضي الله عنه مثلاً أو كان محدثاً من جمهرة المحدثين ، اكتفيت

بذكر نسبه وصنعته ومولده ووفاته وبعض ميزاته أحياناً ؛ ومن كان منهم ذا شأن خاص في هذا الكتاب كمكي بن أبي طالب الذي اعترض على ابن حزم أو غيره ممن اعتمد ابن حزم كلامهم أو رده عليهم أفضت فيها بعض الإفاضة(١) .

ومع أن كثيراً من هؤلاء الأعلام أندلسي لاتجد له ترجمة في كتبنا ، اغتبطت بفوزي بالترجمة لهم وهم فوق المئة والخمسين في رسالة ابن حزم هذه . ولم يعجزني غير عشرة منهم بعد أن أشهدت الله على بذل الجهد وأعذرت إلى نفسي في إفراغ وسعها. وقد جعلت هذه التراجم مرتبة على الحروف وذيلت بها الرسالة ولم أبعثرها في حواشي الصحف لأن ذلك أرفق بالقارئ من جعلها مبعثرة في الحواشي فتشتت ذهنه وربما لم يكن لبعض القراء في هذه التراجم حاجة ، هذا عدا التشويه الذي يحمله الكتاب فقد يكون أحيانا في السطر الواحد خمسة أعلام فيرتبط به خمس حواش ، وهو شيء ينبو عنه الذوق السليم .

ثم التزمت في ترقيم النسخة طريقة تجعل القارئ على إلمام بتفاصيل النسختين وتباينهما من غير أن أكلفه عناء الرجوع إلى الحواشي

---

(١) أضفت إلى أعلام الرسالة شيوخ ابن حزم وتلاميذه الذين ذكرتهم آنفاً في دراستي له فقط .

حيث يمكن الجمع في المتن . وسأنبه على ذلك في ذيل هذه الكلمة .

وأمر آخر عنيت به ، وهو أن هذا البحث في الخطية والمطبوعة كأنه جملة واحدة ، فميزت بين المواضيع المختلفة وجعلت له أبواباً وعناوين تنبه القارئ إلى تغير الموضوع وتطرد عنه الملل ، ولو لم يكن إلا هذا لكان سبباً كافياً في إفرادها بالنشر نشراً مضبوطاً (مفننا) .

* * *

أجمل ما يعجبني من ابن حزم في هذه الرسالة ما قدمت من التزامه في ترتيب أفكاره طريقة منطقية محكمة : مهد لبحثه بكلمة عن معنى الفضل ووجوه المفاضلة حتى إذا قرر ما يريد منها ورسم خطة البحث بعد تحديده أدرج رأيه في فضل أزواج الرسول ﷺ بلا احتجاج له ، ثم استعرض آراء المخالفين فعرضها عرضاً شافياً ، ثم شرع في تمهيد الاحتجاج لرأيه ورد الآراء المختلفة وهنا ينتهي ما جعلته باباً أول .

في الباب الثاني يسرد حججه في فضل الأزواج مستمدة من الكتاب والسنة وصحيح الخبر ، واقفاً عند النصوص ، ممعناً فيها تدقيقاً وتحليلاً واستنباطاً . ويورد لك جميع حجج المخالفين ، ويناقش نصوصها مناقشة فنية من جهة الحديث والأصول .

وهنا يبدو لك تمكنه العظيم من علوم الدين ، ثم ينصب نفسه

محامياً عدلاً فيذكر جميع الاعتراضات والشبه التي ترد على مذهبه وينقد لك ما يقدم بين يدي الشبهة على أنه حجة ، متناً وسنداً حتى إذا دفع جميع الاعتراضات ذكر الرأي في فضل عائشة وخديجة على سائر أمهات المؤمنين . ويتم بهذا ، الشطر الأعظم من الموضوع .

وفي الباب الثالث يعين لنا أفضل الصحابة بعد أمهات المؤمنين ، مهتماً بصورة خاصة بجدال الشيعة وآرائهم ، ويقيم البراهين على أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، أكثر جهاداً من علي وأعلم وأوسع رواية وفتيا وأقرأ وأتقى وأزهد وأكثر صدقة وأسبق إلى الإسلام و ... من علي وسائر الصحابة ويعدد فضائل الصديق في القرآن والحديث ثم يجعل عمر في المرتبة التالية له ، ثم يوازن بين عثمان وعلي فيفضل عثمان لأسباب ذكرها . ثم يجعل بعد الخلفاء الراشدين طبقة البدريين ثم أهل المشاهد على الترتيب ... ويلي الصحابة في الفضل التابعون . ويختم كتابه بكلام محكم سديد في عدم فضل القرابة وأن الدين لم يجعل لقريب فضلاً لمحض قرابته ، ويناقش النصوص التي يؤولها الجاهلون ، ويبين ببيان شاف أن الإسلام سوى بين الناس كافة ، تسوية صريحة واضحة عامة شاملة لا يعروها شذوذ ولا استثناء .

* * *

هذا عرض موجز لطريقته في ترتيب موضوعه : تقرير للأسس

ثم بسط للدعوى ، ثم استعراض آراء الخصوم وشبههم ، ثم دفع للشبه وبرهان للدعوى ، وهي طريقة محكمة كاملة .

والرسالة تعلم الحوار المضبوط والمناقشة الدقيقة والجدل الصحيح القوي ، وتبدو لنا براعة ابن حزم في تحليل النصوص وجودة الاستنباط منها ودقة الفهم لها ، بالغة الغاية خاصة في ص ٢٤ — ٢٦ من الأصل المخطوط حين يرد اعتراض المحتج بحديث (أسامة أحب الناس إليّ) ، (الأنصار أحب الناس إليّ) لقد وازن الروايات المختلفة وعرض للراوين لها تعديلاً وتجريحاً ، وتجلّى لنا إماماً بارعاً في الحديث وفنونه ، شديد التمكن منه كثير التدقيق فيه .

وانظر غوصه ودقته حين يقرر الفروق بين السيادة والفضل واستنتاجه من خطبة الصديق مالا يخطر ببال مخلوق ومع هذا لايسع قارئها إلا التسليم بما ذهب إليه مع الإعجاب والإكبار .

وأمر آخر أعجب ، وهو أن في عقيدتك وعقيدة عامة المسلمين ، حتى الذين يفضلون الصديق على الإمام عليّ ، أن علياً أكثر جهاداً وعلماً وزهداً ، فاقرأ إذن هذه الرسالة ، وأمعن في حجج ابن حزم وأدلته ثم أخبرني: هل بقي لعقيدتك السالفة من أثر قط؟

وهو في هذه الرسالة – كما في سائر كتبه – ظاهري قوي الظاهرية واضحها ، وقّاف عند النصوص ، بل عند حرفيتها يستنبط منها ما شاء الله له ، وتلك أبرز صفاته في مؤلفاته .
تراه بعد أن يقرر فضل أبي بكر ، لا يفرض عليك بعده مذهباً ما ، هو يرى عليك من الحتم أن تعتقد بفضل أُمهات المؤمنين وأن أَفضلهن خديجة وعائشة ، وأن أفضل الناس بعدهن الصديق لأن النصوص على هذا تواردت وأنت حر في أن تعتقد بعد ذلك بفضل من شئت ، عمر ، علي ، أسامة ، بلال .. من شئت ، لا ينحتم عليك شيء لأن النصوص هناك وقفت . قال بعد ذكره للحديث الذي ينص على أن أحب الناس إلى النبي عائشة ثم أبوها :

« فقطعنا بهذا ثم وقفنا ، ولو زادنا رسول الله ﷺ لزدنا لكننا لا نقول في شرع من الدين إلا بما جاء به النص » .

وأنت خبير أن هذا الموضوع هو الذي خلق المذاهب السياسية في صدر الإسلام ، وهو الذي فرق الفرق وخلف لنا البلاء الأطول ، مما دسه المغرضون والدخلاء وذوو الطوائل والنيات الفاسدة ، فجعلوه من الدين وما هو إلا خطط سياسية مستترة ، الدين منها بريء .

أما تزييفه فهم بعض الناس لـ « ذوي القربى والقرابـة » فشيء ما رأيت في حياتي كلاماً أسد منه ولا أضبط ولا أكثر إحكاماً ولا أقوى قوة . هو آخر مايبلغه عقل كامل منصف يقف عند النصوص الصحيحة ، وأشهد ماترك بعده لقائل مقالاً قط ، وأن الله آتاه فيه فصل الخطاب .

وأما الخاتمة التي أظهر فيها ميزة الإسلام وروحه ، ظاهرة صريحة غير متعتعة ، فهي مجيدة حقاً ممتازة صـدقاً ، وإذا لم نجد هذه النزعة السامية الإنسانية النبيلة في الإسلام فأين لعمري نجدها ؟! التسوية بين البشر كافة هي سمة الإسلام قبل أربعـة عشر قرناً ، طبقها المسلمون الأولون عملاً فنعم بخيرها أجناس وطوائف شتى ، وهي آخر ما يطمح إليه الإنسانيون من فلاسفة أوروبا وأمريكا .. فلينتظروا

* * *

ولا يسعني في الختام إلا أن أبدي حسرة شديدة على شيء في مزاج ابن حزم ، لا حيلة لنا فيه ولعله هو نفسه أيضاً لم تـكن له حيلة فيه ، هو هـذا العنف والسباب الذي يتخلل جدله ، والذي لولاه لكان من الـكاملين حقاً ، ولـكن الكمال لله والعصمة لأنبيائه ، ومن أين لغيرهم أن يكمل من كل وجه . في هذه الرسالة جمل نستحيي منها ونعتذر لها ونود لو لم تـكن :

لأنها لا تقدم في قوة البحث ولا تؤخر ، وأستغفر الله إنها عيب البحث الوحيد ، وإذا كان المجادل الضعيف يستر ضعفه بالتهجم على خصمه والطعن فيه ، فإن سيلان هذه الجمل على قلم رجل قوي العلم متين الحجة كابن حزم ، لمن أغرب الأمور .

وددت كما قلت لو استطعت أن أحذف من الرسالة أمثال قوله : « إن عارضنا معاند أو جاهل أو قليل الحياء » ، « وهذه القحة المجردة والبهتان » ، « كذب هذا الآفك » ، « كذب هذا الجاهل » ، « اعترض بعض أهل القحة .. » ، « هذه مجاهرة بالباطل » ، « قحة الروافض وجهلهم وسخفهم » ، « ولو كان لهؤلاء الأرذال حياء أو علم » .. الخ وددت إتلافها ، ولكن ما حيلتي بأصول الإخراج وأمانة التاريخ وعلمية النشر ؟ فلنقبل ابن حزم على علته ، ولنروّض أنفسنا على المرور بهذه الهنات . وقد عرفت من دراسة حياته أن مزاجه هذا جر عليه ألوان البلاء فما استطاع عنه زحزحة قط .

غفر الله لابن حزم ، وألهم خصومه مسامحته ، فقد قدس في حياته الحق تقديساً ، ورفع من شأن العقل الحر ، وترك لنا بين الأمم تراثاً ممتازاً لم يتح لغيره أن يضارعه بمثله . أثابه الله وأسعده برضوانه ، كفاء ما نصر الحق والدين واحتمل في سبيلهما ما احتمل

وأكرم علمه الواسع وعقله الحصيف وفكره الخصب . ورحم ذلك الجهاد الطويل والنضال المتواصل والصبر على الناس .

دمشق : سعيد الأفغاني

تنبيه : الأرقام في الهامش تشير إلى
صحف الأصل المخطوط . وما بين
(   ) زيادة النسخة الخطية على
المطبوع ، ومـا بين [   ] زيادة
المطبوع على المخطوط . وما بين
« » في الحاشية النص في المطبوع
وقد يشار إليه أحياناً بحرف : ط .

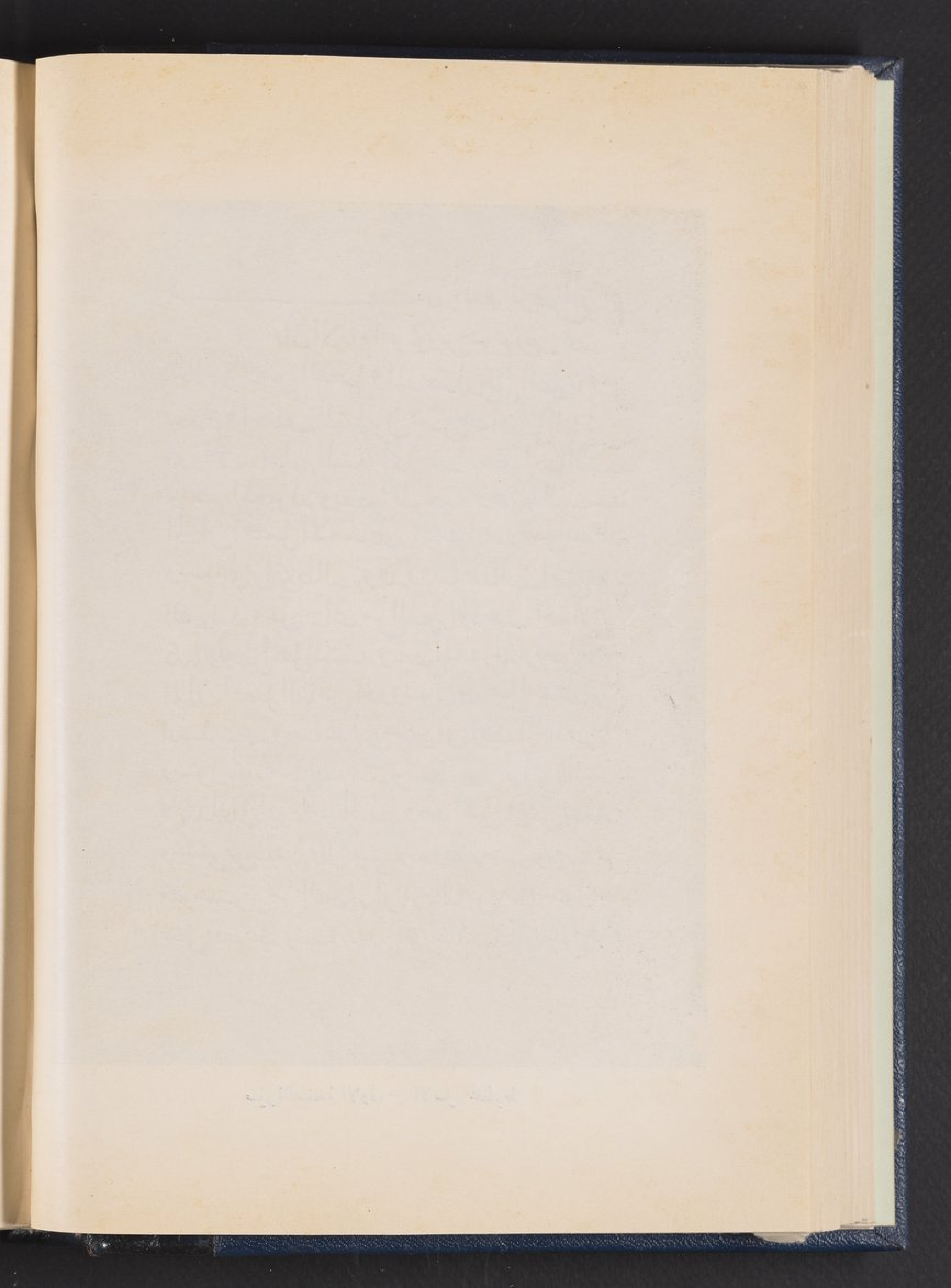
فالقارئ بلمحة واحدة يدرك
الخلاف بين النسختين والزيادات
والنواقص بأخصر طريق وألطفه،
دون أن يقطع على نفسه تساوق
الحديث وتسلسل المعاني .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الامام ابو محمد بن حزم رحمه الله

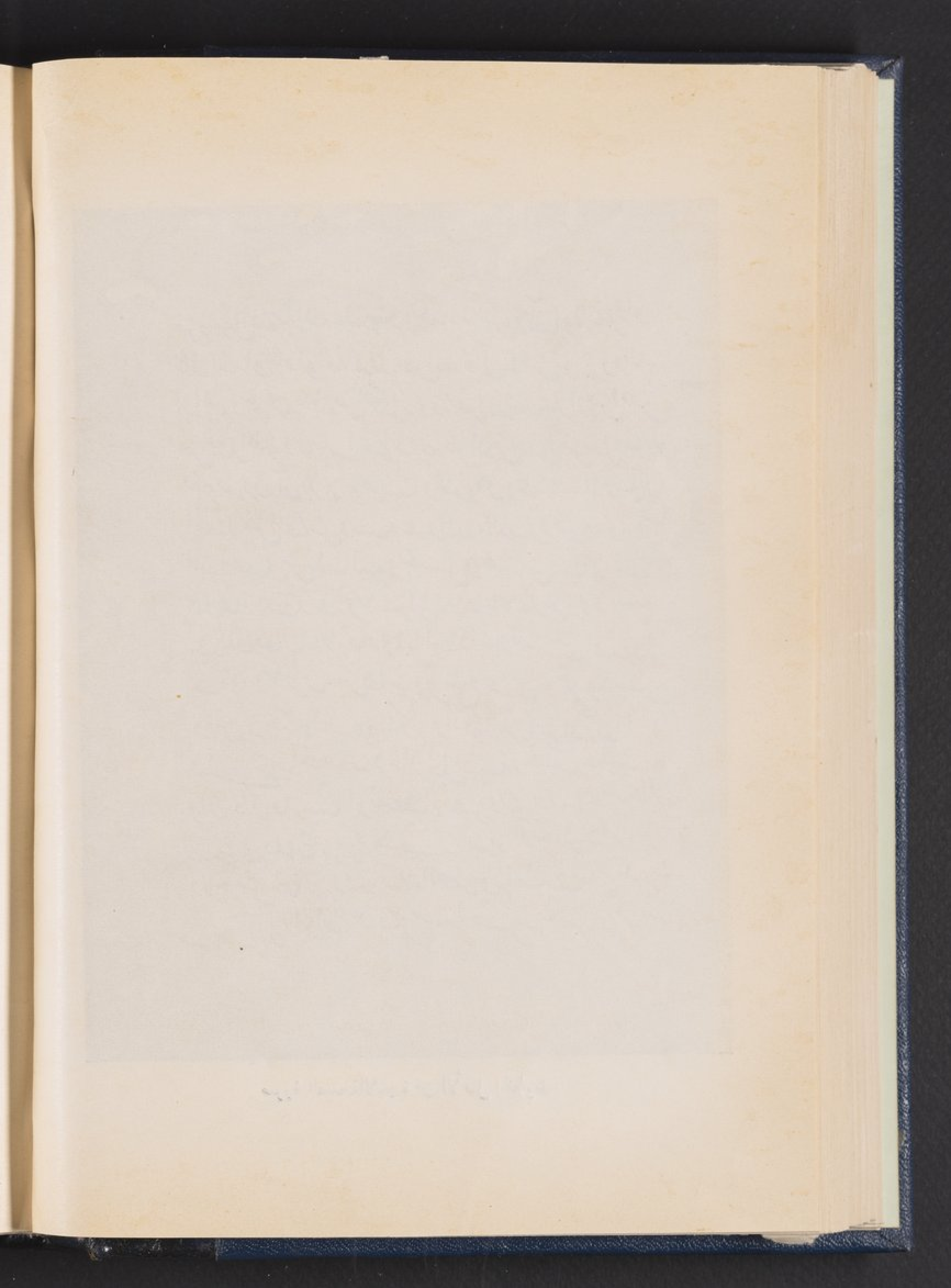
الكلام في وجوه الفضل والمفاضلة بين الصحابة ومن
بعدهم واختلف المسلمون فيمن هو افضل الناس
بعد الانبيا عليهم السلام فذهب بعض اهل السنه
وبعض المعتزله وبعض المرجيه وجميع الشيعه
الى ان افضل الامه بعد رسول الله صلى الله عليه
وسلم علي بن ابي طالب وقد روينا هذا ايضا عن بعض
الصحابه وعن جماعه من الفقها وذهبت الخوارج
كلها وبعض اهل السنه وبعض المعتزله وبعض المرجيه
الى ان افضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم
ابو بكر ثم عمر وروينا عن ابي هريرة ان افضل الناس بعد
رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفر بن ابي طالب
وبهذا قال ابو عاصم النبيل وهو الضحاك بن مخلد
وعيسى بن حاضر قال عيسى وبعد جعفر حمزة وروينا عن
نحو عشرين من الصحابه ان اكرم الناس بعد رسول الله
صلى الله عليه وسلم علي بن ابي طالب والزبير بن العوام

صورة الصفحة الاولى من الاصل المخطوط



من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من نبي من الانبيا والرسل ولو
كان ابنه او اباه او امه وقد نص الله تعالى في ابن نوح ووالد
ابراهيم وعم محمد ما فيه من الكفاية وقد نص الله تعالى على ان من اعتق
من قبل الفتح وقاتل اعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا
فصح ضرورة ان بلالا وصهيبا والمقداد وعمارا وسالما وسلمان
افضل من العباس وبنيه عبد الله والفضل وقثم ومعبد وعبيد
الله وعقيل بن ابي طالب والحسن والحسين بشهادة الله تعالى
فهذا لا شك فيه ولا جزاء للآخرة الا بعمل ولا ينتفع
عند الله تعالى بالارحام ولا بالولادات وليس بين الذين دان
جزاء ولا فرق بين هاشمي وقرشي وعربي وعجمي وحبشي
وابن زنجية لغية والكريم والتقوى لمن اتقى الله تعالى
قال عمر بن الخطاب كرم الرجل دينه وحسبه خلقه
وان كان فارسيا او نبطيا [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

صورة الصفحة الاخيرة من الأصل المخطوط



الباب الاوّل

تمهيد

[في بيان الفضل والمفاضلة وعرض الآراء المختلفة]

قال الامام أبو محمد بن حزم رحمه الله

٢ الكلام في وجوه الفضل والمفاضلة بين الصحابة (ومن بعدهم) واختلف المسلمون فيمن هو أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم السلام . فذهب بعض أهل السنة وبعض المعتزلة وبعض المرجئة وجميع الشيعة : إلى أن أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ علي ابن أبي طالب ، وقد روينا هذا [القول] أيضاً [١] عن بعض الصحابة (عمار بن ياسر والحسن بن علي) وعن جماعة من [التابعين و] الفقهاء . وذهبت الخوارج كلها وبعض أهل السنة وبعض المعتزلة وبعض المرجئة : إلى أن أفضل الناس [٢] بعد رسول الله ﷺ ، أبو بكر ثم [٣] عمر .

وروينا عن أبي هريرة [رضي الله عنه] : أن أفضل الناس

---

(١) « نصاً » (٢) « الصحابة » (٣) « و »

بعد رسول الله ﷺ ، جعفر بن أبي طالب ، وبهذا قال أبو عاصم النبيل[(١)] وهو الضحاك بن مخلد وعيسى بن حاضر . قال عيسى : وبعد جعفر حمزة [رضي الله عنه] . وروينا عن نحو عشرين من الصحابة : أن أكرم الناس بعد[(٢)] رسول الله ﷺ ، علي بن أبي طالب والزبير بن العوام . وروينا عن أم المؤمنين عائشة [رضي الله عنها] مات رسول الله ﷺ و [ثلاثة] رجال لا يعتد[(٣)] [أحد] عليهم بفضل : سعد[(٣)] بن [معاذ] وأسيد بن حضير وعباد[(٤)] ابن بشر . وروينا عن أم سلمة أم المؤمنين [رضي الله عنها] : أنها تذكرت الفضل ومن هو خير ، فقالت : « ومن [هو] خير من أبي سلمة ؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ » . وروينا عن

٣

(١) في الأصل : (النبيلي) والتصحيح عن ط و تهذيب التهذيب .

(٢) « على »

(٣) « يعد » وفي الأصل (يعتمد) والتصحيح عن الإصابة فقد جاء في ترجمة عباد بن بشر : وقالت عائشة : ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلا كلهم من بني عبد الأشهل : سعد بن معاذ و .. الخ . وفي ترجمة سعد بن معاذ روي عنها بهذا اللفظ : كان في بني عبد الأشهل ثلاثة لم يكن أحد أفضل منهم : سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعباد بن بشر .

(٤) في الأصل عياذ والتصحيح عن ط وعن كتاب الإصابة .

مسروق بن الأجدع وتميم بن حذلم[١] وإبراهيم النخعي وغيرهم : أن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ، عبد الله بن مسعود . قال تميم وهو من كبار التابعين : « رأيت أبا بكر وعمر فما رأيت مثل عبد الله بن مسعود » . وروينا عمن[٢] أدرك النبي ﷺ : أن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ، عمر بن الخطاب وأنه أفضل من أبي بكر [رضي الله عنهما] » . وبلغني عن محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري : أنه كان يذهب إلى هذا القول . وقال داود بن علي الفقيه [رضي الله عنه] : « أفضل الناس بعد الأنبياء (عليهم السلام) أصحاب رسول الله ﷺ ، وأفضل الصحابة : الأولون من المهاجرين ، ثم الأولون من الأنصار ، ثم من بعدهم منهم . ولا أقطع[٣] على إنسان منهم بعينه أنه أفضل من الآخرين[٤] من طبقته » . وقد روينا[٥] عن متقدمي العلم ممن[٦] يذهب إلى هذا القول . وقال لي يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري[٧] غير ما مرة : [أن] هذا هو قوله ومعتقده .

٤

---

(١) في الأصل : حذام وهو خطأ والتصحيح عن ط و كتاب (تهذيب التهذيب) .

(٢) « عن بعض من » (٣) « تقطع » (٤) « آخر »

(٥) « رأينا » (٦) « من » (٧) « النميري »

[رأي ابن حزم]

* قال ابو محمد * : والذي نقول به وندين الله تعالى به[(١)] ونقطع على أنه الحق عند الله تعالى[(٢)] : أن أفضل الناس بعد الأنبياء [عليهم السلام] ، نساء رسول الله ﷺ ثم أبو بكر .

ولا خلاف بين أحد من المسلمين في أن أمة محمد ﷺ أفضل الأمم بقول[(٣)] الله عز وجل : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ[(٤)] » وأن هذه (الآية) قاضية على قول الله[(٥)] عز وجل لبني إسرائيل : « وأني فَضَّلْتُكُمْ[(٦)] على الْعَالَمِينَ[(٧)] » و [أنها] منبئة أن[(٨)] مراد الله تعالى بذلك[(٩)] : (على) عالمي[(١٠)] الأمم حاشا هذه الأمة .

* قال ابو محمد * ثم نقول وبالله [تعالى] التوفيق : إن الكلام المهمل دون تحقيق المعنى المراد بذلك الكلام فإنه طمس للمعاني ، وصد عن إدراك الصواب ، (وتعجيز) وتعويج[(١١)] عن الحق ، وإبعاد عن الفهم ، وتخليط وعمى . فلنبدأ بعون الله وتأييده بتقسيم وجوه الفضل التي يستحق[(١٢)] بها التفاضل وتفسيرها ، فإذا

---

(١) « عليه » (٢) « عز وجل » (٣) « لقول »
(٤) سورة آل عمران ٣ الآية ١١٠ (٥) « قوله تعالى »
(٦) « وفضلناكم » (٧) سورة البقرة ٢ الآية : ٤٧
(٨) « لأن » (٩) « من ذلك » (١٠) « عالم » (١١) « تعريج »
(١٢) « بها يستحق »

استبان معنى الفضل ، وعلى ماذا تقع هذه اللفظة ، فبالضرورة نعلم حينئذ : أن من وجدت فيه هذه الصفات أكثر ، فهو أفضل بلا شك .

[وجوه التفاضل]

فنقول ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم : ٥

إن الفضل [ينقسم إلى] قسمين[١] لا ثالث لهما : فضل اختصاص من الله تعالى[٢] بلا عمل ، وفضل مجازاة [من الله تعالى] بعمل . فأما فضل الاختصاص [دون عمل] ، فإنه يشترك فيه جميع المخلوقين من الحيوان الناطق والحيوان غير الناطق والجمادات والأعراض : كفضل الملائكة في ابتداء خلقهم على سائر الخلق ، وكفضل الأنبياء [في ابتداء خلقهم] على سائر الجن والإنس ، وكفضل إبراهيم ابن النبي ﷺ على سائر الأطفال ، وكفضل ناقة صالح [عليه السلام] على سائر النوق ، وكفضل ذبيح[٣] إبراهيم على سائر الذبايح ، وكفضل مكة على سائر البلاد ؛ [وكفضل المدينة بعد مكة على غيرها من البلاد] ، وكفضل المساجد على سائر البقاع ، وكفضل الحجر الأسود على سائر الحجارة ، وكفضل شهر رمضان على سائر الشهور ، وكفضل يوم عرفة

---

(١) في الأصل : قسمان (٢) « عز وجل » (٣) « ذبيحة »

ويوم الجمعة[1] وعاشوراء والعشر على سائر الأيام ، وكفضل ليلة القدر على سائر الليالي ، وكفضل صلاة الفرض على (صلاة) النافلة ، وكفضل صلاة العصر وصلاة الصبح على سائر الصلوات ، وكفضل السجود على القعود ، وكفضل بعض الذكر على بعض ؛ فهذا هو فضل الاختصاص المجرد بلا عمل . وأما[2] فضل المجازاة بالعمل فلا يكون البتة إلا للحي الناطق من الملائكة والإنس والجن فقط . وهذا هو القسم الذي تنازع الناس فيه في هذا الباب الذي نتكلم فيه الآن : من أحق به ؟ فوجب أن ننظر أيضاً في أقسام هذ القسم التي بها يستحق الفضل فيه والتقدم ، فنحصرها ونذكرها بحول الله (تعالى) وقوته . ثم ننظر حينئذ : من أحظى[3] به وأسعد بالبُسوق[4] فيه ؟ فيكون بلا شك أفضل ممن هو أقل حظا فيها بلا شك [وبالله تعالى التوفيق] . فنقول [وبالله تعالى نستعين] :

إن العامل يفضل العامل في عمله بسبعة أوجه لا ثامن لها ، وهي : الماهية[5] وهي عين الفعل وذاته ، والكمية وهي العرض في العمل ، والكيف[6] ، والكم ، والزمان ، والمكان ، والإضافة .

٦

---

(١) « يوم الجمعة وعرفة » (٢) « فأما » (٣) « من هو أحق »
(٤) « الفسوق » (٥) « المائية » (٦) « الكيفية »

فأما الماهية[١] : فهي أن تكون الفروض من أعمال أحدهما موفاة كلها ، ويكون الآخر يضيع بعض الفرض[٢] وله نوافل ؛ أو يكون كلاهما يوفي[٣] جميع فرضه ويعملان نوافل زائدة ، إلا أن نوافل أحدهما أكثر[٤] من الآخر ، كما إذا كان[٥] أحدهما يكثر الذكر في الصلاة والآخر يكثر الذكر في حال جلوسه وما أشبه هذا ، وكإنسانين قاتل أحدهما في المعركة والموضع المخوف وقاتل الآخر في الرد ،[٦] أو جاهد أحدهما واشتغل الآخر بصيام وصلاة تطوع . أو يجتهدان فيصادف أحدهما (الحق) ويحرمه الآخر . [فيفضل أحدهما الآخر] في هذه الوجوه بنفس عمله ، [أ] وبأن ذات عمله أفضل من ذات عمل الآخر ، فهذا هو التفاضل في الماهية[٧] في العمل . وأما الكمية وهي العرض : فأن يكون أحدهما يقصد بعمله وجه الله تعالى لا يمزج به شيئاً البتة ، ويكون الآخر يساويه في جميع عمله إلا أنه ربما مزج بعمله شيئاً من حب الترقي[٨] في الدنيا وأن يستدفع بذلك الأذى عن نفسه ، وربما شابه[٩] شيء من الرياء ففضله الأول بعرضه في عمله .

٧

(١) « المائية من » (٢) « فروضه » (٣) « وفى » (٤) « أفضل »
(٥) « كأن يكون » (٦) « الردء » وهو الصواب (٧) « المائية من »
(٨) « البر » (٩) « مزجه »

وأما الكيفية : فأن يكون أحدهما يوفي عمله جميع حقوقه ورتبه لا منتقصاً ولا مزيداً [١] ، ويكون الآخر ربما انتقص بعض رتب ذلك العمل وسننه وإن لم يعطل منه فرضاً ، أو يكون أحدهما يصفي عمله من الكبائر وربما أتى الآخر بعض الكبائر ففضله الآخر بكيفية عمله ·

وأما الكم : فأن يستويا في أداء الفرض ويكون الآخر [٢] أكثر نوافل ، ففضله هذا بكثرة عدد نوافله كما روي أن [٣] رجلين أسلما وهاجرا أيام رسول الله ﷺ ، [ثم] استشهد أحدهما وعاش الآخر بعده سنة ثم مات على فراشه · فرأى بعض الصحابة [٤] [أحدهما في النوم وهو] آخرهما موتاً في أفضل حالاً من [٥] الشهيد ، فسئل [٦] عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقال [عليه السلام] كلاماً معناه : « وأين [٧] صلاته بعده ؟ و (أين) صيامه بعده ؟ » ففضل أحدهما الآخر بالزيادة التي زادها [٨] عليه في عدد أعماله ·

وأما الزمان : فكمن عمل في صدر الإسلام ، أو في عام [١١] مجاعة أو في وقت نازلة بالمسلمين ، وعمل غيره بعد قوة المسلمين

٧

٨

---

(١) « متزيداً » (٢) « أحدهما » (٣) « في »
(٤) « أصحاب النبي ﷺ » (٥) « في أفضل من حال الشهيد »
(٦) « فسأل » (٧) « فأين » (٨) في الأصل : وهو خطأ ·

وفي زمن رخاء وأمن : فإن الكلمة في أول الإسلام والتمرة والصبر والصبر حينئذ وركعة في ذلك الوقت، تعدل اجتهاد الأزمان[1] الطوال وجهادها وبذل الأموال الجسام بعد ذلك . وكذلك قال رسول الله ﷺ : « دعوا لي أصحابي، فلو كان لأحدكم مثل أحد ذهباً فأنفقه مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه . » فكان نصف مد شعير أو تمر في ذلك الوقت، أفضل من جبل أحد ذهباً ننفقه نحن في سبيل الله تعالى[2] بعد ذلك . قال الله تعالى : « لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ » .[3] قال أبو محمد (و) هذا في الصحابة فيما بينهم، فكيف لمن[4] بعدهم معهم [رضي الله عنهم أجمعين . قال أبو محمد] : وهذا يكذب قول أبي هاشم محمد بن علي الجبائي و [قول] محمد بن أبي الطيب الباقلاني[5]، فإن الجبائي قال : « جائز إن طال عمر امرىء أن يعمل ما يوازي عمل نبي من الأنبياء » . وقال الباقلاني : « جائز أن يكون في الناس من هو أفضل من رسول ﷺ من حين[6] بعث بالنبوة إلى أن مات » .

٩

(١) في الأصل : الزمان، والتصويب عن ط (٢) « عزوجل »
(٣) سورة الحديد (٥٧) الآية ١٠ (٤) « بمن » (٥) كذا في المطبوع والمخطوط، والذي في كتب التراجم : ابو هاشم عبد السلام بن ابي علي محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن الطيب الباقلاني . انظر في فهرس التراجم : الجبائي والباقلاني (٦) « حيث »

* قال ابو محمد * وهذا كفر مجرد وردة (صريحة) وخروج عن دين الإسلام بلا مرية وتكذيب لرسول الله ﷺ في إخباره أنه [١] لاندرك أحد [آ] من الصحابة [٢]، وفي اخبار [ه عليه السلام عن] أصحابه [رضي الله عنهم] بأنه ليس مثلهم وأنه أتقاهم لله وأعلمهم بما يأتي وما يذر. وكذلك أيضاً قالت الخوارج والشيعة، فإن الشيعة يفضلون [٣] أنفسهم — وهم شر خلق الله تعالى — على أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وعائشة وجميع الصحابة [رضي الله عنهم]، حاشا علياً والحسن والحسين وعمار بن ياسر. والخوارج يفضلون أنفسهم — وهم شر خلق الله وكلاب النار — على عثمان ومن ذكرنا، [٤] ولقد خاب من خالف [كلام] الله تعالى وقضاء رسوله [٥].

[* قال ابو محمد *] وكذلك القليل من الجهاد والصدقة في زمان الشدائد، أفضل من كثيرهما في وقت القوة والسعة]. وكذلك صدقة المرء بدرهم في زمان فقره وصحته (وهو) يرجو الحياة ويخاف الفقر، أفضل من الكثير [٦] يتصدق به من [٧] عرض غناه وفي وصيته بعد موته. [وقد] صح عن رسول الله ﷺ: «سبق درهم مئة ألف درهم: وهو إنسان كان له درهمان تصدق

١٠

(١) «أنا» (٢) «أصحابه» (٣) في الأصل: يفضلوا
(٤) «عثمان وعلي وطلحة والزبير» (٥) «رسول الله ﷺ»
(٦) «الكبير» (٧) «في»

بأحدهما ، والآخر عمد إلى عرض ماله فتصدق منه بمئة ألف .»
وكذلك صبر المرء على أداء الفرائض في حال خوفه ومرضه وقليل تنفله في زمان مرضه وخوفه ، أفضل من عمله وكثير نوافله[١] في زمان صحته وأمنه : ففضل من ذكرنا غير [هم] بزمان عملهم . وكذلك من وفق لعمل الخير في زمان آخر أجله ، فهو أفضل ممن خلط في آخر زمان[٢] أجله .

وأما المكان : فكصلاة في المسجد الحرام [أ] ومسجد المدينة ، فهما أفضل من ألف صلاة فيما عداهما . وفضل[٣] الصلاة في المسجد الحرام على صلاة في مسجد رسول الله ﷺ ، بمئة درجة . والصيام[٤] في بلد العدو [أ] وفي الجهاد على صيام في غير الجهاد . [ففضل من عمل في المكان الفاضل ، غيره ممن عمل في غير ذلك المكان عمله ، بمكان[٥] عمله وإن تساوى العملان]

وأما الإضافة : فركعة من نبي أو ركعة معه[٦] أو صدقة من نبي أو صدقة معه [أ] وذكر من[٧] نبي أو ذكر معه أو سائر أعمال البر منه أو معه : فقليل ذلك أفضل من كثير الأعمال

---

(١) « تنفله » (٢) « في زمان آخر » (٣) « تفضل »
(٤) (وكصيام) (٥) الجار والمجرور متعلقان بـ : فضل
(٦) « مع نبي » (٧) « منه »

بعده . [ويبين ذلك ماقد ذكرنا آنفاً من قول الله عز وجل « لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ [(١)] » وإخباره عليه السلام : أن أحدنا لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ نصف مد من أحد من الصحابة رضى الله عنهم .

* قال أبو محمد *] وبهذا قطعنا [على] أن كل عمل عمله الصحابة [(٢)] بعد موت النبي ﷺ ، لا يوازي شيئاً من (عمل) البر عمله ذلك الصاحب [بـ] نفسـه مع رسول الله [(٣)] ﷺ ، ولا ما عمله غير ذلك الصاحب [أيضاً] مع [(٤)] النبي ﷺ . ولو كان غـير ما نقول [(٥)] ، لجاز أن يكون أنسٌ وأبو أمامة الباهلي وعبد الله بن أبي أوفى وعبد الله بن بسر وعبد الله بن الحارث بن جزء وسهل بن سعد [الساعدي رضى الله عنهم] ، أفضـل من أبي بكر وعمر وعثمان (وعلي) وأبي عبيدة وزيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش وسعد بن معاذ وعثمان بن مظعون وسائر السابقين من المهاجرين والأنصار (رضي الله عنهم أجمعين) لأن بعض أولئك ، عبدوا الله عز وجل بعـد موت أولئك ،

١١

(١) سورة الحديد ٥٧ الآية : ١٠

(٢) « عملوه بأنفسهم » (٣) « النبي »

(٤) « بعد » (٥) في الاصل : يقول ، والتصويب عن ط

بعضهم بعد موت بعض ، بسبعين[١] عاماً فيما[٢] بين ذلك إلى خمسين عاماً . وهذا مالا يقوله أحد يعتد به .

[* قال أبو محمد *] وبهذا قطعنا [على] أن من كان من الصحابة حين موت رسول الله ﷺ أفضل من آخر منهم ، فإن ذلك المفضول لا يلحق درجة الفاضل له حينئذ أبداً ، وإن طال عمر المفضول وتعجل موت الفاضل . وبهذا أيضاً لم نقطع على فضل أحد منهم [رضي الله عنهم] ، حاشا من ورد فيه النص [من النبي ﷺ] على[٣] من مات منهم في حياة رسول[٤] الله ﷺ ، بل نقف في هؤلاء على ما نبينه [بعد هذا] إن شاء الله تعالى .

١٢ [* قال أبو محمد *] فهذه وجوه الفضائل بالأعمال التي[٥] لا يفضل ذو عمل قط[٦] عمل فيما سواها البتة .

ثم نتيجة هذه الوجوه كلها وثمرتها ونتيجة فضل الاختصاص المجرد دون عمل أيضاً (شيئان) لا ثالث لهما [البتة] :

أحدهما إيجاب الله تعالى تعظيم الفاضل في الدنيا على المفضول[٧] فهذا الوجه يشترك فيه كل فاضل بعمل أو باختصاص مجرد بلا عمل من عرض أو جماد أو حي ناطق أو غير ناطق ، فقد[٨] أمرنا

---

(١) « بتسعين » (٢) « فما » (٣) « ممن » (٤) « النبي »

(٥) في الاصل : الذي ، والتصويب عن ط (٦) « ذا »

(٧) في الاصل : المفضل : والتصويب عن ط (٨) « وقد »

الله تعالى بتعظيم الكعبة والمساجد ويوم الجمعة وشهر رمضان والأشهر[١] الحرم وناقة صالح وإبراهيم ابن النبي ﷺ[٢] وذكر الله (تعالى) والملائكة والنبيين صلى الله عليهم أجمعين[٣] والصحابة أكثر من تعظيمنا وتوقيرنا غير ما ذكرنا [و] من ذكرنا من المواضع [والأيام] والنوق والأطفال والكلام والناس . هذا ما لا شك فيه وهذه[٤] خاصة كل فضل وكل فاضل ، لا يخلو منها فاضل أصلاً ولا يكون البتة إلا لفاضل .

والوجه الثاني : هو إيجاب الله تعالى للفاضل درجة في الجنة أعلى من درجة المفضول : إذ لا يجوز عند أحد من خلق الله تعالى (كلهم) أن يأمر بإجلال المفضول أكثر من إجلال الفاضل ولا أن يكون المفضول أعلى درجة في الجنة من الفاضل .

١٣ ولو جاز ذلك ، لبطل الفضل جملة ولكان فضلاً[٥] لا حقيقة له ولا معنى تحته[٦] . وهذا الوجه الثاني الذي هو علو الدرجة في الجنة هو خاصة [ل] كل فاضل بعمل فقط من الملائكة والجن والإنس[٧] [وبالله تعالى التوفيق .

---

(١) « والشهر الحرام وشهر رمضان » (٢) « رسول الله »

(٣) « على جميعهم صلوات الله وسلامه » (٤) « هذا »

(٥) « لفظا » (٦) « تحية » (٧) « ولانس والجن »

* قال أبو محمد *] وكل[1] مأمور بتعظيمه فاضل، وكل فاضل فمأمور بتعظيمه . وليس البر والإحسان[2] والتوقير والتذلل المفترض في الأبوين الكافرين من التعظيم في شيء، فقد يحسن المرء إلى من لا يعظم ولا يهين : كإحسان المرء إلى جاره وغلامه وأجيره ولا يكون ذلك تعظيماً ؛ وقد يبر الإنسان جاره والشيخ [من أكرته] ولا يسمى ذلك تعظيماً ؛ وقد يوقر الإنسان من يخاف ضره ولا يسمى ذلك تعظيماً ، وقد يتذلل المرء[3] للمسلط الظالم ولا يسمى ذلك تعظيما . وفرض على كل مسلم البراءة من أبويه الكافرين وعداوتهما في الله تعالى[4] . قال الله عز وجل : « لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ وَرَسولَهُ وَلَوْ كانوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْنـاءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشيرَتَهُمْ ، أُولئِكَ كَتَبَ في قُلوبِهِمُ الْإيمانَ [وَأَيَّدَهُمْ بِروحٍ مِنْهُ[5]] » وقال تعالى[6] « قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إِبْراهيمَ

---

(١) « فكل » (٢) « الاحسان والبر » وفي الأصل والحسان

(٣) « الإنسان للمتسلط » . (٤) « عز وجل »

(٥) سورة المجادلة (٥٨) الآية : ٢٢

(٦) هنا في الأصل : لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ولقد كان لكم في إبراهيم الخ وهو تحريف وزيادة من الناسخ .

١٤ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بيننا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً [حَتّى تُؤْمِنوا بِاللهِ وَحْدَهُ] (إِلاّ[1] قَوْلَ إِبراهيمَ لِأَبيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ)[2] » وقال تعالى[3] : « وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبراهيمَ لِأَبيهِ إِلاّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيّاهُ فَلَمّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ [إِنَّ إِبراهيمَ لَأَوّاهٌ حَليمٌ[4]] »

فصح يقيناً[5] : أن ما وجب للأبوين الكافرين من بر وإحسان وتذلل ، ليس هو التعظيم الواجب لمن فضله الله تعالى لكن[6] التعظيم هو مودة في الله ومحبة [فيه] وولاية له . وأما البر الواجب للأبوين الكافرين والتذلل لهما والإحسان إليهما ، فكل ذلك مرتبط بالعداوة في الله تعالى والبراءة[7] منه وإسقاط المودة كما قال [الله] تعالى في نص القرآن [وبالله تعالى التوفيق] .

* قال أبو محمد * وقد يكون دخول الجنة اختصاصاً مجرداً دون عمل ، وذلك للأطفال كما ذكرنا قبل .

---

(١) « إلى » (٢) سورة الممتحنة ٦٠ الآية ٤

(٣) « عز وجل » (٤) سورة التوبة (٩) الآية ١١٥

(٥) « فقد صح بيقين » (٦) « عز وجل لأن » وهو أوجه

(٧) « لله تعالى والبراءة » هذا ولا مرجع للضمير المذكر في (منه) والسياق : أن يقول (منهما)

الباب الثاني

[فضل أزواج النبي ﷺ على سائر الصحابة]

فإذا [قد] صح (كل) ما ذكرنا قبل يقيناً بلا خلاف من أحد في شيء، فبيقين نعلم[1] : أنه لا تعظيم يستحقه أحد من الناس في الدنيا بإيجاب الله تعالى ذلك علينا بعد التعظيم الواجب علينا للأنبياء عليهم السلام : [أوجب] ولا أوكد مما ألزمناه الله تعالى من التعظيم الواجب علينا لنساء رسول[2] الله ﷺ بقول الله تعالى : « اَلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ[3] » فأوجب الله تعالى لهن حكم الأمومة على كل مسلم . هذا سوى حق إعظامهن بالصحبة لرسول الله ﷺ فلهن [رضي الله تعالى عنهن مع ذلك] حق الصحبة [له] كسائر الصحابة ؛ إلا أن لهن من الاختصاص في الصحبة ووكيد الملازمة له [عليه السلام] ولطف المنزلة معه[4] [والقرب منه] والحظوة لديه ما ليس لأحد

(١) « ندري » (٢) « النبي »
(٣) سورة الأحزاب ٣٣ الآية : ٦ (٤) « عنده عليه السلام »

من الصحابة [رضي الله عنهم فهن أعلى درجة في الصحبــة من جميع الصحابة] . ثم فضلن جماعة [١] الصحابة لحق زائد وهو حق الأمومة الواجبة [٢] لهن كاهن بنص القرآن . فوجدنا الحق الذي به استحق الصحابة الفضل قد شركنهم فيه وفضلنهم [فيه أيضاً] ثم فضلنهم بحق (آخر) زائد وهو حق الأُمومة [٣] . ثم وجدناهن لاعمل من الصلاة والصدقة والصيام والحج وحضور الجهاد يسبق فيه صاحب من الصحابــة إلا [كان فيهن] (ولهن في ذلك مثل مالغيرهن من الصحــابة) فقد كن يجهدن أنفسهن على [٤] ضيق عيشهن على الكد في العمل بالصدقــة والعتق ويشهدن الجهاد معه ﷺ [٥] . وفي هذا كفاية بينة في أنهن أفضل من كل صاحب [٦] . ثم لاشك عند كل مسلم بشهادة نص القرآن ، إذ خيرهن الله تعالى بين الدنيا وبين [ا] دار الآخرة والله ورسوله ، فاخترن الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخرة ؛ فهن أزواجه في الآخرة بيقين ، فإذ هن كذلك فهن معه [ﷺ] بلا شك في درجة واحدة في الجنة في قصوره وعلى سرره . إذ لا يمكن البتة أن يحال بينه

١٦

(١) « : سائر »   (٢) « الأمومية الواجب »

(٣) « الامومية »   (٤) « في »   (٥) « عليه السلام »

(٦) في الاصل : من صاحب

وبينهن في الجنة ولا أن ينحط عليه السلام إلى درجة يسفل فيها عن أحدٍ من الصحابة هذا ما [لا] يظنه مسلم . فإذ لا شك في حصولهن (معه) على هذه المنزلة [ف] بالنص والإجماع ، علمنا أنهن لم يؤتين[١] ذلك اختصاصاً مجرداً دون عمل ، بل باستحقاقهن لذلك باختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ؛ إذ أمره الله تعالى[٢] أن يخيرهن [فاخترن الله عز وجل] (فقد[٣] حصل لهن أفضل الاختصاص أولاً بأن يخيرهن) الله تعالى لنبيه[٤] ﷺ وهو أفضل الناس ، ثم قد حصل لهن أفضل الأعمال من[٥] جميع الوجوه السبعة التي قدمنا آنفاً التي[٦] لا يكون التفاضل إلا بها في الأعمال خاصية مما[٧] قد حصل لهن على ذلك أوكد التعظيم في الدنيا ، ثم قد حصل لهن أرفع الدرجات في الآخرة . فلا وجه من وجوه الفضل إلا ولهن فيه أعلى الحظوظ كلها بلا شك .

ومارية أم إبراهيم داخلة معهن في ذلك لأنها (داخلة) معه عليه السلام في الجنة ومع ابنها معه[٨] بلا شك .

---

(١) في الاصل : لن يتن والتصحيح عن ط

(٢) « عز وجل » (٣) « ثم قد » (٤) « ونبيه »

(٥) « في » (٦) « أنه » (٧) « ثم » (٨) « منه »

فإذ قد ثبت كل ذلك على رغم الأبي ، [فـ] قد وجب

١٧ ضرورة : أن يشهد لهن كلهن : بأنهن أفضل من جميع الخلق

كلهم بعد الملائكة والنبيين [عليهم السلام] . فكيف ومعنا نص

من النبي ﷺ كما حدثنا أحمد بن محمد [بن عبد الله] الطلمنكي

حدثنا محمد بن أحمد بن مفرج حدثنا محمد بن أيوب البرقي [١]

حدثنا أحمد بن عمرو بن عبد الخالق [البزاز] حدثنا أحمد بن

عبدة [٢] حدثنا المعتمر بن سليمان حدثنا حميد الطويل عن أنس [بن

مالك] قال : « قيل يارسول الله ، من أحب الناس إليك ؟ » قال:

« عائشة » قال : « [فـ] من الرجال ؟ » قال : « أبوها (إذاً) » وذكرنا

بإسناد له [٣] عن أبي عثمان النهدى قال : أخبرني عمرو بن العاص

« أن رسول الله ﷺ بعثه إلى جيش ذات السلاسل ، قال ،

فأتيته فقلت : « أي الناس أحب إليك ؟ » فقال : « عائشة »

فقلت : « من الرجال ؟ » قال « أبوها » قلت « ثم من ؟ »

قال : « عمر » فعدّ (د) رجالاً . فهذان عدلان أنس وعمرو ،

---

(١) « الرقي الصموت » (٢) « عمرو »

(٣) في ط ذكر السند وهو : حدثنا عبد الله بن يوسف بن نامي قال حدثنا أحمد بن فتح ، حدثنا عبد الوهاب بن قيس ، حدثنا أحمد بن محمد الأشقر حدثنا أحمد بن علي القلانسي ثنا مسلم بن الحجاج ثنا يحيى بن يحيى ابن خالد بن عبد الله هو الطحان عن خالد الحذاء عن أبي عثمان النهدي الخ

يشهدان رسول الله ﷺ أخبر (هما) [بـ] أن عائشـة أحب الناس إليه ثم أبوها . وقد قال الله تعالى :[١] « وَمَـا يَنْطِقُ عَنِ الْهوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى »[٢] فصح أن كلامه عليه السلام بإنها[٣] أحب الناس إليه ، وحي أوحاه الله تعالى إليه ليكون كذلك ، ويخبر بذلك لاعن هوىً له : ومن ظن ذلك فقـد كذب الله تعالى . لكن لاستحقاقها لذلك بالفضل[٤] في الدين والتقدم فيه على جميع الناس ، الموجب لأن يحبها رسول الله صلى الله عليه (وسلم) أكثر من محبته لجميع الناس ، فقد فضلهـا رسول الله ﷺ على أبيها وعلى عمر وعلى[٥] علي وفاطمة تفضيلا ظاهراً بلا شك .

١٨

فإن قال قائل [فقل] : إن إبراهيم ابن النبي ﷺ أفضـل من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي [رضي الله عنهم] لكونه مع أبيه [عليه السلام] في درجة واحدة في الجنة .» قلنا [له وبالله تعالى التوفيق]: إن إبراهيم ابن النبي[٦] ﷺ لم يستحق[٧] تلك المنزلة بعمل كان منه وإنما هو اختصاص مجرد ، وإنما تقع المفـاضلة بين الفاضلين إذا كان فضلهما [واحداً] من وجه واحد ، فتفاضلا فيه ،

(١) « عز وجل » (٢) سورة النجم ٥٢ الآيتان : ٣-٤
(٣) « أنها » (٤) « الفضل » (٥) « على وعلي » وهي زيادة خطأ
(٦) « رسول الله » (٧) « ما استحق »

وأما إن كان الفضل من وجهين اثنين فلا سبيل إلى المفاضلة بينهما، لأن معنى قول القائل : أي هذين أفضل ؟ إنما هو : أي هذين أكثر أوصافاً في الباب الذي اشتركا فيه ؟ ألا ترى أنه لا يقال : أيهما أفضل رمضان أو ناقة صالح ؟ ولا : أيهما أفضل الكعبة أو الصلاة ؟ لكن [١] نقول : أيهما [٢] أفضل مكة أو المدينة ؟ وأيهما [٢] أفضل رمضان أو ذو الحجة ؟ وأيهما [٢] أفضل الصلاة أو الزكاة ؟ وأيهما [٢] أفضل ناقة صالح أو ناقة غيره من النبيين ؟ فقد صح أن التفاضل إنما يكون في وجه يشترك [٣] فيه المسئول عنهما فيسبق [٤] أحدهما [فيه] فاستحق أن يكون أفضل . وفضل إبراهيم ليس عن [٥] عمل أصلاً ، وإنما هو اختصاص مجرد وإكرام لأبيه ﷺ .

١٩ وأما نساؤه عليه السلام فكونهن وكون سائر الصحابة عليهم السلام في الجنة ، إنما هو جزاء لهن ولهم عَلَى [أعمالهن و] أعمالهم قال الله (تعالى) [بعد ذكر الصحابة رضي الله عنهم] « جَزَاءً بِمَا كانوا يَعْمَلُونَ » [٦] وقال (سبحانه) بعد ذكر الصحابة:

---

(١) « بل » (٢) في الأصل : أيما . والتصحيح عن ط

(٣) « اشترك » (٤) في الاصل : فيوفيه (٥) « على »

(٦) سورة السجدة (٣٢) الآية : ١٧

« وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً »[١] وقال تعالى مخاطباً لنسائه عليه (الصلاة) والسلام : « وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ »[٢] وهذا نص قولنا ولله الحمد . وقال تعالى : « وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »[٣] وقال تعالى :« غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ »[٤] وقال تعالى : « وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إِلاَّ ما سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ . ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفَىٰ »[٥] .

فإن قال قائل : [ف] كيف تقولون في قوله عليه السلام : « لن يدخل أحد الجنة[٦] بعمله » قالوا[٧] « ولا أنت يا رسول الله ؟ » قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمته[٨] » قلنا : نعم هذا [حق] موافق للآيات المذكورة ، وهكذا نقول : إنه

---

(١) سورة الأحزاب (٣٣) الآية : ٣٥

(٢) سورة الاحزاب (٣٣) الآية : ٣١

(٣) سورة الزخرف (٤٣) الآية : ٧٢

(٤) سورة الزمر (٣٩) الآية : ٢٠

(٥) سورة النجم (٥٣) الآيات : ٣٩ — ٤١

(٦) « الجنة أحد » (٧) « قيل » (٨) « برحمة منه وفضل »

لو عمل الإنسان دهره كله ما استحق على الله [تعالى] شيئاً ، إنه لا يجب على الله شيء ، إذ لا موجب للأشياء الواجبة غيره تعالى ، لأنه المبتدي لكل ما في العالم والخلق[١] له ، فلولا أن الله تعالى يرحم[٢] عباده فحكم بأن طاعتهم له يعطيهم بها الجنة ، لما وجب ذلك [عليه] . فصح أنه لا يدخل الجنة بعمله مجرداً دون رحمة الله تعالى ، لكن يدخلها برحمة الله التي جعل بها الجنة جزاء على أعمالهم التي أطاعوه بها . فاتفقت الأحاديث والآيات[٣] والحمد لله [رب العالمين .

٢٠

* قال أبو محمد *] فإذ لا شك في هذا كله فقد امتنع يقيناً أن يجازى بالأفضل من كان أنقص فضلاً ، وأن يجازى بالأنقص من كان أتم فضلاً . وصح ضرورة أنه لا يجزى أحد من أهل الأعمال في الجنة إلا بما استحقه برحمة الله تعالى جزاءً على أعماله[٤] (وأما من لم تكن الجنة له جزاء على عمل) ، فلله[٥] تعالى أن يتفضل على من شاء بما شاء وجائز أن يقدم على ذوي الأعمال الرفيعة (غيرهم) قال تعالى « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ[٦] » وقال تعالى « ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ[٧] » فلا يجوز خلاف هذه

---

(١) « الخالق » وهو أظهر (٢) « رحم » .

(٣) « الآيات مع هذا الحديث » (٤) « عمله » (٥) « ولله »

(٦) سورة البقرة (٢) الآية : ١٠٥ (٧) سورة المائدة ٥ الآية ٥٧

النصوص لأحد، لأن من خالفها كذب القرآن . ولولا هذه النصوص لما أبعدنا أن يعذب الله تعالى على الطاعة له، وأن ينعم على معصيته، وأن يجازي الأفضل بالأنقص، والأنقص بالأفضل، لأن كل شيء خلقه وملكه[١] لا مالك لشيء سواه ولا معقب، ولا حق لأحد عليه . لكن قد أمنا ذلك كله بإخبار الله تعالى: أنه لا يجازي ذا عمل إلا بعمله وأن[٢] يتفضل على من يشاء فلزم الإقرار بكل ذلك وبالله (تعالى) التوفيق .

فلو قال قائل أيهما أفضل في الجنة وأعلى قدرا: مكان إبراهيم من رسول الله ﷺ أو مكان أبي بكر وعمر وعثمان وعلي [رضى الله عنهم]؟ قلنا مكان إبراهيم [أعلى] بلا شك، ولكن ذلك المكان اختصاص مجرد لإبراهيم المذكور لم يستحقه بعمل ولا استحق أيضاً أن يقصر به عنه . ومواضع[٣] هؤلاء المذكورين جزاء لهم على قدر فضلهم وسوابقهم . وكذلك نساؤه [ﷺ] مكانهن أيضاً جزاء لهن على قدر سوابقهن وفضلهن[٤] . فلا يقال: إن إبراهيم ابن رسول الله ﷺ أفضل من أبي بكر [أ) وعمر، ولا يقال أيضاً: إن أبا بكر وعمر أفضل من إبراهيم (ابن رسول الله ﷺ).

٢١

(١) «ملكه وخلقه» (٢) «أنه» .

(٣) «ومواضيع» (٤) «فضلهن وسوابقهن»

والمفاضلة واقعة بين الصحابة وبين نساء رسول الله ﷺ لأن أعمالهم وسوابقهم لها مراتب متناسبة بلا شك . فإن قيل[١] : إنهن لو لا رسول الله ﷺ لما[٢] حصلن في تلك الدرجة وإنما تلك الدرجة له [عليه السلام] . قلنا [وبالله تعالى التوفيق] : نعم ، ولا شك أيضاً في أن جميع الصحابة لولا رسول الله ﷺ (كما قلتم) ما حصلوا أيضاً على الدرج التي[٣] هم فيها ، فإنما هي إذاً على قولكم لرسول الله ﷺ كما قلتم . ولا فرق ، وبقي الفضل والتقديم[٤] لهن كما كان ذلك ولا فرق .

[فضل أزواج النبي ﷺ على بناته]

[* قال أبو محمد *] فأما[٥] فضلهن على بنات رسول[٦] الله ﷺ فبيِّن بنص القرآن لا إشكال[٧] فيه ، قال الله تعالى[٨] : « يَا نِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ ٱلنِّسَاءِ [إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ] »[٩] فهذا بيان قاطع لا يسع أحداً جهله[١٠] . فإن عارضنا معارض بقول

---

(١) « قال قائل » (٢) « ما »

(٣) في الأصل : الذي ، والتصحيح عن ط

(٤) « التقدم » (٥) « وأما » (٦) « النبي »

(٧) « شك » (٨) عزوجل

(٩) سورة الأحزاب (٣٣) الآية : ٣٢

(١٠) في الأصل : أحد والتصحيح عن ط

النبي ﷺ : « خير نسائها فاطمة بنت محمد (ﷺ) » قلنا له وبالله [تعالى] التوفيق : في هذا الحديث بيان جلي لما قلنا و [هو] أنه عليه السلام لم يقل : خير النساء فاطمة ، وإنما قال : « خير نسائها » نخص ولم يعم ، وتفضيل الله تعالى[١] نساء النبي ﷺ [على النساء] عموم لا خصوص ، لا يجوز أن يستثنى منه أحد إلا من استثناه نص آخر . فصح أنه [عليه السلام] إنما فضل فاطمة على نساء المؤمنين بعد نسائه [ﷺ] فاتفقت الآية مع الحديث .

وقال عليه السلام : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » فهذا أيضاً عموم موافق للآية . ووجب أن يستثنى ما خصه النبي ﷺ بقوله « نسائها » من هذا العموم .

وصح أن نساءه عليه السلام أفضل النساء جملة ، حاشا اللواتي خصهن الله تعالى بالنبوة كأم إسحق وأم موسى وأم عيسى عليهم السلام . وقد نص الله تعالى على هذا بقوله الصادق : « يا مَرْيَمُ إنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ [وَاصْطَفَاكِ] عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ »[٢] ولا خلاف بين المسلمين في أن جميع الأنبياء (صلى الله عليهم أجمعين أن) كل نبي منهم أفضل ممن ليس نبياً[٣]

---

(١) « عز وجل لنساء » (٢) سورة آل عمران (٣) ٤٢

(٣) « بنبي »

من سائر الناس ، ومن خالف هذا فقد كفر . وكذلك أخبر عليه السلام فاطمة : أنها سيدة نساء المؤمنين . ولم يدخل نفسه عليه السلام[١] في هذه الجملة بل أخبر عمن سواه .

٢٢

وبرهان آخر وهو قول الله تعالى مخاطباً لهن : « وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ »[٢]

* قال أبو محمد * فهذا فضل ظاهر وبيان لائح [في] أنهن أفضل من جميع الصحابة [رضى الله عنهم] و (صح) بهذه الآية صحة متيقنة لا يمتري فيها مسلم : أن[٣] أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وفاطمة وسائر الصحابة [رضى الله عنهم] ، إذا عمل الواحد منهم عملاً يستحق [عليه] مقداراً من الأجر ، وإذا عملت امرأة من نساء النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك العمل بعينه ، كان لها مثل ذلك المقدار من الأجر (مرتين) فإذا كان نصيف الصحابي وفاطمة (رضى الله عنهم) يفي بأكثر من مثل أحد ذهباً ممن بعدهم[٤] ، كان للمرأة من نسائه [عليه السلام] في نصيفها أكثر من مثل جبلين اثنين مثل أحد ذهباً . وهذه فضيلة ليست لأحد بعد الأنبياء [عليهم السلام] إلا لهن[٥] . وقد صح (ذلك) عن النبي صلى الله عليه وسلم :

٢٣

---

(١) « صلى الله عليه وسلم » (٢) سورة الأحزاب (٣٣) الآية : ٣١
(٣) « فأبو بكر » (٤) « بعده » (٥) « هن »

أنه يوعك كوعك رجلين من أصحابه ، لأن له على ذلك كفلين من الأجر .

[* قال أبو محمد *] وليس بعد هذا في بيان[١] فضلهن على كل أحد من الصحابة (ممترى) إلا من أعمى الله قلبه عن الحق ونعوذ بالله تعالى من الخذلان .

[رد اعتراض]

[* قال أبو محمد *] وقد اعترض علينا بعض أصحابنا في هذا المكان بقول الله تعالى عن أهل الكتاب إذا[٢] آمنوا « أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا[٣] » قال : فيلزم أنهم أفضل منا . فقلت له : إن هذه الآية والخبر الذي فيه : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : فذكر مؤمن أهل الكتاب والعبد الناصح ومعتق الأمة[٤] ثم يتزوجها » فيهما بيان الوجه الذي به[٥] أجروا مرتين وهو الإيمان بالنبي ﷺ وبالنبي الأول المبعوث بالكتاب الأول ، ونحن نؤمن بهذا كله كما آمنوا فنحن شركاء ذلك المؤمن منهم في ذينك الإيمانين . و كذلك العبد الناصح يؤجر بطاعة[٦] سيده أجراً

(١) « بيان في » (٢) « إذ »

(٣) سورة القصص ٢٨ الآية : ٥٤

(٤) « أمته » . (٥) « أجروا به » (٦) « لطاعته »

ولطاعة الله تعالى أجراً ثانياً ، وكذلك معتق أمته ثم يتزوجها يوجر على عتقه أجراً ثم على نكاحه إذا أراد به وجه الله تعالى أجراً ثانياً فصح النص[1] يقيناً أن هؤلاء إنما يؤتون أجرهم مرتين في خاص من أعمالهم ، لا في جميع أعمالهم . وليس في هذا مايمنع [من] أن يوجر غيرهم في غير هذه الأعمال أكثر من أجور هؤلاء وأيضاً فإنما يضاعف لهؤلاء على ماعمله أهل طبقتهم . وليست المضاعفة لأجور نساء النبي ﷺ مرتين ، من هذا في ورد ولا في صدر ، لأن المضاعفة لهن إنما هي في كل عمل عملنه بنص القرآن ، إذ يقول سبحانه وتعالى : « وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ [صالِحاً[2]] نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ[3] » فكل عمل عمله صاحب من الصحابة له فيه أجر ، فلكل امرأة منهن في مثل ذلك العمل أجران . والمضاعفة لهن إنما يكون على ماعمله طبقتهن من الصحابة . وقد علمنا أن بين عمل الصاحب وعمل غيره أعظم مما بين أحد ذهباً ونصف مد شعير ، فيقع لكل واحدة منهن مثلا ذلك مرتين . وهذا لايخفى على ذي حس سليم ، فبطلت المعارضة التي ذكرنا والحمد لله رب العالمين

---

(١) « بالنص » (٢) في الاصل : عملاً نؤتها

(٣) سورة الاحزاب (٣٣) الآية : ٣١

[رد اعتراض]

[* قال أبو محمد *] واعترض علينا [أيضاً] بعض الناس في الحديث الذى فيه : « أن عائشة أحب النـاس إليه ومن الرجال أبوها » بأن قال : قد صح عن النبي ﷺ أنه قال لأسامة بن زيد : « إن أباه أحب الناس إليّ وإن هذا أحب الناس إليّ من بعده » وصح أن النبي ﷺ قال للأنصار : « إنكم أحب الناس إليّ » .

قال أبو محمد : [و] أما هذا اللفظ [الذي] في حديث أسامة [بن زيد] إنه أحب النـاس إليه [عليه السلام] فقد روي من طريق حماد بن سلمة عن موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه ، وأما الذي فيه ذكر أسامة وزيد [رضي الله عنهما] فإنما رواه عمرو بن حمزة عن سالم بن عبد الله عن أبيه ، وعمرو بن حمزة هذا ضعيف . والصحيح من هذا الخبر هو ما رواه عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبي ﷺ بإسناد لا مغمز فيه فذكر فيه أنه ﷺ[1] قال [يعني لـ][2] زيد بن حارثة : « وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إليّ ، وإن هذا لمن[3] أحب الناس إليّ بعده » وهذا يقضي على حديث موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه لأنه يختصه[4] من حديث عبد الله بن دينار . وبهذا

---

(١) « عليه السلام » (٢) في الاصل : لعلي بن (٣) « من »
(٤) « مختصر » .

يـنتفي التعارض بين الروايتين عن ابن عمرو [عن] أنس و(عن) عمرو ؛ وإلا فليس أحدهما أولى من الآخر . وأما حديث الأنصار فرواه كما ذكروا هشام بن زيد عن أنس ، ورواه عبد العزيز بن صهيب عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أنتم من أحب الناس إليّ » وهذا[1] حديث واحد وزيادة العدل مقبولة . فصح بزيادة من في (هذا) الحديث من طريق العدول أن الأنصار وزيداً وأسامة [رضي الله عنهم] من جملة قوم هم أحب الناس إلى رسول الله ﷺ . وهذا حق لاشك[2] فيه لأنهم من أصحابه، وأصحابه أحب الناس إليه بلا شك . وليس هذا[3] جوابه (عليه السلام) في عائشة [رضي الله عنها] إذ سئل : « من أحب الناس إليك ؟ » فقال: « عائشة » فقيل : « من الرجال ؟ » فقال: « أبوها » لأن هذا قطع على بيان ما سأل عنه السائل من معرفة من المنفرد[4] البائن عن الناس بمحبته عليه السلام . واعترض علينا بعض الأشعرية بأن قال : إن الله تعالى يقول : « إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ [وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ[5]] » فصح أن محبته عليه [السلام لمن أحب] ليس فضلاً لأنه قد أحب عمه وهو كافر .

٢٦

---

(١) « وهو » (٢) « يشك » (٣) « هكذا » (٤) في الاصل : المنفرد ، والتصحيح عن ط (٥) سورة القصص (٢٨) الآية : ٥٦

* قال أبو محمد * قلنا[١] إن هذه ليست على ظاهرها، وإنما مراد الله تعالى « إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ »[٢] [أي أحببت] هداه، برهان ذلك قوله تعالى « وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ »[٢] أي من يشاء هداه. وفرض على النبي ﷺ وعلينا أن نحب الهدى لكل كافر، لا أن نحب الكافر. وأيضاً فلو صح أن معنى الآية من أحببته[٣] كما ظن [هذا] المعترض لما كان علينا بذلك حجة، لأن هذه آية مكية نزلت في أبي طالب (بمكة)، ثم أنزل الله تعالى بالمدينة[٤] « لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ »[٥] وأنزل الله تعالى (أيضاً) في المدينة: « قَدْ[٦] كَانَ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَحْدَهُ »[٧] وإن كان رسول الله ﷺ أحب أبا طالب، فقد حرم الله تعالى

٢٧

---

(١) « فقلنا » (٢) سورة القصص (٢٨) الآية: ٥٦

(٣) « أحببت » (٤) « في المدينة »

(٥) سورة المجادلة (٥٨) الآية: ٢٢ (٦) « لقد » وهو خطأ

(٧) سورة الممتحنة (٦٠) الآية: ٤

(ذلك) عليه بعد ذلك ونهاه عن محبته وافترض عليه عداوته .
وبالضرورة يدري كل [ذي] حس [سليم] أن العداوة والمحبة
لا يجتمعان أصلاً ، والمودة هي المحبة في اللغة التي بها نزل القرآن
بلا خلاف من [أحد من] أهل اللغة ، فقد بطل أن يحب النبي
أحداً غير مؤمن . وقد صحت النصوص والإجماع على
أن محبته رسول الله ﷺ من أحب فضيلة ، و كذلك[1] قوله عليه
السلام لعلي (رضى الله عنه) : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله
ورسوله ويحبه الله ورسوله » فإذ لا شك ولا خلاف في أن محبة
رسول الله ﷺ بخلاف ما قال أهل الجهل والكذب ، فقد صح
يقيناً أن كل من كان أتم حظاً في الفضيلة فهو أفضل ممن هو أقل
حظا في تلك الفضيلة ، [و] هذا شيء يعلم ضرورة . فإذا كانت
عائشة أتم حظاً في المحبة التي هي [أتم] فضيلة فهي أفضل ممن[2]
حظه في ذلك أقل من حظها . ولذلك لما قيل له عليه السلام :
« من الرجال ؟ » قال : « أبوها ثم عمر » فكان ذلك موجباً بفضل[3]
أبي بكر ثم عمر على سائر الصحابة [رضي الله عنهم] فالحكم باطل[4]
لا يجوز في أن يكون تقدم[5] أبي بكر ثم عمر في الفضل من أجل

٢٨

(١) « وذلك كقوله »
(٢) في الأصل : من ، والتصحيح عن ط (٣) « لفضل »
(٤) « بالباطل » (٥) « يقدم أبو بكر » والجملة بعد ، غير واضحة

تقديمهما في المحبـة عليهما وما نعلم[١] أيضاً في وجوب القول بتقديم أبي بكر ثم عمر على سائر الصحابة إلا هذا الخبر وحده .

(ومن الآيات التي قطع الله بها محبة المؤمن للكافر قوله عز وجل : « يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ[٢] » ولا خلاف في اللغة في أن المودة هي المحبة قال الله تعـالى « ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ[٣] » فحرم الله تعالى محبة المؤمن للكافر جملة[٤])

[* قال أبو محمد *] وقد نص النبي ﷺ على ما ينـكح له[٥] النساء فذكر الحسب والمال والجمال [والدين] ونهى ﷺ عن ذلك بقوله عليه السلام « عليك بذات الدين تربت يداك » فمن المحال الممتنع أن يكون (عليه السلام) يحض على نكاح النساء واختيارهن للدين فقط ثم يكون هو ﷺ يخـالف ذلك فيحب عائشة لغير الدين .

٢٩

---

(١) نعلم « نصاً »

(٢) سورة الممتحنة (٦٠) الآية : ١

(٣) سورة آل عمران (٣) الآية : ١١٩

(٤) هذه الاسطر بين القوسين ناقصة في ط .

(٥) « من النساء » وهو خطأ .

وكذلك قوله عليه السلام : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » لا يحل لمسلم أن يظن في ذلك شيئاً غير الفضل عند الله عز وجل[1] في الدين ، فوصف الرجل امرأته للرجال لا يرضى به إلا خسيس نذل ساقط . ولا يحل لمن له أدنى مسكة [من] عقل أن يمر هـذا بباله عن فاضل من الناس ، فكيف عن المقدس (الطاهر) المطهر البائن فضله عَلَى جميع الناس [ﷺ] .

* قال أبو محمد *] ولولا أنه بلغنا عن بعض من يتصدر[2] للشر العلم من أهل زماننا ، وهو المهلب بن أبي صفرة التميمي صاحب عبد الله بن إبراهيم الأصيلي[3] : أنه أشار إلى هذا المعنى القبيح وصرح به ، ما انطلق لنا بالإيماء إليه لسان . ولكن المنكر إذا ظهر وجب على (كل) المسلمين تغييره [فرضاً] على حسب طاقتهم [وحسبنا الله ونعم الوكيل .

* قال أبو محمد *] وكذلك عرض الملك لها [رضي الله عنها] على رسول الله ﷺ قبل ولادتها (مرتين) في سرقة من حرير يقول له : « هذه زوجك[4] » فيقول [عليه السلام] : « إن يكن من عند الله يمضه » فهل بعد هذا في الفضل غاية .

---

(١) « تعالى » (٢) « يصدر » (٣) في الأصل (الأصيل) والتصحيح عن قاموس الأعلام (٤) « زوجتك »

[رد اعتراض]

[* قال ابو محمد *]واعترض علينا مكي بن أبي طالب [المقري] فقال[١] : يلزم من[٢] هذا أن تكون امرأة أبي بكر [أفضل من علي لأن امرأة أبي بكر] مع أبي بكر في الجنة في درجة واحدة وهي أعلى من درجة علي ، فمنزلة [امرأة] أبي بكر أعلى من منزلة علي [فهي أفضل من علي .

* قال أبو محمد *]فأجبناه بأن قلنا له [وبالله تعالى نتأيد] إن هذا الاعتراض ليس بشيء لوجوه : أحدها أن ما بين درجة أبي بكر ودرجة علي في الفضل الموجب لعلو درجته في الجنة على درجة علي ، ليست من التباين بحيث هو مابين درجة النبي ﷺ وبين درجة أبي بكر في الفضل الموجب لعلو درجته عليه السلام على درجات سائر أصحابه[٣] ، بل قد أيقنا أن درجة أقل رجل منا في الفضل ، أقرب نسبة من أعلى درجة لأعلى رجل من الصحابة ، من نسبة درجة أفضل الصحابة إلى درجة النبي ﷺ وأيضاً فليس بين أبي بكر وعلي من المباينة[٤] في الفضل مايوجب أن تكون امرأة أبي بكر التابعة له أفضل من علي ،

٣٠

(١) « بأن قال » (٢) « على »

(٣) « الصحابة رضي الله عنهم »

(٤) في الأصل : من المناسبة

بل منازل [المهاجرين] الأولين الذين أوذوا في سبيل الله [عز وجل] متقاربة وإن تفاضلت ، ثم كذلك أهل السوابق مشهداً مشهداً درجتهم[1] في الفضل متقاربة [وإن تفاضلت ، ثم منازل الأنصار الأولين متقاربة وإن تفاضلت ، ثم كذلك أهل السابق[2] بعد الهجرة مشهداً مشهداً درجهم متقاربة في الفضل] ثم كذلك من أسلم بعد الفتح أيضاً ويزداد الأفضل فالأفضل [من المشتركين][3] في المشاهد جزاء على ذلك فنقول إن امرأة أبي بكر المستحقة بعملها الكون معه في درجته [مثل] أم رومان لسنا [ندري] أهي أفضل أم علي ، لأنه[4] لا نص معنا في ذلك والفضل[5] لا يعرف إلا بالنص[6] وقد قال ﷺ[7] « خيركم [القرن] الذي بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » أو كما قال [عليه السلام] فجعلهم طبقات في الفضل والخير[8] فبلا[9] شك هذا[10] كذلك في الجزاء في الجنة . وإلا لكان[11] يكون الفضل لا معنى له وقد قال الله تعالى[12] « هَلْ تُجْزَوْنَ إلاّ ما

٣١

(١) « درجهم » (٢) كذا في ط ولعلها : السابقة
(٣) الذي في ط : من المشركين ، ولا معنى لها .
(٤) « لأنا » (٥) « التفضيل » (٦) « بنص »
(٧) « عليه السلام » (٨) « في الخير والفضل » (٩) « فلا »
(١٠) « هم » (١١) « فكان » (١٢) « قال عز وجل »

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »[1] وأيضاً فلسنا نشك أن المهاجرات الأوليات[2] من نساء الصحابة [رضي الله عنهم][3] في الفضائل ، ففاضلة ومفضولة وفاضل ومفضول ففيهن من يفضل كثيراً من الرجال [وفي الرجال من يفضل كثيراً منهن] وما ذكر الله تعالى منزلة من الفضل إلا وقرن النساء مع الرجال فيها كقوله [تعالى : « إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ[4] (وَٱلْمُصَدِّقِينَ وَٱلْمُصَدِّقَاتِ)[5] [الآية] حاشا الجهاد فإنه فرض على الرجال دون النساء ولسنا ننكر أن يكون لأبي [بكر] قصور ومنازل مقدمة على جميع الصحابة ، ثم يكون لمن يستأهل[6] من نسائه تلك المنزلة ، منازل في الجنة دون منازل من هو أفضل منهن من الصحابة . فقد نكح الصحابة [رضي الله عنهم] التابعيات بعد الصواحب[7] وعليهن ، فتكون تلك المنازل زائدة في فضل أزواجهن من الصحابة ، فينزلون إليهن ثم ينصرفون إلى منازلهم العالية ؛ بل قد صح هذا (أيضاً) عن النبي ﷺ وأنه قال كلاماً (ما) معناه وأكثر نصه أنه عليه السلام ، (أنه) زعيم ببيت في ربض الجنة وفي وسط الجنة وفي أعلى الجنة

---

(١) سورة النحل (٢٧) الآية ٩٠ (٢) « الأولات » وهو خطأ

(٣) كذا في ط (٤) سورة الأحزاب (٣٣) الآية ٣٥

(٥) سورة الحديد (٥٧) الآية : ١٨ (٦) « تستأهل »

(٧) « الصاحبات »

لمن فعل كذا : أمراً وصفه رسول الله ﷺ ، فصح نص ماقلنا [من] أن لمن دونه عليه السلام منازل عالية ، وأُخر متسفلة[١] عن تلك المنازل ينزلون إليها ثم يصعدون إلى الأعالي .

٣٢

وهذا يبتعد[٢] عن رسول الله ﷺ لوجهين (ضروريين) : أحدهما أن جميع نسائه [عليه السلام] لمن حق الصحبة التي يشتركن[٣] فيها جميع الصحابة وتفضيلهن فيها بقرب الخاصة فليس في نسائه عليه السلام ولا واحدة يفضلها في الصحبة[٤] التي هي فضيلتهم التي بها بانوا عمن سواهم فقط فقد[٥] كفينا (هذا) الباب .

والوجه [الثاني] أن تأخر بعض الصحابة عن بعض[٦] في بعض [الأماكن] موجود ، وإن كان ذلك المتأخر في بعض الأماكن متقدماً في مكان آخر : فقد علمنا أن بلالاً عذب في الله عز وجل مالم[٧] يعذب علي ، وأن علياً قاتل مالم يقاتل بلال[٨] ، وأن عثمان أنفق مالم ينفق بلال ولا علي ، فيكون المفضول منهم في الجملة متقدماً للذي فضله في بعض فضائله ولا سبيل (إلى) أن يوجد هذا فيما بينهم وبين النبي ﷺ ، ولا يجوز أن يتقدمه أحد من ولد آدم في شيء من الفضائل [أولها عن آخرها ولا

---

(١) «مسفلة» (٢) «مبعد» (٣) «يشتركن» والأصل فيه الصواب

(٤) « بالصحبة » (٥) « وقد » (٦) « بعضهم »

(٧) في الأصل : لا والتصويب عن ط (٨) في الأصل : بلالاً

إلى أن يلحقه لاحق في شيء من الفضائل من بني آدم ولا[1] سبيل [إلى] أن ينسفل[2] النبي ﷺ إلى درجة يوازيه فيها صاحب من أصحابه[3] فكيف [أن] يعلو عليه الصاحب ، هذا أمر تقشعر منه جلود المؤمنين . وقد استعظم أبو أيوب [رضي الله عنه] أن يسكن في غرفة على بيت يسكنه رسول الله[4] ﷺ فكيف يظن أن[5] يكون في دار الجزاء فإذا كان العالي من الصحابة في أكثر منازله ينسفل[6] أيضاً في بعضها عن صاحب آخر قد علاه في منازل أخر على قدر تفاضلهم في أعمالهم كما ذكرنا آنفاً ، فقد أخبر النبي ﷺ : أن الصائمين يُدعون من باب الرّيان ، وأن المجاهدين يدعون من باب الجهاد ، وأن المتصدقين يدعون من باب الصدقة ، وأن أبا بكر يرجو له النبي[7] ﷺ أن يدعى من [جميع] تلك الأبواب كلها وقد يجوز أن يفضل أبا بكر غيره من الصحابة في بعض تلك الوجوه ممن انفرد بباب منها ، ولا يجوز أن أحداً يجوز[8] أن يفضل رسول الله ﷺ

٣٣

(١) « فلا » (٢) في الاصل : يستعل والتصحيح عن ط
(٣) « الصحابة » (٤) « النبي » (٥) « بأن هذا » .
(٦) في الاصل : يشتغل . والتصحيح عن ط
(٧) « رسول الله »
(٨) في الأصل أحد ، وفي ط « لا يجوز أن يفضل أحد »

في شيء من أبواب البر ، فبطل هذا الاعتراض جملة والحمد لله رب العالمين .

[رد اعتراض]

واعترض علينا مكي بن أبي طالب بأن قال : إذا كان رسول الله ﷺ أفضل من موسى [عليه السلام] ومن كل واحد من الأنبياء عليهم السلام [وكان عليه السلام] أعلى درجة في الجنة من جميع الأنبياء [عليهم السلام] ، وكان نساؤه [عليه السلام] معه في درجة واحدة [1] في الجنة ؛ فدرجتها [فيها] أعلى من درجة موسى [عليه السلام] ومن درج سائر الأنبياء [عليهم السلام] فهن على هذا الحكم أفضل من موسى [عليه السلام] و (من) سائر الأنبياء [عليهم السلام] .

* قال أبو محمد * فأجبناه أن [2] هذا الأعتراض [أيضاً] لا يلزمنا ولله الحمد ، لأن الجنة دار ملك وطاعة وعلو منزلة ورئاسة واتباع من التابع للمتبوع كما قال الله [3] تعالى « وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً » وقال الله تعالى عن موسى عليه السلام « وَكَانَ عِندَ ٱللهِ وَجِيهاً » [4] وأخبر تعالى [5] عن جبريل [صلى الله عليه وسلم]

---

(١) « في درجته » (٢) « بأن » (٣) « عزوجل » سورة الدهر (٧٦) الآية : ٢٠ (٤) سورة الأحزاب (٣٣) الآية : ٦٩ (٥) « عزوجل »

فقال : « ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ [١] »
فقد علمنا أن مُلْكَ الدنيا غرور [٢] وأن ملك الجنة هو الحقيقة .
وقد أخبر ﷺ [٣] أنه رأى الأنبياء [عليهم السلام] مع أتباعهم
فالنبي معه الواحد [والاثنان] والثلاثة والنفر والجماعة . وأخبر
[عزوجل] : أن هنالك الملك الكبير والطاعة والوجاهة والأتباع
والاستئثار ، وأنما عرض الله [تعالى] علينا من الملك في الدنيا طرفاً
ليعلم به مقدار الملك الذي في دار الخلود [٤] ، كما عرض علينا من
اللذات والحرير [والديباج] والخمر والذهب والفضة والمسك والجواري
والحلي ، وأعلمنا أن هذا كله خالصة لنا هنالك . وكما صح عن
النبي ﷺ أن آخر من يدخل الجنة يز كو [٥] على أعظم ملك
عرفه في الدنيا فيتمنى مثل ملكه فيعطيه الله (تبارك و) تعالى مثل
الدنيا عشر مرات .

[* قال أبو محمد *] فلما صح ما ذكرنا وكانت الملائكة طبقة
واحدة إلا أنهم يتفاضلون فيها ، وكانت طبقة المرسلين [٦] النبيين
طبقة واحدة [والنبيون غير المرسلين طبقة واحدة لأنهم أيضاً
يتفاضلون فيها] (ومنازلهم في الدنيا في درج متقاربة إلا أنهم

---

(١) سورة التكوير ٨١ الآيتان : ٢٠، ٢١

(٢) في الأصل: غروراً (٣) «عليه السلام» (٤) « الجزاء »

(٥) في الاصل: يذ كر (٦) في الاصل : والنبيين . والتصحيح عن ط

يتفاضلون فيها) ، وكانت[1] الصحابة طبقة واحدة إلا أنهم يتفاضلون [فيها] ، فوجب بلا شك : ألا يكون أتباع الرسل من النساء والأصحاب كالمتبوعين الذين هم الرسل ، لأنه[2] بالضرورة [نعلم] أن تابع الأعلى ليس لاحقاً نظير متبوعه ، فكيف أن يكون أعلى منه ؟ كما أن التابعيات من نساء الصحابة [رضي الله عنهم] لا تلحقن نظراء أزواجهن من الصحابة إذ لسن معهم[3] في طبقة ، وإنما ينظّر بين أهل كل طبقة ومن هو في طبقته . ونساء النبي ﷺ طبقة واحدة مع الصحابة فصح التفاضل بينهم [وليس واحدة منهن ولا منهم مع الأنبياء في طبقة فلم يجز أن ينظّر بينهم] وقد أخبر النبي[4] ﷺ : أنه رأى ليلة الإسراء الأنبياء[5] (صلوات الله عليهم أجمعين) في السموات سماءً سماءً . وبالضرورة يعلم[6] أن منزلة النبي (ﷺ) الذي هو متبوع في سماء الدنيا أمر [٥] هنالك مطاع ، أعلى من منزلة التابع في السماء السابعة للنبي الذي هنالك[7] وإذ قد صحّ عن النبي ﷺ : أن كل نبي يأتي مع أمته فنحن مع نبينا [ﷺ] فإن كان ما (قد) ألزمناه مكي

٣٥

---

(١) « وكل » (٢) في الأصل : لأن

(٣) في الأصل : معهن . والتصحيح عن ط وفيها (ليس هن) عوضاً من (لسن) .

(٤) « عليه السلام » (٥) « عليهم السلام »

(٦) « نعلم » (٧) « هناك »

لازماً [لنا] فنلزمه مثل [ذلك] فينا أيضا أن يكون [1] أفضل من الأنبياء ، وهذا غير لازم لما ذكرنا من أنه لا ينظر في الفضل إلا بين من كان من أهل طبقة واحدة فمن كان منهم أعلى منزلة من الآخر كان أفضل منه بلا شك ، وليس ذلك في الطباق المختلفة . ألا ترى أن كون مالك خازن النار (ﷺ) في مكان غير مكان خازن الجنة وغير مكان جبريل [2] [لا] يحط [3] درجته عن درجة من في الجنة من الناس : الذين الملائكة جملة [4] أفضل منهم ، لأن مالكاً متبوع في النار [5] [و] مقدم مطاع مفضل بذلك على التابعين والخدم [6] في الجنة [بلا شك] فبطل هنا الشغب . ونجمع هذا الجواب باختصار (فنقول) : إن [7] الرؤساء والمتبوعين من [8] كل طبقة في الجنة أعلى [9] من التابعين لهم . ونساء النبي ﷺ وأصحابه كلهم أتباع له [عليه السلام] وجميع الأنبياء متبوعون [10] وإنما ينظر بين المتبوعين : أيهم أفضل ؟ وينظر بين الأتباع : أيهم

٣٦

---

(١) « نكون » (٢) « جبرائيل » (٣) « تحط »
(٤) في الأصل : الذين هم الملائكة وجملة . والتصحيح عن ط .
(٥) « للنار » (٦) « الخدمة » (٧) « وهو أن »
(٨) « في » (٩) في الأصل : أعنى . والتصحيح عن ط
(١٠) في الأصل : متبوعين

أفضل ؟ ويعلم الفضل بعلو درجة كل فاضل ممن[١] دونه في الفضل ولا يجوز أن ينظر بين الأتباع والمتبوعين لأن المتبوعين[٢] لا يكونون البتة أحط درجة من التابعين [وبالله تعالى التوفيق] .

فإن قال قائل : فكيف تقولون في الحور العين ؟ أهن أفضل من الناس ومن الأنبياء كما قلتم في الملائكة ؟ فجوابنا وبالله [تعالى] التوفيق : أن الفضل لا يعرف إلا ببرهان مسموع من الله تعالى في القرآن [أ] ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم نجد الله تعالى نص على فضل الحور العين كما نص على فضل الملائكة . وإنما نص (الله تعالى) [عَلَى] أنهن مطهرات حسان عرُب أتراب يجامعن ويشاركن أزواجهن في اللذات كلها ، وأنهن خلقن ليلتذ بهن المؤمنون . فإذا الأمر كذلك[٣] ، فإنما محل الحور محل من هن له فقط . (و) إن ذلك اختصاص لهن بلا عمل وتكليف ، فهن خلاف الملائكة في ذلك وبالله التوفيق .

٣٧

[* قال ابو محمد *] : ومما يؤكد قولنا قول الله تعالى « إِنَّ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى ٱلْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ[٤] » وهذا النص إذ قد صح فوجب[٥] الإقرار

(١) «من» (٢) في الاصل : لأنه في المتبوعين . والتصحيح عن ط
(٣) « هكذا » . (٤) سورة يس (٣٦) الآيتان : ٥٥ ، ٥٦
(٥) فقد وجب .

به . فلو عجزنا عن تفضيل[1] بعض أقسام هذه[2] الاعتراضات ، لما لزمنا في ذلك نقص[3] : إذ لا يجوز الاعتراض على هذا النص . فكل[4] ما صح بيقين فلا يجوز أن يعارض (إلا) بيقين آخر والبرهان لا يبطله برهان[5] . وقد أوضحنا أن الجنة دار جزاء على أعمال المكلفين ، فأعلاهم درجة أعلاهم فضلاً ، ونساء النبي ﷺ أعلى درجة [في الجنة] من جميع [الصحابة] ، فهن أفضل منهم[6] . فمن أبى هذا فليخبرنا : ما معنى الفضل عنده ؟ إذ لا بد (من) أن يكون لهذه الكلمة معنى فإن قال (قائل) لا معنى لها فقد كفانا مؤونته فإن قال (قائل) : إن لها معنى ، سألناه : ما هو ؟ فلا نجد غير ما قلنا [وبالله تعالى التوفيق] فكيف وقد أبنا[7] — بتأييد الله تعالى[8] لنا — كل ما اعترض علينا به في هذا الكتاب[9] ، ولاح الوجه في ذلك بيناً والحمد لله (رب العالمين .

[الفرق بين السيادة والفضل وكون عائشة أفضل من فاطمة]

* قال أبو محمد *) واستدركنا بياناً زائداً في قول رسول الله ﷺ

---

(١) كذا ولعلها تفنيد (٢) في الأصل : هذا (٣) « لما ألزمنا في هذا نقصاً » (٤) « وكلما » (٥) كذا في الأصل وفي ط . والسياق يقتضي أن يقال (إلا برهان) .
(٦) « منهن » وهو خطأ (٧) « أبينا » .
(٨) « عز وجل » (٩) « الباب »

[في] أن « فاطمة سيدة نساء المؤمنين » أو « نساء هذه الأمة »
فنقول وبالله التوفيق : إن الواجب مراعاة ألفاظ الحديث وإنما
ذكر النبي ﷺ[١] في هذا الحديث السيادة ولم يذكر الفضل ، ٣٨
وذكر [عليه السلام] في حديث عائشة الفضل نصاً بقوله [عليه
السلام] « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »
* قال أبو محمد * : والسيادة[٢] غير الفضل ، ولا شك (في) أن
فاطمة سيدة نساء العالمين بولادة النبي ﷺ لها فالسيادة[٢] من باب
الشرف لا من باب الفضل فلا تعارض بين الحديثين البتة [والحمد
لله رب العالمين] .

وقد قال ابن عمر [رضي الله عنهما] وهو حجة في اللغة العربية :
« كان [أبو بكر] خيراً وأفضل من معاوية ، و (قد) كان معاوية
أسود من أبي بكر » ففرق ابن عمر كما ترى بين السيادة[٢] والفضل
[والخير] . وقد علمنا أن الفضل هو الخير نفسه لأن الشيء إذا
كان خيراً من شيء [آخر] فهو أفضل منه بلا شك .

[رد اعتراض : « وليس الذكر كالأنثى »]

[* قال أبو محمد *] : وقد قال قائل ممن خالفنا[٣] في هذا[٤] :

---

(١) « عليه السلام » (٢) « السادة » وهو خطأ (٣) « يخالفنا »
(٤) في الأصل : هكذا . والتصحيح عن ط

قال الله تعالى [١] : «وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ [٢]» فقلنا (له) وبالله التوفيق : فأنت إذاً عند نفسك أفضل من مريم وعائشة وفاطمة ، لأنك ذكر وهؤلاء إناث ، فإن قال : هذا (هو) الحق (إذن) بالنوكى [٣] وكفر ، وإن [٤] سأل عن معنى الآية ؟ قيل [له] : الآية على ظاهرها ، ولا شك في أن الذكر ليس كالأنثى ولو [٥] كان كالأنثى لكان أنثى والأنثى أيضاً ليست كالذكر [لأن هذه أنثى وهذا ذكر] وليس هذا من الفضل في شيء البتة ، وكذلك الحمرة غير الخضرة ، والخضرة ليست كالحمرة ، وليس هذا من باب الفضل .

فإن اعترض [معترض] بقول الله عز [٦] وجل «وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ» [٧] قيل [له إنما] هذا في حقوق الأزواج على الزوجات ، ومن أراد حمل هذه الآية على ظاهرها لزمه أن يكون كل يهودي وكل مجوسي وكل فاسق من الرجال أفضل من أم موسى وأم إسحق وأم عيسى [٨] عليهم السلام ومن نساء النبي

(١) «عز وجل» (٢) سورة آل عمران ٣ الآية : ٣٦

(٣) في الأصل : بالنوك والتصحيح عن ط والنوكى : الحمقى (٤) «فإن»

(٥) «لأنه لو» (٦) «تعالى»

(٧) سورة البقرة (٢) الآية : ٢٢٨

(٨) «أم عيسى وأم إسحق»

ﷺ وبناته ، وهذا كفر ممن قاله بإجماع الأمة . و كذلك قول الله[1] تعالى « أَوَمَنْ يُنَشَّأُ في الحِلْيَةِ وَهُوَ في الخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ »[2] (و) إنما ذلك في تقصيرهن في الأغلب عن المحاجة لقلة دربتهن وليس في هذا ما يحط الفضل عن ذوات الفضل منهن .

[رد اعتراض : فضل أولي الامر على أمهات المؤمنين ، وأن الطاعة إنما تجب للأفضل]

فإن اعترض معترض فقال : الذين[3] أمرنا بطاعتهم من خلفاء الصحابة [رضي الله عنهم] أفضل من نساء رسول الله ﷺ بقوله تعالى « أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ »[4] فالجواب وبالله [تعالى] التوفيق : إن هذا خطأ من جهات إحداها[5] أن نساء رسول الله من جملة أولي الأمر منا الذين أمرنا بطاعتهم فيما بلغن إلينا عن رسول[6] الله ﷺ كالأئمة من الصحابة سواء [و] لا فرق . والوجه الثاني أن الخلافة ليست من قبل فضل الواحد في دينه فقط ، وجبت لمن وجبت له ، و كذلك الإمارة لأن الإمارة قد تجوز لمن غيره أفضل منه . وقد كان عمر [رضي الله عنه]

٤٠

---

(١) « قوله » (٢) سورة الزخرف ٤٣ الآية : ١٨

(٣) « الذي » وهو خطأ (٤) سورة النساء ٤ الآية : ٥٨

(٥) في الاصل : أحدهما والتصحيح من ط

(٦) « النبي »

مأموراً[١] بطاعة عمرو بن العاص إذ[٢] أمّره رسول الله ﷺ في غزوة ذات السلاسل . فبطل أن تكون الطاعة إنما تجب للأفضل فالأفضل . وقد أمر النبي ﷺ عمرو بن العاص وخالد ابن الوليد كثيراً ولم يؤمر (قط) أبا ذر ، وأبو ذر أفضل[٣] منهما بلا شك . وأيضاً فإنما وجبت طاعة الخلفاء من الصحابة في أوامرهم مذولّوا ، لا قبل ذلك . ولا خلاف في أن الولاية لم تزدهم فضلاً على ما كانوا [عليه و] إنما زادهم فضلاً عدلهم في الولاية [لا الولاية] نفسها ، وعدلهم داخل في جملة أعمالهم التي يستحقون الفضل بها . ألا ترى أن معاوية والحسن إذ وليا كانت طاعتهما واجبة على سعد[٤] بن أبي وقاص ، وسعد أفضل منهما ببون بعيد جداً ، وهو حتى معهما مأمور بطاعتهما . وكذلك القول في جابر وأنس [بن مالك] وابن عمر في وجوب (طاعة ابن الزبير عليهم ثم وجوب) طاعة عبد الملك بن مروان ، والذي بين جابر وأنس وابن عمر وبين عبد الملك في الفضل كالذي بين الظلمة والنور[٥] . فليس في وجوب طاعة الولاة ما يوجب لهم فضلاً في الجنة .

---

(١) في الأصل : مأمور (٢) في الأصل : إذا . والتصحيح عن ط

(٣) « أفضل خير » (٤) في الأصل : سعيد ، وهو خطأ .

(٥) « النور والظلمة » وهو أحسن .

[شبهة إلحاق الذرية بالآباء]

٤١ فإن اعترض معترض بقول الله تعالى « وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ[١] ذُرِّيَّتُهُم[٢] بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ[٢] وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ »[٣] فبيان اعتراضه ظاهر [في آخر الآية] وهو أن إلحاق الذرية بالآباء لا يقتضي كونهم معهم في درجة ، ولا هـذا مفهوم من نص الآية ، بل إنما فيها : إلحاقهم [بهم] فيما ساووهم فيـه بنص الآية . ثم بيّن تعالى ذلك ولم يدعنا في شك (وذلك) بقوله تعالى « كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ »[٣] فصح أن كل واحد من الآباء والأبناء يجازى بحسب ما كسب فقط . وليس حكم الأزواج كذلك ، بل أزواج النبي ﷺ معه في قصوره وعلى سرره فيتلذذ[٤] بهن ومعهن جزاءً لهن بما عملن من الخير ، وبصبرهن واختيارهن الله [تعالى] ورسوله ﷺ والدار الآخرة . وهذه منزلة لا يحلها أحد بعد النبيين [والمرسلين عليهم الصلاة والسلام] فهن أفضل من كل أحد[٥] دون الأنبياء عليهم السلام .

---

(١) في الأصل : واتبعناهم . (٢) « ذريتهم »

(٣) سورة الطور ٥٢ الآية : ٢١ (٤) « ملتذ »

(٥) « واحد »

[شبهة قوله ﷺ ما رأيت ناقصات عقل ودين . الخ»]

فإن شغب مشغب بقول رسول الله ﷺ «ما رأيت ناقصات عقل ودين أسلب للب الرجل الحازم من إحداكن» قلنا [له] وبالله التوفيق : إن حملت هذا الحديث على ظاهره ، فيلزمك أنك[1] تقول : إنك أتم عقلاً وديناً من مريم وأم موسى وأم إسحق ومن عائشة وفاطمة ، فإن تمادى على ذلك سقط الكلام معه ولم يبعد من الكفر ؛ وإن قال : «لا»، سقط اعتراضه واعترف أن من الرجال من هو أنقص ديناً وعقلاً من كثير من النساء . فإن سأل عن معنى الحديث قيل له : قد بيّن رسول الله ﷺ وجه ذلك النقص وأنه[2] بكون شهادة المرأة نصف[3] شهادة الرجل ، وكونها إذا حاضت لا تصلي ولا تصوم . وليس هذا بموجب نقصان الفضل ولا نقصان الدين [والعقل] في غير هذين الوجهين [فقط] ، إذ بالضرورة ندري أن في النساء من هو[4] أفضل من كثير من الرجال وأتم ديناً وعقلاً (في) غير [ا] لوجوه التي ذكر عليه[5] السلام ، وهو [عليه السلام] لا يقول إلا يقيناً[6] . فصح يقيناً أنه إنما عين[7] [عليه السلام] ما قد بينه

٤٢

(١) «أن» . (٢) «وهو» (٣) «على النصف من» (٤) «هن»
(٥) «النبي ﷺ» (٦) «حقاً» (٧) «عبر»

في الحديث نفسه من الشهادة والحيض فقط . وليس ذلك مما ينقص الفضل ، فقد علمنا أن أبا بكر وعمر وعلياً لو شهدوا في زنى لم يحكم بشهادتهم و [أنه] لو شهد [به] منا[1] أربعة عدول في الظاهر لحكم[2] بشادتهم ، وليس ذلك بموجب أننا أفضل من هؤلاء المذكورين . وكذلك القول في شهادة النساء فليست الشهادة من باب التفاضل في ورد ولا صدر ، ولكن توقف[3] فيها عند ما حده النص فقط . ولا شك عند كل مسلم في أن صواحبه من نسائه وبناته [عليهم السلام] كخديجة وعائشة وفاطمة وأم سلمة أفضل ديناً ومنزلة عند الله تعالى من كل من[4] أتى بعدهن ومن كل رجل يأتي في هذه الأمة إلى يوم القيامة فبطل الاعتراض بالحديث المذكور وصح أنه على مافسرناه[5] يقيناً[5] [والحمد لله رب العالمين] .

٤٤

[شبهة قوله صلى الله عليه وسلم : « لم يكمل من النساء ... » و«لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة »]

وأيضاً قول[6] الله تعالى : « يا نِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ ٱلنِّسَاءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ »[7] مخرج لهن عن سائر النساء في كل ما اعترض به معترض مما ذكرنا وشبهه .

---

(١) « أربعة منا » (٢) « حكم » (٣) « يقفا » (٤) « تابع »
(٥) « بيناه » (٦) « فقول » (٧) سورة الأحزاب(٣٣) الآية : ٣٢
* ص ٤٣ من الأصل : بيضاء

[* قال أبو محمد *] : فإن اعترض معترض بقول النبي ﷺ :
« كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم [بنت
عمران] وامرأة فرعون » فإن هذا الكمال إنما هو الرسالة والنبوة
التي تفرد[١] بها الرجال وشاركهم بعض النساء في النبوة . وقد
يتفاضلون[٢] أيضاً فيها فيكون بعض الأنبياء أفضل[٣] من بعض
[ويكون بعض الرسل أكمل من بعض] قال الله تعالى[٤]
« تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ [مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ ٱللهُ
وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ[٥]] » فإنما ذكر في هذا الخبر من بلغ
غاية الكمال في طبقته ولم يتقدمه منهم أحد وبالله [تعالى] التوفيق .
فإن اعترض معترض بقوله عليه السلام « لن[٦] يفلح قوم أسندوا
أمرهم إلى امرأة » فلا حجة له في هذا[٧] ، لانه ليس امتناع الولاية
منهن[٨] بموجب لهن نقص الفضل ، فقد علمنا أن ابن مسعود
وبلالاً وزيد بن حارثة [رضي الله عنهم] لم يكن لهم حظ
في الخلافة وليس (ذلك) بموجب أن يكون الحسن وابن الزبير

---

(١) « انفرد » (٢) في الأصل : يتفاضلن . والتصحيح عن ط
(٣) « أكمل » (٤) « عز وجل »
(٥) سورة البقرة (٢) الآية : ٢٥٣ (٦) « لا »
(٧) « ذلك » . (٨) «فيهن»

ومعاوية أفضل منهم . والخلافة جائزة لهؤلاء غير جائزة لهؤلاء[1] وبينهم في الفضل مالا يجهله مسلم .

[أفضل أزواجه ﷺ عائشة وخديجة]

[قال أبو محمد] : وأما أفضل نسائه فعائشة وخديجة لعظيم فضائلهما ولإخباره[2] عليه السلام : أن عائشة أحب الناس إليه ، وأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . وقد ذكر عليه السلام خديجة بنت خويلد فقال : «أفضل نسائها مريم بنت عمران ، وأفضل نسائها خديجة بنت خويلد» مع سابقة خديجة في الإسلام وثباتها[3] . ولأم سلمة وسودة وزينب بنت جحش وزينب بنت خزيمة وحفصة سوابق في الإسلام عظيمة واحتمال[4] المشقات[5] في الله تعالى[6] [ورسوله ﷺ] والهجرة والغربة عن الوطن والدعاء إلى الإسلام والبلاء في الله عز وجل ورسوله ﷺ ، ولكنهن بعد ذلك الفضل المبين [رضوان الله عليهن أجمعين] .

[قال أبو محمد] وهذه المسألة نقطع فيها على أننا المحققون عند الله تعالى[6] ، وأن من خالفنا فيها مخطئ عند الله [عز

---

(١) «لأولئك» (٢) «وإخباره» (٣) في الأصل: وبنايها، والتصحيح عن ط (٤) «وأحمال وهوخطأ» (٥) «للمشقات» (٦) «عز وجل»

وجل] بلا شك ، وليست مما يسع الشك فيه أصلا .

[قال أبو محمد] فإن قال قائل : هل قال هذا أحد قبلكم ؟ قلنا [له وبالله تعالى التوفيق] : وهل قال غير هذا أحد قبل أن[1] يخالفنا الآن ؟ وقد علمنا ضرورة أن لنساء رسول[2] الله ﷺ منزلة من الفضل [بلا شك] ، فلا بد من البحث عنها فليقل مخالفنا في أي منزلة يضعهن : أبعد (من) جميع الصحابة كلهم ، فهذا مالا يقوله أحد ، أم بعد طائفة منهم ، فعليه الدليل و [هذا ما] لا سبيل له إلى وجوده وإذ قد بطل هذا [ن] القولان : [أحدهما] لإجماع[3] الناس على أنه باطل ، والثاني لأنه دعوى بلا[4] دليل [عليها ولا برهان] ، فلم يبق إلا قولنا [والحمد لله رب العالمين الموفق للصواب بفضله]

٤٦

[الاستشهاد بخطبة أبي بكر]

ثم نقول وبالله [تعالى] المستعان[5] : قد صح أن أبا بكر [الصديق رضي الله عنه] خطب الناس حين [ولي بعد موت رسول الله ﷺ] فقال : « أيها الناس إني وليتكم[6] ولست بخيركم » فقد صح [عنه رضي الله عنه] أنه أعلن بحضرة جميع الصحابة [رضي الله

---

(١) « من »   (٢) « النبي »   (٣) « بالإجماع »

(٤) « لا »   (٥) « نستعين »   (٦) « وليت عليكم »

عنهم] أنه ليس بخيرهم ولم ينكر أحد منهم هذا القول ، فدل على متابعتهم له ، ولا خلاف في أنه ليس في أحد من الحاضرين لخطبته إنسان يقول فيه أحد من الناس : إنه خير من أبي بكر ، إلا علي وابن مسعود وعمر . (و) أما جمهور الحاضرين من مخالفينا في هذه المسألة من أهل السنة والمرجئة والمعتزلة والخوارج ، فإنهم لا يختلفون في أن أبا بكر أفضل من علي وعمر وابن مسعود . وخير منهم ، فصح أنه لم يبق إلا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم . فإن قال قائل : إنما قال أبو بكر هذا تواضعاً ، قلنا له : هذا هو الباطل المتيقن : لأن الصديق الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الاسم لا يجوز أن يكذب وحاشى له من ذلك [ولا يقول إلا الحق والصدق فصح أن الصحابة متفقون في الأغلب على تصديقه في ذلك ، فإذ ذلك كذلك] ، وسقط بالبرهان الواضح أن يكون أحد من الصحابة [رضي الله عنهم] خيراً من أبي بكر [لم يبق] إلا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ونساؤه ، ووضح أننا لو قلنا : إنه إجماع من جمهور الصحابة لم يبعد عن[1] الصدق .

٤٧

[* قال أبو محمد *] : وأيضاً فإن يوسف بن عبد الله النمري

---

(١) « من »

حدثنا وذكر الإسناد إلى أبي أيوب[١] سليمان بن داود الشاذكوني قال: «كان عمار بن ياسر والحسن بن علي يفضلان علي بن أبي طالب على أبي بكر [الصديق] وعمر.» وبإسناد[٢] عن محمد بن جرير الطبري: «أن علي بن أبي طالب بعث عمار بن ياسر والحسن بن علي إلى الكوفة، إذ خرجت أم المؤمنين إلى البصرة، فلما أتياها اجتمع الناس إليهما في المسجد، فخطبهم عمار، وذكر لهم خروج عائشة إلى البصرة، ثم قال لهم: «إني أقول لكم ووالله إني لأعلم أنها زوجة رسول الله ﷺ في الجنة كما هي زوجته في الدنيا، ولكن الله ابتلاكم بها لتطيعوها [أو لتطيعوه]» فقال له مسروق[٣] و[أبو] الأسود: «يا أبا اليقظان نحن[٤] مع من شهدت له بالجنة دون من لم تشهد له.» فسكت عمار فقال[٥] له الحسن: «أغن نفسك عنا» فهذا عمار والحسن وكل من حضر من الصحابة

٤٨

---

(١) في ط ذكر الإسناد كما يلي: حدثنا خلف بن قاسم ثنا أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن علي الكندي حدثنا محمد بن العباس البغدادي ثنا إبراهيم ابن محمد البصري ثنا أبو أيوب الخ

(٢) أورده في ط: حدثنا أحمد بن محمد الخوزي ثنا أحمد بن الفضل الدينوري ثنا محمد بن جرير الطبري الخ

(٣) ط: «مسروق أو أبو الأسود» (٤) «فنحن»

(٥) «وقال»

[رضي الله عنهم] والتابعين ـ والكوفة يومئذ مملوءة منهم ـ يسمعون تفضيل عائشة على علي ، وهو عند عمار والحسن أفضل من أبي بكر وعمر و[1] لا ينكرون ذلك ولا يعترضونه أحوج ما كانوا إلى إنكاره ، فصح أنهم متفقون على أنها وأزواجه عليه السلام أفضل من كل الناس بعد الأنبياء [عليهم السلام] . ومما نبين : أن أبا بكر [رضي الله عنه] لم يقل « وليتكم ولست بخيركم » إلا محقا صادقاً ، لا تواضعاً يقول فيه الباطل وحاشى له من ذلك وذكر بإسناده[2] عن أبي سعيد الخدري قال : قال أبو بكر . [الصديق رضي الله عنه] : « ألست[3] أحق الناس بها ؟ ألست[3] أول من أسلم ؟ ألست[3] صاحبه[4] ؟ »

* قال أبو محمد * : فهذا أبو بكر [رضي الله عنه] بذكر فضائل

---

(١) « فلا »

(٢) في ط سرد الإسناد هكذا : ما حدثناه أحمد بن محمد الطلمنكي قال حدثنا أحمد بن محمد بن مفرج ثنا محمد بن أيوب الصموت الرقي أنا أحمد بن عمر بن عبد الخالق البزار ثنا عبد الملك بن سعد ثنا عقبة بن خالد ثنا شعبة بن الحجاج ثنا الحريري ثنا عن أبي بصرة عن أبي سعيد الخدري الخ . كذا ذكر الحريري بالحاء والصواب : الجريري بالجيم كما في تهذيب التهذيب .

(٣) « لست » (٤) « صاحب كذا »

نفسه إذ كان صادقاً فيها ، فلو كان أفضلهم ، لصرح بذلك[1] وما كتمه . وقد نزهه الله [تعالى] عن الكذب ، فصح قولنا أيضاً[2] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) « به »

(٢) « نصاً »

الباب الثالث

[أفضل الصحابة بعد أزواج النبي]

[* قال أبو محمد *] ثم وجب القول فيمن هو أفضل الصحابة (رضي الله عنهم) بعد نساء النبي ﷺ :

ولم[1] نجد لمن فضل ابن مسعود أو عمر أو جعفر بن أبي طالب [أو] أبا سلمة أو الثلاثة الأسهليين على جميع الصحابة حجة يعتمد عليها ، ووجدنا من توقف[2] لم يرد على أنه لم يلح له البرهان : أنهم[3] أفضل ولو لاح له لقال به ووجدنا [العدد] المعارضة في القائلين بأن عليًا أفضل [أكثر] . فوجب أن آتي[4] بما شغبوا فيه[5] ليلوح الحق في ذلك وبالله [تعالى] التوفيق .

٤٩

[البرهان على أن أبا بكر أكثر جهاداً من علي]

[* قال أبو محمد *] فوجدناهم[6] يحتجون بأن عليًا كان أكثر الصحابة جهاداً وطعناً في الكفار وضرباً ، والجهاد أعظم[7] الأعمال .

---

(١) « فلم » (٢) « يوقف » (٣) في الأصل غير منقوطة فأثبتنا ما في ط وإن كنا نرجح أنها : أيهم . (٤) « في الأصل : يأتي » (٥) « به » (٦) « وجدناهم » (٧) « أفضل »

* قال ابو محمد * : (و) هذا خطأ ، لأن الجهاد ينقسم أقساماً ثلاثة : أحدها الدعاء إلى الله عز وجل باللسان ، والثاني الجهاد عند الحرب بالرأي والتدبير ، [و] الثالث الجهاد باليد في الضرب والطعن (١) . فوجدنا الجهاد باللسان لا يلحق فيه أحد بعد النبي ﷺ أبا (٢) بكر ثم (٣) عمر . أما أبو بكر فإن أكابر الصحابة [رضي الله عنهم] أسلموا على يده (٤) فهذا أفضل عمل ، وليس لعلي من هذا كثير حظ . وأما عمر فإنه يوم أسلم عمر عز الإسلام وعبدوا (٥) الله تعالى بمكة جهاراً (٦) وجاهد المشركين [بمكة] بيده (٧) فضرب وضرب (٨) حتى ملوه فتركوه ، وعبد (٩) الله علانية ، وهذا أعظم الجهاد . فقد انفرد هذان الرجلان بهذين الجهادين اللذين لا نظير لهما ولا حظ لعلي في هذا أصلاً . وبقي القسم الثاني وهو الرأي والمشورة ، فوجدناه خالصاً لأبي بكر ثم لعمر . وبقي القسم الثالث وهو الطعن والضرب والمبارزة فوجدناه أقل مراتب الجهاد ببرهان ضروري . وهو أن رسول الله ﷺ لا شك عند كل مسلم (في) أنه المخصوص بكل

٥٠

---

(١) « في الطعن والضرب » (٢) في الأصل : أبو (٣) « و »

(٤) « يديه » (٥) « وعبد » (٦) « جهراً » (٧) « بيديه »

(٨) في الأصل : فضر وضوبر وظاهر أن الصواب : فضرب وضورب (٩) فعبد

فضيلة فوجدنا جهاده عليه السلام إنما كان في أكثر أعماله وأحواله القسمين الأولين من الدعاء إلى الله عز وجل والتدبير والإدارة [١] وكان أقل عمله [ﷺ] الطعن والضرب والمبارزة لا عن جبن ، بل كان عليه السلام أشجع أهل الأرض قاطبة نفساً ويداً وأتمهم نجدة ؛ ولكن [٢] كان يؤثر للأفضل [٣] فالأفضل من الأعمال [٤] ، فيقدمه [٥] ويشتغل به . ووجدناه عليه السلام يوم بدر وغيره : كان أبو بكر [رضي الله عنه] معه لا يفارقه ، إيثاراً من رسول الله ﷺ له بذلك ، واستظهاراً برأيه في الحرب ، وأنساً بمكانه ، ثم كان عمر ربما شورك في ذلك [أيضاً] . فقد [٦] انفرد بهذا المحل دون علي ودون سائر الصحابة إلا في الندرة . ثم نظرنا مع ذلك في هذا القسم من الجهاد الذي هو الطعن والضرب والمبارزة (ومن يفعل ذلك) فوجدنا علياً [رضي الله عنه] لم ينفرد بالبسوق [٧] فيه ، بل [قد] شاركه في ذلك (جماعة) [غيره] شركة العيان [٨] كطلحة والزبير وسعد و (جماعة) ممن قتل في صدر الإسلام كحمزة وعبيدة بن

٥١

---

(١) « الإرادة » وهو خطأ (٢) « ولكنه »
(٣) « الافضل » (٤) « الأفعال »
(٥) « فقدمه » (٦) « وقد »
(٧) « النسوق » وهو خطأ (٨) « العنان »

الحارث بن المطلب ومصعب بن عمير ، ومن الأنصار سعد بن معاذ وسماك بن خرشة (١) وغيرهما ، ووجدنا أبا بكر وعمر قد شركاه (٢) في ذلك بحظ حسن وإن لم يلحق (٣) بحظوظ هؤلاء وإنما ذلك لشغلهما بالأفضل من ملازمة رسول الله ﷺ وموازرته في حين الحرب . وقد بعثهما عليه (٤) السلام على البعوث أكثر مما بعث علياً : فقد (٥) بعث أبا بكر إلى فزارة وغيرهم [وبعث عمر إلى بني فلان] وما نعلم علياً (٦) بعثه إلا إلى بعض حصون (أهل) خيبر ففتحه و [قد] بعث (إليه) قبله أبا بكر وعمر فلم يفتحاه ، فحصل أرفع (٧) [أنواع] الجهاد لأبي بكر ثم (٨) عمر وقد شاركا علياً في أقل أنواع الجهاد مع جماعة غيرهم .

[البرهان على أن أبا بكر أعلم من علي وغيره]

[* قال أبو محمد *] واحتج (بعضهم) أيضاً بأن (٩) قال : « إن علياً كان أكثرهم علماً . »

[* قال ابو محمد *] : كذب هذا القائل وإنما يعرف علم الصحابة (١٠) بأحد وجهين لا ثالث لهما : أحدهما كثرة [روايته و] فتاويه ،

---

(١) « خوسة » وهو خطأ (٢) « شاركاه » (٣) « يلحقا »
(٤) « رسول الله ﷺ » (٥) « وقد » (٦) « لعلي بعثاً »
(٧) « أربع » وهو خطأ (٨) « و » (٩) « من »
(١٠) « الصحابي لأحد »

والثاني كثرة استعمال النبي ﷺ له، فمن المحال الباطل أن يستعمل النبي ﷺ من لا علم له، وهذه أكبر الشهادات على العلم وسعته. فنظرنا في ذلك فوجدنا النبي ﷺ قد ولّى أبا بكر، الصلاة بحضرته طول علّته وجميع أكابر الصحابة حضور كعلي وعمر وابن مسعود وأُبيّ وغيرهم، وأمّره [١] بذلك على جميعهم. وهذا خلاف استخلافه عليه السلام إذا غزا، لأن المستخلفَ في الغزو لم يستخلف إلاّ على النساء وذوي [٢] الأعذار فقط، فوجب ضرورة أن نعلم أن أبا بكر أعلمُ القوم [٣] بالصلاة وشرائعها [وأعلم المذكورين بها] وهي عمود الدين ووجدناه عليه [٤] السلام أيضاً قد استعمله على الصدقات فوجب ضرورة أن (نعلم) أن عنده من علم الصدقات كالذي عند غيره من العلماء [٥] من الصحابة لا أقل (منه ولا أكثر) بل [٦] ربما [كان] أكثر إذ قد استعمل [عليه السلام أيضاً] غيره عليها [٧] ولا يستعمل إلا عالماً بما استعمله عليه، والزكاة ركن [من أركان] الدين بعد الصلاة وبرهان ما قلنا من تمام علم أبي بكر [رضي الله عنه] بالصدقات: أن الأخبار الواردة في الزكاة أصحها [٨]، والذي يلزم العمل به ولا يجوز خلافه [فهو]: حديث أبي بكر ثم الذي من طريق عمر

٥٢

---

(١) «فآثره» (٢) «وذو» وهو خطأ (٣) «الناس»
(٤) «صلى الله عليه وسلم» (٥) «علماء الصحابة» (٦) «و»
(٧) «عليها غيره» (٨) في الأصل: أصحهما»

وأما (الذي) من طريق علي فمضطرب وفيه ما قد تركه الفقهاء جملة وهو أن في خمس وعشرين من الإبل خمساً من الشاء[١] ، ووجدناه ﷺ استعمل أبا بكر على الحج ، فصح ضرورة أنه أعلم من جميع الصحابة بالحج وهذه دعائم الإسلام ثم وجدناه [عليه السلام] استعمله على البعوث [فصح أن عنده من أحكام الجهاد مثل ما عند سائر من استعمله رسول الله ﷺ على البعوث] في الجهاد ، [إذ] لا يستعمل عليه السلام على العمل إلا عالماً به ، فعند أبي بكر من الجهاد و[٢] العلم به كالذي عند علي وسائر أمراء البعوث لا أكثر ولا أقل . فإذ قد صح لأبي بكر التقدم[٣] على علي وغيره في علم الصلاة والزكاة والحج وساواه في علم الجهاد ، فهذه عمدة العلم ، ثم وجدناه [ﷺ] قد ألزم نفسه في جلوسه ومسامرته[٤] وظعنه وإقامته [أبا بكر فشاهد أحكامه عليه السلام وفتاويه أكثر من مشاهدة علي لها] فصح ضرورة أنه أعلم بها . فهل بقيت من العلم بقية إلا وأبو بكر (هو) المقدم[٥] فيها الذي لا يلحق أو المشارك الذي لا يُسبق ؟ فبطلت دعواهم في العلم والحمد لله رب العالمين .

٥٣

---

(١) « خمس شياه فوجدناه »

(٢) « من » (٣) « التقدم لأبي بكر »

(٤) « مآمره » (٥) « المتقدم »

[في المفاضلة بينهم في الرواية والفتيا]

(فصل) وأما الرواية والفتيا فإن أبا بكر (رضي الله عنه) لم يعش بعد النبي [١] ﷺ إلا سنتين وستة أشهر ، ولم يفارق المدينة إلا حاجاً أو معتمراً ، فلم [٢] يحتج الناس إلى ما عنده من الرواية عن رسول الله ﷺ ، لأن كل من حواليه أدركوا رسول [٣] الله ﷺ . وعلى ذلك كله فقد روي عنه عن النبي ﷺ مائة حديث واثنان وأربعون حديثاً مسندة ، ولم يرو عن علي إلا خمسمائة (حديث) وستة وثمانون حديثاً مسندة يصح [٤] منها نحو خمسين وقد عاش بعد رسول الله ﷺ أزيد من ثلاثين سنة ، فكثر [٥] لقاء الناس إياه وحاجتهم إلى ما عنده لذهاب جمهور الصحابة [رضي الله عنهم] وكثر سماع أهل الآفاق منه مدة [٦] بصفين ومدة [٦] بالبصرة وأعواماً بالكوفة [٧] [والمدينة] فإذا نسبنا حديث أبي بكر من حياته وأضفنا تقريبه [٨] على البلاد بلداً بلداً [٩] ، وكثرة سماع الناس منه ، إلى لزوم أبي بكر موطنه ، وأنه لم تكثر حاجة من حواليه

---

(١) « رسول الله » (٢) « ولم » (٣) « النبي »

(٤) « فقد صح » (٥) ط : وكثر (٦) ط : مرة

(٧) ط : أعواماً بالكوفة ومرة بالبصرة

(٨) في الأصل : تفريقه :

(٩) في الأصل : بكذا و كذا والتصحيح عن ط

إلى[١] الرواية عنه ثم نسبنا عدد حديث من عدد حديث وفتاوى من فتاوى[٢] ، علم كل ذي حظ من العلم أن الذي كان عند أبي بكر من العلم أضعاف ما كان عند علي منه . وبرهان ذلك أن من عُمِّر من أصحاب رسول الله ﷺ عمراً قليلاً قلّ النقل عنه ، ومن طال عمره منهم كثر النقل عنه[٣] ، إلا اليسير (منهم) من اكتفى بنيابة غيره عنه في تعليم الناس . وقد عاش علي بعد عمر [بن الخطاب] سبعة عشر عاماً غير أشهر ، ومسند عمر خمسمائة حديث وسبعة وثلاثون حديثاً يصح منها نحو خمسين كما[٤] صح عن علي سواء بسواء ، فكل ما زاد حديث علي على [حديث] عمر بسبعة[٥] وأربعين حديثاً في هذه المدة الطويلة ولم يزد عليه في الصحيح إلا حديثا[٦] أو حديثين . وفتاوي عمر مساوية[٧] لفتاوي علي في أبواب الفقه ، فإذا نسبنا [مدة] من مدة ، وضرباً[٨] في البلاد من ضرب فيها ، وأضفنا حديثاً إلى حديث ، وفتاوى إلى فتاوٍ ، علم كل ذى حسٍ ، علماً ضرورياً : أن الذي كان عند عمر من العلم أضعاف ما كان عند علي من العلم ثم وجدنا الأمر كلما طال كثرت الحاجة إلى الصحابة فيما عندهم من العلم

٥٥

---

(١) في الأصل : عن . والتصويب عن ط

(٢) في الاصل : فتاويه والتصحيح عن ط (٣) ط : عنهم

(٤) ط : كالذي (٥) ط : تسعة (٦) في الاصل : حديث

(٧) ط : موازنة (٨) « ضربنا » وهو خطأ

فوجدنا حديث عائشة [رضي الله عنها] ألفي مسندٍ ومائتي مسند وعشرة مسانيد وحديث أبي هريرة خمسة آلاف مسندٍ وثلاثمائة مسندٍ وأربعة [١] وسبعين مسنداً [ووجدنا] مسند ابن عمر وأنس قريباً من مسند عائشة ، لكل واحد منهما ، ووجدنا مسند جابر بن عبد الله وعبد الله بن العباس [٢] ، لكل واحد منهما أزيد من ألف وخمسمائة ، ووجدنا لابن مسعود ثمانمائة مسند ونيفاً [٣] ، ولكل من ذكرنا حاشا أبا هريرة وأنس بن مالك من [٤] الفتاوى أكثر من فتاوى علي أو نحوها ، فبطل قول هذا [٥] الجاهل . فإن عاندنا [معاند] في هذا الباب [جاهل] أو قليل الحياء ، لاح لديه بأنا غير متهمين [٦] على حط أحد من الصحابة رضي الله عنهم (أجمعين) عن مرتبته ولا على رفعه فوق مرتبته لأننا لو انحرفنا عن علي رضي الله عنه ونعوذ بالله من ذلك لذهبنا فيه مذهب الخوارج ، وقد نزهنا الله [عز وجل] عن [٧] هذا الضلال في التعصب . ولو غلونا فيه لذهبنا فيه مذهب الشيعة وقد أعاذنا الله تعالى من هذا الإفك في التعصب . فصار

٥٦

---

(١) « أربع » وهو خطأ (٢) « عباس »

(٣) « نيف » (٤) في الأصل : في والتصحيح عن ط

(٥) « هذه الوقاح الجهال » (٦) « مهتمين » وهو خطأ

(٧) في الأصل : عن ذلك عن هذا الضلال . والتكرير سهو من الناسخ

غيرنا من المنحرفين عنه أو الغالين فيه هم المتهمون فيه إما عليه وإما له [١] وبعد هذا كله فليس يقدر من ينتمي [٢] إلى الإسلام أن يعاند في الاستدلال على كثرة العلم باستعمال النبي ﷺ [من استعمله] منهم عَلَى ما استعمله عليه من أمور الدين (كان أعلم به) [٣]

فإن قالوا : « إن رسول الله ﷺ قد استعمل علياً على الأخماس وعلى القضاء باليمن » قلنا [لهم] : نعم ولكن مشاهدة أبي بكر لأقضية النبي [٤] ﷺ أقوى في العلم وأثبت مما عند علي وهو باليمن وقد استعمل رسول الله ﷺ أبا بكر على بعوث (و) فيها الأخماس فقد ساوى علمه علم علي (فيها) في حكمها بلا شك إذ لا يستعمل عليه السلام إلا عالماً بما استعمله عليه ، وقد صح أن أبا بكر وعمر كانا يفتيان على عهد رسول الله ﷺ وهو عليه السلام يعلم ذلك ، ومحال [٥] أن يبيح لهما [٦] ذلك إلا وهما أعلم ممن دونهما . وقد استعمل [عليه السلام] أيضا على القضاء [٧] عَلَى [٨] اليمن مع علي معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري ، فلعلي في هذا شركاء كثير منهم أبو بكر وعمر ثم [قد] انفرد أبو بكر

---

(١) « إما له وإما عليه » (٢) في الأصل : ينتهي والتصحيح عن ط
(٣) زيادة في الأصل ولا لزوم لها (٤) « رسول الله »
(٥) « محال ذلك » وذلك لا لزوم لها (٦) في الاصل : لهم
(٧) في الأصل : القضايا (٨) « باليمن »

بالجمهور (و) الأغلب من العلم على ما ذكرنا .

[البرهان على أن الصديق أقرأ من علي وسائر الصحابة]

وقال هذا القائل (أيضا): «إن عليا[1] كان أقرأ الصحابة» .

٥٧ * قال أبو محمد * : وهذه القحة المجردة[2] والبهتان لوجوه : أحدها أنه رد على النبي[3] عليه السلام ، لأنه عليه السلام قال : «يؤم القوم أقرؤهم فإن استووا فأفقههم ، فإن استووا فأقدمهم هجرة» ثم وجدناه عليه السلام قد قدّم أبا بكر في[4] الصلاة مدة الأيام التي مرض فيها وعلي بالحضرة يراه النبي غدوةً وعشياً ، فما رأى [لها] النبي ﷺ[5] أحداً أحق من أبي بكر بها ، فصح أنه كان أقرأهم وأفقههم وأقدمهم هجرة . وقد يكون من لم يجمع حفظ القرآن كله (على حفظه وعلمه) عن ظهر قلب أقرأ ممن جمعه كله عن ظهر قلب ، فيكون ألفظ به وأحسن[6] ترتيباً . هذا على أن أبا بكر وعمر وعلياً لم يستكمل واحد[7] منهم حفظ سواد[8] القرآن كله ظاهراً ، إلا أنه قد وجب يقيناً - بتقديم النبي ﷺ لأبي بكر على الصلاة وعلي حاضر - أن أبا بكر

---

(١) «علينا» وهو خطأ ظاهر

(٢) «المتجردة» (٣) «رسول الله ﷺ» (٤) «على»

(٥) «عليه السلام» (٦) «أحسنهم»

(٧) «أحد» (٨) «سوار»

أقرأ من علي ، وما كان[1] عليه السلام ليقدم إلى الإمامة الأقل علماً بالقراءة على الأقرأ ولا[2] للأقل فقهاً على الأفقه فبطل أيضاً شغبهم في هذا الباب والحمد لله رب العالمين .

[البرهان على أن الصديق أتقى من علي وسائر الصحابة]

(وقال الجاهل : علي أتقاهم لله عز وجل) قال أبو محمد : كذب هذا الآفك ، ولقد كان علي [رضي الله عنه] تقياً إلا أن الفضائل[3] يتفاضل فيها أهلها ؛ وما كان أتقاهم لله إلا أبا بكر .

والبرهان على ذلك أنه لم يسوء [قط] أبو بكر رسول الله ﷺ (قط) في كلمة ولا خالف إرادته [عليه السلام] في شيء قط ، ولا تأخر عن تصديقه ، ولا تأخر عن الائتمار له يوم الحديبية ، ولا تردد إذ تردد من تردد . وقد تظلم رسول الله ﷺ على المنبر إذ أراد علي نكاح بنت[4] أبي جهل بما قد عرف ، وما وجدنا لأبي بكر قط[5] توقفاً عن شيء أمر (ه) به رسول الله ﷺ ، إلا مرة [واحدة] عذره [فيها] رسول الله ﷺ فيها وأجاز له فعله ، إذ أتى[6] عليه السلام من قباء فوجده يصلي

٥٨

(١) « النبي ﷺ » (٢) « أو »

(٣) « الفاضل » وهو خطأ

(٤) « ابنة » (٥) في ط كلمة (قط) بعد وجدنا

(٦) « رسول الله ﷺ

بالناس فلما رآه [أبو بكر تأخر فأشار إليه] [١] رسول الله ﷺ : أن أقم مكانك فحمد الله [تعالى] أبو بكر على ذلك ثم تأخر فصار في الصف وتقدم رسول الله ﷺ فصلى بالناس فلما سلم قال له النبي [٢] ﷺ : «ما منعك أن تثبت (مكانك) حين أمرتك ؟» فقال [أبو بكر] : « ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ » .

* قال أبو محمد * : فهذه [٣] غاية التعظيم والطاعة والخضوع لرسول الله ﷺ [وما أنكر عليه السلام ذلك عليه وإذ قد صح بالبرهان الضروري الذي ذكرنا أن أبا بكر أعلم أصحاب رسول الله ﷺ] فقد وجب أنه أخشاهم لله عز وجل ، قال الله تعالى [٤] : « إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ » والتقى هي [٥] الخشية لله عز وجل .

[البرهان على أن الصديق أزهد من علي وسائر الصحابة]

وقال قائلون : « علي كان أزهدهم » قال أبو محمد : كذب هذا الجاهل ، وبرهان ذلك أن الزهد إنما هو غروب النفس عن حب الصوت وعن المال وعن اللذات وعن الميل إلى الولد والحاشية ،

---

(١) « النبي » (٢) « رسول الله » (٣) « فهذا »
(٤) « عز وجل » (٥) «هو» وهو خطأ .

ليس الزهد معنى يقع عليه اسم الزهد إلا هذا المعنى . فأما غروب النفس عن المال فقد علم كل من له أدنى بصر بشيء من الأخبار الخالية : أن أبا بكر أسلم وله مال عظيم ، قيل : أربعون[1] ألف درهم ، أنفقها كلها في ذات الله تعالى وعتق المستضعفين من العبيد المؤمنين المعذبين في ذات الله عز وجل ، ولم يعتق عبيداً جُلداً يمنعونه ؛ لكن كل معذب [ومعذبة في الله عز وجل] حتى هاجر [مع] رسول الله ﷺ (ولم يبق لأبي بكر من جميع ماله إلا ستة آلاف درهم حملها كلها مع رسول الله ﷺ) ولم يبق لبنيه منها درهماً واحداً ، ثم أنفقها كلها في سبيل الله عز وجل حتى بقي[2] لا شيء معه في عباءة [له] قد خللها بعود ، إذا نزل فرشها[3] وإذا ركب لبسها ؛ إذ تموّل غيره من الصحابة [رضي الله عن جميعهم] واقتنوا الرباع الواسعة والضياع العظيمة من حلها وحقها ؛ إلا أن من آثر بذلك سبيل الله عز وجل أزهد ممن أنفق وأمسك .

ثم ولي الخلافة فما اتخذ جارية ولا اتسع[4] في مالٍ ، و [عد] عند موته ما أنفق على نفسه وولده من مال الله تعالى الذي لم يستوف منه إلا بعض حقه ، وأمر بصرفه إلى بيت المال من صلب ماله

٥٩

(١) « أربعين » (٢) « لم يبق له شيء » (٣) « افترشها »

(٤) « توسع »

الذي حصل له من سهامه[١] في المغازي والمقاسم مع رسول الله ﷺ فهذا هو الزهد في اللذات والمال الذي لا يدانيه فيه أحد من الصحابة لا علي ولا عمر[٢] إلا أن [يكون] أبا ذر وأبا عبيدة [من المهاجرين الأولين] فإنهما جريا على هذه الطريقة التي فارقا عليها رسول الله ﷺ وتوسع من سواهم من الصحابة [رضي الله عنهم] في المباح الذي أحله الله تعالى[٣] لهم ، إلا أن من آثر على نفسه أفضل[٤] . ولو[٥] أن أبا بكر لم يكن له سابقة غيره لما تقدمه إلا من كان مثله ، ولقد تلا أبا[٦] بكر عمر رضي الله عنهما في هذا الزهد فكان فوق علي في ذلك ، يعني في إعراضه عن المال واللذات . وأما علي [رضي الله عنه] فتوسع في المال من حله ومات عن أربع زوجات وتسع عشرة أم ولد سوى الخدم والعبيد ، وتوفي عن أربعة وعشرين ولداً من ذكر وأنثى وترك لهم من العقار [والضياع] ما كانوا به [من] أغنياء قومهم ومياسيرهم . هذا أمر مشهور لا يقدر على إنكاره من له أقل علم بالأخبار والآثار .

٦٠

---

(١) « شهامة » وهو خطأ (٢) « غيره » (٣) « عز وجل »

(٤) « فضل » وهو خطأ

(٥) الجملة في ط هكذا : ولولا أن أبا ذر لم يكن له سابقة غيره لما تقدمه وهو غير مستقيم . وعبارة الأصل أوضح .

(٦) في الأصل وفي ط أبو ، وهو خطأ ظاهر .

ومن جملة عقاره (ينبع) التي تصدق بها ، كانت تغل ألف وسق تمر [اً] سوى زرعها فأين هذا من هذا .

[تعفف أبي بكر وعمر عن استعمال الأقارب]

وأما حب الولد والميل إليهم وإلى الحاشية فالأمر في هذا أبين من أن يخفى على أحد له أقل علم بشيء من الأخبار : فقد كان لأبي بكر من القرابة والولد مثل طلحة بن عبيد الله من المهاجرين الأولين السابقين من ذوي الفضائل العظيمة في كل باب من أبواب الفضائل في الإسلام ومثل ابنه عبد الرحمن بن أبي بكر وله مع النبي ﷺ صحبة قديمة وهجرة سابقة وفضل ظاهر ، فما استعمل أبو بكر [رضي الله عنه] منهم أحداً على شيء من الجهات وهي بلاد اليمن كلها (ومخاليفها) على سعتها وكثرة أعمالها [1] ، وعُمان وحضرموت والبحرين واليمامة والطايف ومكة وخيبر وسائر أعمال الحجاز ، ولو استعملهم لكانوا أهلاً لذلك [2] ، ولكن خشي المحاباة وتوقع [3] أن يميله شيء من الهوى إليهم . ثم جرى عمر [على] مجراه في ذلك فلم يستعمل من بني عدي بن كعب أحداً على سعة البلاد [وكثرتها] وقد فتح الشام ومصر وجميع مملكة

(١) « استعمالها » وهو خطأ

(٢) « لذلك أهلاً »

(٣) « يوقع »

الفرس إلى خراسان ، إلا النعمان بن عدي وحده على ميسان ثم أسرع عزله ، وفيهم من الهجرة ماليس في شيء من أفخاذ[1] قريش لأن بني عدي لم يبق منهم بمكة أحد[2] إلا هاجر ، و كان فيهم مثل سعيد بن زيد أحد المهاجرين الأولين ذوي السوابق ، وأبي الجهم[3] بن حذيفة وخارجة بن حذافة ومعمر بن عبد الله وابنه عبد الله بن عمر . ثم لم يستخلف أبو بكر ابنه عبد الرحمن وهو [صاحب] من الصحابة [ولا استعمل عمر ابنه عبد الملك[4] على الخلافة وهو من فضلاء الصحابة] وخيارهم وقد رضي به الناس وكان أهلاً لذلك[5] ولو استخلفه لم[6] يختلف عليه أحد فما فعل . ووجدنا علياً رضي الله عنه إذ ولي قد استعمل أقاربه عبد الله[7] بن العباس على البصرة ، وعبيد الله بن العباس على اليمن ، وقثم[8] ومعبد ابني العباس على مكة والمدينة ، وجعل[9] ابن هبيرة وهو ابن أخت[10] أم هانئ بنت أبي طالب على

---

(١) في الأصل : (ليس فيهم من أفخاذ) والتصحيح عن ط هذا وفي ط : « اتخاذ » وهو خطأ (٢) « أحد بمكة » (٣) في الأصل : الجهيم (٤) كذا والصواب : عبد الله (٥) « لذلك أهلاً » (٦) « لما » (٧) ط « عبد الملك » وهو خطأ . (٨) « خثعم » وهو خطأ (٩) « وجعدة بن نميرة » والصواب : جعدة بن هبيرة كما في تهذيب التهذيب ٢ : ٨١ (١٠) « أخته »

خراسان ، ومحمد بن أبي بكر وهو ابن امرأته وأخو ولده على مصر ، ورضي ببيعة [الناس] ابنه[١] الحسن بالخلافة بعده ولسنا ننكر استحقاق الحسن للخلافة ولا [استحقاق] عبد الله بن العباس للخلافة فكيف إمارة البصرة ، لكننا نقول إن من زهد في الخلافة لولدٍ مثل عبد الله[٢] بن عمر (أ) وعبد الرحمن ابن ابي بكر والناس متفقون عليه ، وفي تأمير مثل طلحة [بن عبيد الله] وسعيد بن زيد ، فلا شك في أنه أتم زهداً وأعزب من جميع مفاني[٣] الدنيا نفساً ممن أخذ [ه] منها (مما) أبيح له أخذه فصح بالبرهان الضروري أن أبا بكر أزهد من جميع الصحابة ثم عمر بن الخطاب بعده .

٦٢

[البرهان على أن الصديق أكثر صدقة من علي وسائر الصحابة وأنه السابق إلى الاسلام]

و (قد) قال القائل : « إن[٤] علياً كان أكثرهم صدقة . »

قال أبو محمد وهذه مجاهرة بالباطل ، لأنه لا[٥] يحفظ لعلي مشاركة ظاهرة بالمال وأما أمر أبي بكر [رضي الله عنه] في إنفاقه المال

---

(١) « للحسن ابنه »

(٢) في الأصل عبد الرحمن والتصحيح عن ط

(٣) « زهداً وأعرب عن جميع معاني » ولعل التحريف عن كلمة : مفاتن

(٤) « وكان علي » (٥) « لم »

في سبيل الله فأشهر من أن يخفى[١] على اليهود والنصارى فكيف على المسلمين ، ثم لعثمان[٢] بن عفان في هذا المعنى من تجهيز جيش العسرة ما ليس[٣] لغيره فصح أن أبا بكر أعظم صدقة وأكثر مشاركة وغناء في الإسلام بماله من علي [رضي الله عنه] .

وقالوا : علي هو السابق إلى الإسلام [و] لم يعبد قط وثنا .

* قال أبو محمد * أما السابقة فلم يقل [قط] أحد يعتدبه : أن علياً مات وله أكثر من ثلاث وستين سنة ، ومات بلا شك سنة أربعين (سنة) من الهجرة فصح أنه كان حين هجرة[٤] النبي ﷺ ابن ثلاث وعشرين سنة ، وكان مدة النبي ﷺ [بمكة] في النبوة ثلاث عشرة سنة فبعث رسول الله ﷺ ولعلي عشرة أعوام ، وأسلم[٥] ابن عشرة ودعاؤه [إليه] إنما هو كتدريب المرء ولده الصغير على الدين ، لا أن عنده غناء ولا أن [عليه إثما[٦]] إذا[٧] أبى . فإن أخذ الأمر على قول من قال : « إن علياً مات وله ثمان وخمسون سنة » فإنه كان إذ بعث

٦٣

---

(١) في الأصل : يمن وفي ط : تخفى

(٢) في الأصل : بعثمان والتصحيح عن ط

(٣) في الأصل : صح ، والتصحيح عن ط (٤) « هاجر »

(٥) « فإسلام » وهو خطأ

(٦) ليس من هاتين الكلمتين في الأصل إلا : ما (٧) « إن »

رسول[1] الله ﷺ ابن خمسة أعوام و كان إسلام أبي بكر وهو ابن ثمان وثلاثين سنة (وأسلم عمر وله ثمان وعشرون سنة) وهو الإسلام المأمور به من عند الله [عز وجل] وأما من لم يبلغ الحلم فغير مكلف ولا مخاطب . فسابقة أبي بكر وعمر بلا شك أسبق من سابقته[2] وأما عمر فإن[3] كان إسلامه تأخر بعد المبعث بستة أعوام فإن غناءه كان أكثر من غناء[4] أكثر من أسلم قبله ، ولم يبلغ علي حد التكليف إلا بعد أعوام من مبعث النبي ﷺ ، وبعد أن أسلم من الصحابة رجال[5] (كثير) ونساء بعد أن عذبوا في الله تعالى ولقوا فيه شدة[6] . وأما قولهم[7] « لم يعبد وثناً (قط) » فنحن و كل مولود في الإسلام لم نعبد قط وثناً ، وعمار والمقداد وسلمان وأبو ذر وحمزة وجعفر رضي الله عنهم (أجمعين) قد عبدوا الأوثان ، أفترانا أفضل منهم من أجل ذلك ؟ معاذ الله من هذا ، فإنه لا يقوله مسلم . فبطل أن يكون هذا يوجب لعلي فضلاً على أحد من الصحابة ولو كان ذلك يوجب له فضلاً زائداً [وإلا] لكانت عائشة سابقة لعلي [رضي الله عنهما] في هذا

---

(١) « النبي » (٢) « سابقة علي » (٣) « فإنه »

(٤) في الأصل وفي ط : من أكثر ، و(من) زائدة فيهما

(٥) في الأصل كثير من الصحابة نساء

(٦) « الألاقي » (٧) « كونه »

الفضل لأنها كانت إذ هاجر رسول[1] الله ﷺ بنت ثمان سنين وأشهر ، ولم تولد إلا بعد إسلام أبيها بسنين ، وعلي ولد وأبوه عابد وثن قبل مبعث النبي ﷺ بسنين ، وعبد الله بن عمر أيضاً أسلم أبوه وله أربع سنين لم يعبد قط وثناً فهو شريك لعلي في هذه الفضيلة .

[البرهان على أن الصديق أسوس من علي وسائر الصحابة]

وقال بعضهم : « كان علي أسوسهم » .

[* قال أبو محمد *] [و] هذا باطل لا خفاء به على مؤمن ولا كافر ، فقد درى القريب والبعيد والعالم والجاهل [والمؤمن والكافر] من ساس[2] الإسلام إذ كفر من كفر من أهل الأرض بعد موت النبي ﷺ ؟ وأذعن الجميع للبقية وقبول مادعت[3] إليه العرب حاشا أبا بكر . وهل يثبت[4] أحد ثبات أبي بكر على كاب العدو وشدة الخوف حتى دخلوا في الإسلام أفواجاً كما خرجوا منه أفواجاً ، وأعطوا الزكاة طائعين و كارهين ، ولم تهله جموعهم ولا قلة أهل الإسلام ، حتى أنار الله الإسلام وأظهره . ثم هل ناطح كسرى وقيصر على أسرة ملكهما[5] حتى أخضع

---

(١) « النبي » (٢) « سائر » وهو خطأ (٣) « ادعت »
(٤) « فهل ثبت » (٥) « ملكيها »

٦٥

حدود فارس والروم ، وأضرع حدودهم ، ونكس راياتهم ، ومكّن للإسلام[١] في أقطار الأرض و (أ) ذل الكفر وأهلَهُ ، وشبع جائع المسلمين وعز ذليلهم ، واستغنى فقيرهم وصاروا إخوة لا خلاف[٢] بينهم ، وقرؤوا القرآن وتفقهوا في الدين إلاّ أبو بكر ؟ ثم [ثنى] عمر [ثم] ثلث عثمان .

ثم قد رأى الناس خلاف ذلك كله وافتراق كلمة المؤمنين ، وضرب المسلمين بعضهم وجوه بعض بالسيوف ، وشك[٣] بعضهم قلوب بعض بالرماح ، وقتــل بعضهم من بعض عشرات ألوف الألوف[٤] . وشغلهم ذلك عن أن يفتح من بلاد الكفر قرية [أو يذعر لهم سرب أو يجاهد منهم أحد] حتى ارتجع الكفر كثيراً مما صار بأيدي أهل الإسلام من بـلادهم ، فلم يجتمع المسلمون إلى اليوم[٥] ، فأين سياسته من سياسة غيره[٦] ؟

فإذ قد بطل كل ما ادعاه هؤلاء الجهال ولم يحصلوا إلا على دعاوٍ ظاهرة الكذب لا دليل على صحة شيء منها ، وصح

---

(١) « ظهر الإسلام »

(٢) ط : اختلاف (٣) في ط : شكت . وهو خطأ

(٤) كذا في الأصل وظاهر أن (ألوف) الأولى زائدة .

(٥) « يوم القيامة » والذي في لأصل أجود .

(٦) « فأين سياسة من سياسة » وهي أجود .

بالبرهان كما أوردنا أن أبا بكر هو الذي فاز بالقدح المعلى والسبق المبرز والحظ الأسنى في العلم والقرآن والجهاد والزهد والتقوى والخشية والصدقة [والعتق] والمشاركة (في الإخراج من الوطن والعتق) والطاعة والسياسة[١] ؛ فهذه وجوه الفضل كلها ، فهو بلا شك أفضل من جميع الصحابة بعد نساء النبي ﷺ .

[* قال أبو محمد *] ولم نحتج عليهم بالأحاديث لأنهم لا يصدقون أحاديثنا فلا نصدق (نحن) أحاديثهم ، وإنما اقتصرنا على البراهين الضرورية بنقل الكواف ، فإن كانت إمامة تستحق بالتقدم في الفضل ، فأبو بكر أحق الناس بها بعد موت النبي ﷺ يقيناً ، فكيف والنص على خلافته صحيح . وإذ قد صحت إمامة أبي بكر [رضي الله عنه] فطاعته فرض في استخلافه عمر [رضي الله عنه] فوجبت إمامة عمر فرضاً كما[٢] ذكرنا ، وبإجماع أهل الإسلام عليهما دون خلاف من أحدٍ منهم قطعاً . ثم أجمعت الأمة كلها أيضاً بلا خلاف من أحد منهم على صحة إمامة عثمان [والدينونة بها] . وأما خلافة علي فحق لا بنص ولا

٦٦

(١) في الأصل : السياسية . وهو تحريف .

(٢) « بما »

إجماع[1] لكن ببرهان سنذكره في الكلام في حروبه[2] .

[فضائل ابي بكر المشهورة في القرآن]

ومن[3] فضائل أبي بكر المشهورة فقول[4] الله تعالى « إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا[5] » فهذه فضيلة منقولة بنقل الكافة لا خلاف بين أحد في أنه أبو بكر ، وأوجب[6] الله تعالى

---

(١) « بإجماع »

(٢) عقد لذلك ابن حزم فصلاً ضافياً في كتابه الكبير (الفصل: في الملل والأهواء والنحل) ٤ : ١٥٣ قال فيه : « ... من سبقت بيعته وهو من أهل الاستحقاق والخلافة فهو الإمام الواجبة طاعته فيما أمر به من طاعة الله عز وجل ، سواء كان هناك من هو مثله أو أفضل ، كما سبقت بيعة عثمان فوجبت طاعته وإمامته على غيره . ولو بويع هنالك حينئذ وقت الشورى علي أو طلحة أو الزبير أو عبد الرحمن أو سعد ، لكان الإمام ، وللزمت عثمان طاعته ولا فرق .

فصح أن علياً هو صاحب الحق والإمام المفترضة طاعته ، ومعاوية مخطئ مأجور مجتهد .

وقد يخفى الصواب على الصاحب العالم فيما هو أبين وأوضح من هذا الأمر من أحكام الدين ، فربما رجع إذا استبان له وربما لم يستبن له حتى يموت عليه . » اه ص ١٦٢

(٣) في الأصل : وأما والتصحيح عن ط (٤) « قوله عز وجل »

(٥) سورة التوبة (٩) الآية : ٤١ (٦) « فأوجب »

[له] فضيلة المشاركة في إخراجه مع رسول الله ﷺ [في] أنه خصه باسم الصحبة له ، وبأنه ثانيه في الغار وأعظم من ذلك كله أن الله (عز وجل) معهما وهذا لا يلحقه فيه أحد .

[* قال أبو محمد *] فاعترض في هذا بعض أهل القحة وقال[1] قد قال الله تعالى « فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً (وأَعَزُّ نَفَراً)[2] » قال : وقد حزن أبو بكر فنهاه رسول الله ﷺ عن ذلك ، فلو كان حزنه رضىً لله تعالى[3] لما نهاه [رسول الله ﷺ] عن ذلك .

[* قال أبو محمد *] : وهذه مجاهرة بالباطل وأما قول[4] الله تعالى في (هذه) الآية : « لصاحبه وهو يحاوره » فقد أخبر تعالى [بـ] أن أحدهما مؤمن والآخر كافر ، و [بـ] أنهما مختلفان ، فإنما سماه صاحبه في المحاورة والمجالسة فقط كما قال تعالى « وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً[5] » فلم يجعله أخاهم في الدين ، لكن في الدار والنسب فليس هذا قوله[6] تعالى « إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا[7] » بل جعله

---

(١) « فقال » (٢) سورة الكهف (١٨) الآية : ٣٥ وفي الأصل : إذ قال وهو تحريف

(٣) « عز وجل » (٤) « اما قوله تعالى »

(٥) سورة الأعراف الآية : ٨٤ (٦) كذا ، والصواب : كقوله

(٧) سورة التوبة (٩) الآية : ٤١

صاحبه في الدين و (في) الهجرة و [في] الإخراج وفي الغار وفي نصر [ة] الله تعالى لهما وإخافة الكفار لهما في كونه تعالى معهما ، فهذه الصحبة غاية الفضل وتلك الأخرى غاية النقص بنص القرآن . وأما حزن أبي بكر فانه قبل أن نهاه عنه رسول الله ﷺ كان غاية الرضى لله تعالى ، لأنه كان إشفاقا على رسول الله ﷺ ولذلك كان الله (تعالى) معهما ، وهو تعالى لا يكون مع العصاة بل عليهم ، وما حزن أبو بكر قط بعد أن نهاه رسول الله ﷺ عن الحزن . ولو كان لهؤلاء [الأرذال] حياء أو علم ، لم يأتوا بمثل هذا إذ لو كان حزن أبي بكر عيباً عليه ، لكان ذلك على محمد وموسى رسولي[1] الله عز وجل صلى الله عليهما وسلم لأن الله تعالى قال لموسى [عليه السلام] « سَنَشُدُّ عضُدَكَ بِأَخيكَ وَنَجعَلُ لَكُما سلْطانًا فلا يَصِلون إلَيْكُما بِآياتِنا أنتُما وَمَنْ اتّبَعَكُما ٱلغَالبون[2] » ثم قال تعالى عن السحرة إنهم قالوا لموسى « إمّا أَنْ تُلقيَ وَإمّا أَنْ (نَكونَ نَحنُ ٱلملقينَ ❁ قالَ أَلقُوا فلَمّا أَلقَوْا سَحَروا أعيُنَ ٱلنّاسِ

---

(١) « رسول »

(٢) سورة القصص (٢٨) الآية : ٣٥

وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وجاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ »[1] وَقالوا « إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ) نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ❀ قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعَى ❀ فأَوْجَسَ في نَفْسِهِ خِيفَةً موسى ❀ قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى »[2] . فهذا موسى رسول الله و كليمه قد كان أخبره الله عزوجـل[3] ، بأن فرعون وملأه لا يصلون إليه ، وأن موسى ومن اتبعه هو الغالب ، ثم أوجس في نفسه خيفة بعد ذلك إذ رأى أمر السحرة ، حتى أوحى الله تعالى[3] : لا تخف . فهذا أشد من أمر أبي بكر وإذا لزم ما يقول هؤلاء [الفساق] أبا بكر - وحاشا لله أن يلزمه — من أن حزنه لو كان رضى (لله تعالى) لما نهاه [رسول الله ﷺ لزم أشد منه لموسى عليه السلام ، وإن إيجاسه الخيفة في نفسه لو كان رضى لله تعالى ما نهاه] الله تعالى عنه ؛ ومعاذ الله من هذا بل إيجاس موسى الخيفة في نفسه لم يكن إلا بنسيان[4] الوعد المتقدم ، وحزن أبي بكر [رضي الله تعالى] عنه قبل أن نهي[5] عنـه ولم يكن تقدم إليه نهي عن الحزن . وأما محمد ﷺ فإن الله تعالى[6]

---

(١) سورة الأعراف (٧) الآيتان : ١١٤، ١١٥

(٢) سوره طه (٢٠) الآيات : ٦٥ — ٦٨ (٣) « عزوجل »

(٤) « نسيان » (٥) « بنهى » (٦) « عزوجل »

قال : « وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحزُنْكَ كُفْرُهُ »[1] وقال تعالى « فَلا تَحزَنْ عَلَيهِمْ [وَلا تَكُ في ضَيْقٍ][2] » وقال تعالى « وَلا يَحزُنْكَ قَوْلُهُمْ إنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلهِ جَميعاً »[3] وقال تعالى : « فَلا[4] تَذْهَبْ نَفسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ »[5] وقال تعالى : « فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إنْ لَمْ يُؤْمِنوا بِهٰذا ٱلْحَديثِ أَسَفاً »[6]

٦٩ ووجدناه عز وجل قد قال : « قَدْ نَعلَمُ إنَّهُ لَيَحزُنُكَ ٱلَّذي يَقولونَ »[7] وقاله (تعالى أيضاً في الأنعام . فالله[8] (تعالى) أخبرنا أنه يعلم أن رسول الله ﷺ يحزنه الذي يقول[9] (الكفار من الكفر) ونهاه الله[10] تعالى نصاً ، فيلزمهم في حزن رسول الله ﷺ الذي نهاه الله تعالى عنه كالذي أرادوا في حزن أبي بكر سواء بسواء[11] . ونعم ، إن حزن رسول الله ﷺ بما كانوا يقولون من الكفر كان طاعة لله تعالى قبل أن نهاه[12]

---

(١) سورة لقمان (٣١) الآية : ٢٣

(٢) سورة النحل (١٦) الآية : ١٢٧ ، (٣) سورة يونس (١٠) الآية : ٦٥ (٤) « فلا » وهو خطأ (٥) سورة فاطر (٣٥) الآية : ٨

(٦) سورة الكهف (١٨) الآية ٦

(٧) سورة الأنعام (٦) الآية ٣٣ وفي الأصل : ولقد نعلم وهو تحريف

(٨) « فهذا الله » (٩) ط : يقولون (١٠) ط : عزوجل عن ذلك

(١١) ط : سواء سواء (١٢) ط : ينهاه الله عز وجل

الله تعالى (عن الحزن) وما حزن عليه السلام بعد أن نهاه الله [١] تعالى عن الحزن ، كما كان حزن أبي بكر طاعة لله تعالى [٢] قبل أن نهاه [٣] رسول الله ﷺ عن الحزن ، وما حزن أبو بكر قط بعد أن نهاه [٤] رسول الله ﷺ عن الحزن فكيف وقد يمكن [أن يكون] أبو بكر لم يحزن يومئذ لكن نهاه عليه السلام عن أن يكون منه حزن كما قال تعالى لنبيه [عليه السلام] «وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ [٥] آثِماً أَوْ كَفُوراً» [٦] فنهاه عن أن يطيعهم ولم يكن منه طاعة لهم . وهذا إنما يعترض به الجاهل [٧] والمسخافة ونعوذ بالله من الضلال .

[* قال أبو محمد*] : واعترض [علينا] بعض الجهال ببعثة رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب خلف أبي بكر [رضي الله عنهما] في الحجة التي حجها أبو بكر وأخذ « براءة » من أبي بكر وقال [٨] علي : « فبلغتها [إلى] أهل الموسم وقرأتها [٩] عليهم » .   ٧٠

---

(١) ط : ربه   (٢) ط : عز وجل   (٣) ينهاه

(٤) عليه السلام   (٥) في الأصل : منهما وهو خطأ

(٦) سورة الدهر (٧٦) الآية : ٢٤

(٧) ط : أهل الجهل والسخافة

(٨) ط : تولى علي تبليغها   (٩) « قراءتها »

[* قال ابو محمد *] وهذا من أعظم فضائل أبي بكر لأنه كان أميراً على عليّ [بن أبي طالب] و (على) غيره من أهل الموسم ، لا يدفعون إلا بدفعه ولا يقفون إلا بوقوفه ولا يصلون إلا بصلاته وينصتون إذا خطب وعلي في الجملة كذلك . وسورة براءة وقع فيها فضل أبي بكر [رضي الله عنه] وذكره في أمر الغار وخروجه مع رسول[1] الله ﷺ وكون الله تعالى معهما ، فقراءة علي لهذا[2] أبلغ في إعلان فضل أبي بكر على علي وعلى سواه ، وحجة لأبي بكر قاطعة وبالله [تعالى] التوفيق .

[* قال أبو محمد *] إلا أن ترجع الروافض إلى إنكار القرآن والنقص منه والزيادة فيه ، فهذا أمر يظهر فيه قحتهم وجهلهم وسخفهم إلى كل عالم وجاهل . فإنه لا يمتري [كافر ولا] مؤمن في أن هذا الذي بين اللوحين من الكتاب هو الذي أتى به محمد ﷺ وأخبر بأنه[3] أوحاه الله تعالى إليه . فمن يعرض[4] (إلى) هذا فقد أقر بعين عدوه[5] . وما يعترض إمامة أبي بكر إلا زار على رسول الله ﷺ راد لأمره في تقديمه أبا بكر إلى الصلاة بأهل الإسلام ، مريداً لازالته عن مقام أقامه فيه رسول الله ﷺ . [قال

---

(١) « النبي » (٢) « لها » (٣) في الاصل أخبرنا به

(٤) « تعرض » (٥) كذا في الاصل وفي ط ولعلها : عداوة

ابو محمد ولسنا من كذبهم] في تأويلهم[١] « وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا[٢] » وأن المراد بذلك علي [رضى الله عنه][٣] وهذا لا يصح بل الآية على عمومها وظاهرها على[٤] كل من فعل ذلك ، فصح بكل[٥] ماذكرنا فضل أبي بكر على جميع الصحابة [رضى الله عنهم] بعد نساء النبي ﷺ بالبراهين المذكورة .

[فضائل أبي بكر المشهورة في الأحاديث]

[* قال أبو محمد *] وأما الأحاديث في ذلك فكثيرة كقول رسول الله ﷺ في أبي بكر « دعوا لي أصحابي[٦] ، فإن الناس قالوا : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت » وقال[٧] : « لو كنت متخذاً خليلاً ، لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخي وصاحبي » وهذا (هو) الذي لا يصح غيره فأمّا[٨] أخوة علي فلا تصح إلا مع سهل بن حنيف .

ومنها أمره عليه السلام[٩] بسد كل باب وخوخة في المسجد حاشا خوخة أبي بكر وهذا هو الذي لا يصح غيره .

---

(١) في الأصل : تأويلهم و كذبهم

(٢) سورة الدهر (٧٦) الآية : ٨

(٣) « بل » (٤) « لكل » (٥) « بما » (٦) « صاحبي »

(٧) « وقوله صلى الله عليه وسلم » (٨) « وأما » (٩) « ﷺ »

ومنها غضبه عليه السلام[1] على من خارج أبا بكر، وعلى من أشار عليه بغير أبي بكر للصلاة . [ومنها] قوله : « إن (من) أمنّ الناس عليّ في ماله أبو بكر » وعمدتنا في تفضيل أبي بكر ثم عمر على[2] جميع الصحابة بعد نساء رسول[3] الله ﷺ هو قول رسول الله ﷺ إذ سئل من أحب الناس إليك [يا رسول الله ؟ قال : عائشة قيل : فمن الرجال] قال أبو بكر[4] قيل : ثم من [يا رسول الله ؟] قال : « عمر . »

٧٢ [* قال أبو محمد *] : فقطعنا بهذا ثم وقفنا ، ولو زادنا رسول الله ﷺ بيانًا لزدنا . لكننا لا نقول في شيء من الدين إلا بما جاء به[5] النص[6] .

---

(١) في ط : ﷺ (٢) في الاصل (ثم على) والعاطف زائد

(٣) « النبي » (٤) « أبوها » (٥) في الاصل : فيه

(٦) للزركشي في هذا الموضوع مناقشة لبعض رجال الحديث ، ولا غرو فهو من الأئمة الكبار في عصره . قال في رسالته (الإجابة) التي عنينا بطبعها بدمشق سنة ١٩٣٩ م وهو يعدد خصائص السيدة عائشة : (الحادية والثلاثون) : أن أباها أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وقد سئل عن ذلك مالك فقال : (وهل في ذلك شك) وقد صح عن علي بن أبي طالب ذلك أيضًا . أخرجه أبو ذر في كتاب السنة له . وأخرجه البخاري في صحيحه عن محمد بن الحنفية قال : (قلت لأبي : أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ ؟) قال : (أبو —

— بكر) قلت : (ثم من ؟) قال : (عمر) وخشيت أن يقول : عثمان ، قلت : (ثم أنت) قال : (ما أنا إلا رجل من المسلمين) وإنما وقع الخلاف في التفضيل بين علي وعثمان ؛ وذهب قوم إلى تساويهما في الفضيلة وحكي عن مالك ويحيى بن سعيد القطان . وأما ماذكره ابن عبد البر في كتاب الصحابة : (أن السلف اختلفوا في تفضيل أبي بكر وعلي) فقد غلط في ذلك ووهم ، لاسيما وثبت بأن من كان يعتقد ذلك من السلف أبو سعيد الخدري وهذا بعيد . وقد أخرج البخاري في صحيحه عن نافع عن ابن عمر قال : (كنا نخير بين الناس في زمان رسول الله ﷺ فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ، ثم نترك أصحاب رسول الله ﷺ لا نفاضل بينهم .) وقد أنكر ابن عبد البر صحة هذا الخبر وقال : (إنه غلط لوجهين أحدهما : أنه حكى عن هارون بن إسحاق قال : سمعت يحيى بن معين يقول : « من قال : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وعرف لعلي سابقته وفضله فهو صاحب سنة ، ومن قال : أبو بكر وعمر وعلي وعثمان وعرف لعثمان سابقته وفضله فهو صاحب سنة » . فذكرت له هؤلاء الذين يقولون : أبو بكر وعمر وعثمان ويسكتون ، فتكلم فيهم بكلام غليظ . وهذا عجيب لأن ابن معين إنما أنكر على رأي قوم لا على نقلهم ، وهؤلاء القوم العثمانية المغلون في عثمان وذم علي . ومن قال ذلك واقتصر على عثمان فلا شك أنه مذموم . وليس في الخبر ما يدل على أن عليا ليس بخير الناس بعدهم .

الثاني : أنه خلاف قول أهل السنة : إن عليا أفضل الناس بعد عثمان . هذا لا خلاف فيه ، وإنما اختلفوا في تفضيل علي وعثمان قال : واختلف السلف أيضاً في تفضيل علي وأبي بكر . وفي إجماع الجماعة —

(فضل عثمان على علي)

[* قال أبو محمد *] واختلف الناس فيمن أفضل: أعثمان أم علي [رضي الله عنهما . قال أبو محمد]: والذي يقع في نفوسنا من غير أن[1] نقطع عليه ولا نخطئ من خالفنا في ذلك، [فـ]هو أن عثمان أفضل من علي والله أعلم، لأن فضائلهما تتقاوم في الاكثر: فكان عثمان (والله أعلم) أقرأ وكان علي أكثر فتيا ورواية، ولعلي أيضاً حظ عظيم[2] في القرآن قوي ولعثمان أيضاً حظ قوي في الفتيا والرواية، ولعلي مقامات عظيمة في الجهاد بنفسه، ولعثمان مثل ذلك بماله، ثم انفرد عثمان بأن رسول الله ﷺ بايع بيساره المقدسة عن يمين عثمان في بيعة الرضوان، وله هجرتان وسابقة قديمة وصهر مكرر[3] محمود، ولم يحضر بدراً فألحقه الله عز وجل فيهم بأجره التام وسهمه، فألحقه بمن حضرها فهو معدود فيهم . ثم كانت له فتوحات في الإسلام عظيمة لم

— التي ذكرنا دليل على أن حديث ابن عمر وهم وغلط اهـ . وهذا أعجب من الأول فإن الحديث صحيح أورده الأئمة البخاري فمن دونه في كتبهم الصحاح . والحامل له على ذلك اعتقاده أن حديث ابن عمر يقتضي أن علياً ليس بأفضل الناس بعد عثمان، وليس كذلك بل هو مسكوت عنه . » انتهى كلام الزركشي

(١) «دون أن» (٢) «قوي في القراءة» (٣) «مكرم»

تكن لعلي ، وسيرة في الإسلام هادية ولم يتشبث [١] بسفك دم مسلمٍ وجاءت فيه آثار صحاح : « إن [٢] الملائكة تستحي منه » « وأنه ومن اتبعه على الحق » والذي صح من فضائل علي [فهو] قول رسول [٣] الله ﷺ « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبي بعدي » وقوله عليه السلام « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » وهذه صفة واجبة لكل مؤمن [و] فاضل . وعهده ﷺ [٤] بأن [٥] علياً « لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق » وقد حصل [٦] مثل هذا في الأنصار [رضي الله عنهم] أنه : « لا يبغضهم إلا [٧] منافق لا يؤمن بالله واليوم الآخر » .

٧٣

وأما « من كنت مولاه فعلي مولاه » فلا يصح من طريق الثقات أصلاً . وأما سائر الأحاديث التي تتعلق بها الروافض [٨] فموضوعة ، يعرف ذلك من له أدنى علم بالأخبار [ونقلتها] .

[أفضل الصحابة بعد عمر : طبقة المهاجرين ثم أهل بدر ثم الخ]

[* قال أبو محمد *] ونقول بفضل المهاجرين الأولين بعد عمر بن الخطاب [قطعاً] ، إلا أننا لا نقطع بفضل أحد منهم على صاحبه

---

(١) « يتسبب » (٢) « وأن » (٣) « النبي »
(٤) « عليه السلام » (٥) « أن » (٦) « صح »
(٧) « من يؤمن » (٨) « الرافضة »

كعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون وعلي وجعفر وحمزة وطلحة والزبير ومصعب بن عمير ، وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وسعد وزيد بن حارثة وأبي عبيدة وبلال وسعيد بن زيد وعمار بن ياسر وأبي سلمة وعبد الله[1] بن جحش وغيرهم من نظرائهم ثم بعد هؤلاء أهل العقبة ، ثم أهل بدر ، ثم أهل المشاهد مشهداً مشهداً . وأهل كل مشهد أفضل من أهل المشهد الذي بعده حتى يبلغ[2] الأمر إلى الحديبية . فكل من تقدم ذكره من المهاجرين [والأنصار رضي الله عنهم] إلى تمام بيعة الرضوان فإنا[3] نقطع علي غيب قلوبهم [و] أنهم كلهم مؤمنون صالحون ، ماتوا كلهم على الإيمان والهدى والبر ، كلهم من أهل الجنة ، لا يلج أحد منهم النار البتة لقول الله تعالى : « وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ[4] » وقوله تعالى[5] : « لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ[6] » (الآية) .

٧٤

(١) في الأصل : عبد الرحمن والصواب ما في ط
(٢) « بلغ » (٣) « فإننا »
(٤) سورة الواقعة (٥٦) الآيات : ١٠ — ١٢
(٥) « عز وجل » (٦) سورة الفتح (٤٨) الآية ١٨

[* قال أبو محمد *] فمن أخبر[1] الله عنهم بذلك فلا يحل لأحد أن[2] يتوقف في أمرهم ولا الشك فيهم البتة، ولقول رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة إلا صاحب الجمل الأحمر» ولإخباره عليه السلام «أنه لا يدخل النار أحد شهد بدراً» ثم نقطع على أن كل من صحب رسول الله ﷺ بنية صادقة ولو ساعة فإنه من أهل الجنة لا يدخل النار لتعذيب، إلا أنهم لا يلحقون بمن أسلم قبل الفتح [وذلك لقول الله عز وجل: «لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ ٱلْفَتْحِ] وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ ٱلَّذِينَ أَنْفَقُوا (مِنْ بَعْدُ) وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ ٱللهُ ٱلْحُسْنَىٰ»[3] وقال تعالى: «وَعْدَ ٱللهِ لا يُخْلِفُ ٱللهُ وَعْدَهُ»[4] وقال تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ❀ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا ٱشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ❀ [لا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ

---

(١) «فمن أخبرنا أن الله عزوجل أنه علم ما في قلوبهم رضي الله عنهم وأنزل السكينة عليهم فلا يحل الخ» وهي جملة مشوشة . والاصل واضح (٢) «التوقف»

(٣) سورة الحديد (٥٧) الآية : ١٠

(٤) سورة الروم (٣٠) الآية : ٦

ٱلْمَلَائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ ٱلَّذي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ] »[١] (إلى آخر الآية التي بعدها) فصح بالضرورة أن كل من أنفق (من) قبل الفتح وقاتل فهو مقطوع على غيبهم[٢] [لتفضيل الله تعالى إياهم ، والله تعالى لا يفضل إلا مؤمنًا فاضلاً] وأما من أنفق من بعد[٣] وقاتل فقد كان فيهم منافقون لم يعلمهم رسول الله ﷺ

٥٧

فكيف نحن ، قال عز وجل « وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ [سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ »[٤]

* قال أبو محمد *] ولذلك[٥] لم نقطع على أحد[٦] منهم بعينه ، لكن نقول : كل من لم يكن منهم من المنافقين فهو من أهل الجنة يقينًا لأنهم[٧] وعدهم الله بالحسنى[٨] كلهم ، وأخبر أنه لايخلف وعده ، وأن من سبقت له الحسنى فهو مبعد عن[٩] النار لايسمع حسيسها ، ولا يحزنه الفزع الأكبر ، وهو فيما اشتهى خالد. وهذا نص قولنا والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الأنبياء (٢) الآيات : ١ – ١٠١

(٢) «غيبه» (٣) « أنفق بعد الفتح »

(٤) سورة التوبة (٩) الآية ١٠٢ (٥) ط : فلهذا (٦) ط : كل امرىء

(٧) ط : لأنه (٨) ط : الحسنى (٩) ط : من

[* قال أبو محمد *] : (و) لقد خاب وخسر، من رد قول ربه تبارك[1] وتعالى : أنه رضي عن المبايعين تحت الشجرة «وَعَلِمَ ما في قُلُوبِهِمْ وَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ» وقد علم كل أحد له أدنى علم أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وطلحة والزبير وعماراً والمغيرة بن شعبة [رضي الله عنهم] من أهل [هـذه] الصفة. والخوارج والروافض قد انتظمت الطائفتان الملعونتان (على) البراءة[2] منهم خلافاً لله عز وجل وعناداً له ونعوذ بالله من الخذلان.

[فضل التابعين]

و [* قال أبو محمد * : فهذا قولنا في الصحابة رضي الله عنهم فأما] التابعون ومن بعدهم فلا نقطع على غيبهم واحداً واحداً، إلا من بان منه احتمال المشقة في الصبر للدين ورفض الدنيا بغير[3] عرض استعجله إلا أننا لا ندري على ماذا مات، وإن بلغنا الغاية في تعظيمهم وتوقيرهم والدعاء لهم[4] بالمغفرة والرحمة والرضوان. لكن نتولاهم جملة قطعاً ونتولى كل إنسان منهم بظاهره، ولا نقطع على أحد منهم بجنة (و) لكن نرجو لهم ونخاف [عليهم] إذ لا نص في إنسان منهم بعينه ولا يحل الإخبار عن الله تعالى[5] إلا بنص من عنده. لكن نقول كما قال رسول الله ﷺ :

٧٦

(١) ط : عز وجل (٢) ط : البرئة (٣) ط : لغير

(٤) في ط : كلمة (لهم) بعد (الرضوان) (٥) «عز وجل»

ٱلْمَلَائِكَةُ هٰذا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ] »[1] (إلى آخر الآية التي بعدها) فصح بالضرورة أن كل من أنفق (من) قبل الفتح وقاتل فهو مقطوع على غيبهم[2] [لتفضيل الله تعالى إياهم ، والله تعالى لا يفضل إلا مؤمناً فاضلاً] وأما من أنفق من بعد[3] وقاتل فقد كان فيهم منافقون لم يعلمهم رسول الله ﷺ فكيف نحن ، قال عز وجل « وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ [سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ »[4]

٥٧

* قال أبو محمد *] ولذلك[5] لم نقطع على أحد[6] منهم بعينه ، لكن نقول : كل من لم يكن منهم من المنافقين فهو من أهل الجنة يقيناً لأنهم[7] وعدهم الله بالحسنى[8] كلهم ، وأخبر أنه لايخلف وعده ، وأن من سبقت له الحسنى فهو مبعد عن[9] النار لايسمع حسيسها ، ولا يحزنه الفزع الأكبر ، وهو فيما اشتهى خالد ، وهذا نص قولنا والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الأنبياء (٢) الآيات : ١ — ١٠١

(٢) «غيبه» (٣) « أنفق بعد الفتح »

(٤) سورة التوبة (٩) الآية ١٠٢ (٥) ط : فلهذا (٦) ط : كل امرىء

(٧) ط : لأنه (٨) ط : الحسنى (٩) ظ : من

أن يقول : هؤلاء الفساق الأخابث أفضل من كل فاضل في القرن الثالث ومن بعده كسفيان الثوري والفضيل بن عياض ومسعر [بن كدام] وشعبة[1] ومنصور بن المعتمر ومالك والأوزاعي والليث وسفيان بن عيينة ووكيع و[ابن] المبارك والشافعي وأحمد ابن حنبل وإسحاق بن راهويه وداود بن علي [رضي الله عنهم] (وغيرهم) وهذا مالا يقوله أحد ولا[2] يبعد أن يكون في زماننا وفيمن يأتي بعدنا من هو أفضل (من) رجل (أفضل) من التابعين

٧٧

- والجنود لو أنهم تركوا الفتن تنتشر حتى تلتهم الأخضر واليابس .

ولا ندري أيسر ابن حزم أن يترك الامر لجماعة الحسين رضي الله عنه بالكوفة ، ويترك حبل ابن الزبير على غاربه في الحجاز والخليفة الأموي قائم بدمشق فيكون لنا خليفتان في وقت معاً ؟

وإذا كان الصحابيان الجليلان الحسين وابن الزبير رضي الله عنهما ، قد خرجا اجتهاداً منهما ، فإن الخليفة القائم حينئذ قد أمضى بالتصدي لهما شريعة الله . وهو إنما أمر بتلافي الامر ورتق الفتق قبل الساعة .

وابن حزم — على تجربه ودقته وسداد أحكامه وسعة علمه - هفا هذه الهفوة ليدل على أن العصمة لله وحده ، ولو أنها تكون لبشر لكان هو ممن يستحقها رحمه الله .

وبعد فليس من دلائل الحق في رأي أخذ الكثرة به ، والتاريخ الصحيح لا يؤخذ بالتصويت . والله وحده هو الذي يحكم على خواتم الناس ويحاسبهم سبحانه على نياتهم في اجتهادهم ، لا على آراء الناس فيهم .

(١) في الأصل : وشعيب بن منصور . وهو خطأ والتصحيح عن ط

(٢) « ما »

عند الله تعالى[١] ، إذ لم يأت في المنع من [ذلك] نص ولا دليل أصلاً . والحديث المأثور في أويس القرني لا يصح لأن مداره على أسير بن جابر وليس بالقوي . وقد ذكر شعبة أنه سأل عمرو بن مرة وهو كوفي قرني مرادي من أشراف[٢] مراد وأعلمهم بهم عن أويس القرني ، فلم يعرفه في قومه . وأما الصحابة [رضي الله عنهم] فخلاف[٣] هذا فلا[٤] سبيل [إلى] أن يلحق أقلهم درجة [درجة] أحد من أهل الأرض [وبالله تعالى التوفيق] .

---

(١) «عز وجل» (٢) «أشرف» (٣) «فبخلاف» (٤) «ولا»

خاتمة

[في أنه : لا فضل للقرابة في الإسلام
ومناقشة النصوص التي يؤلها الجاهلون]

[* قال أبو محمد *] : وذهب بعض الروافض على[1] أن لقرابة[2] رسول الله ﷺ فضلاً بالقرابة فقط واحتج بقول الله عز وجل[3] : « إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ • ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ »[4] وبقوله تعالى[5] : « قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ »[6] وبقوله تعالى : « وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ »[7] .

[* قال أبو محمد * : و] هذا كله لا حجة فيه وأما إخباره بقوله تعالى إنه : « أصطفى آل إبراهيم وآل عمران عَلَى العالمين » فإنه لا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما : إما أن يعني كل مؤمن فقد قال ذلك بعض الناس[8] ، أو يعني مؤمني أهل بيت إبراهيم وعمران

---

(١) « إلى » (٢) « لذوي قرابة » (٣) « تعالى »
(٤) سورة آل عمران (٤) الآيتان : ٣٣ ، ٣٤
(٥) « عز وجل » (٦) سورة الشورى (٤٢) الآية : ٢٣
(٧) سورة البقرة (٢) الآية : ١٢٩
(٨) « العلماء »

٧٨

لا يجوز غير هذا، لأن آزر والد إبراهيم عليه السلام كان كافراً عدو الله[1] (تعالى) لم يصطفه الله تعالى إلا لدخول النار. فإن أراد الوجه (الأول) الذي ذكرنا لم نمانعه ولا ننازعه في أن موسى وهارون (عليهما السلام) من آل عمران وأن[2] إسماعيل وإسحاق ويعقوب[3] ويوسف من آل إبراهيم مصطفون العالمين، فأي حجة[4] هاهنا لبني هاشم؟ فإن ذكروا الدعاء المأثور[5] وهو اللهم صل على محمد وعلى آل محمد (كما صليت على على آل إبراهيم) وبارك على محمد وعلى آل محمد (كما باركت على آل إبراهيم) فالقول في هذا كما قلنا ولا فرق، وهذا دعاء لكل مؤمن. وقد قال تعالى «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ[6]» وقال [رسول الله ﷺ] «اللهم صل على محمد وعلى آل أبي أوفى» فهذا هو الدعاء لهم] بالصلاة على كل مؤمن ومؤمنة بلا خلاف. وكذلك الدعاء في التشهد المفترض في كل صلاة من قول المصلي[7] «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» [ف] هذا

---

(١) «عدواً لله» (٢) في الأصل: فإن. في ط: وآل
(٣) «ويوسف ويعقوب» (٤) في الأصل: درجة والتصحيح عن ط
(٥) «المأمور به» (٦) سورة التوبة (٩) الآية: ١٠٤
(٧) «المصطفي»

السلام على كل مؤمن ومؤمنة ، فاستوى بنو هاشم وغيرهم في إطلاق الدعاء (لهم) بالصلاة عليهم و [بـ] السلام عليهم فلا[1] فرق . وقال تعالى « وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ[2] » فوجب (أن) صلوات الله تعالى على كل مؤمن (ومؤمنة) صابر (وصابرة) فاستوى في هذا كله بنو هاشم وقريش والعرب والعجم (و) من كان (من) جميعهم بهذه الصفة . وأيضاً فيلزم من احتج بقوله تعالى « إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ[3] » أن يقول إن من أسلم من الهارونيين من اليهود أفضل من بني هاشم وأشرف وأولى بالتقديم لأنه من آل إبراهيم[4] وآل عمران وفيهم ورد النص .

٧٩

[* قال أبو محمد *] فصح يقيناً أن الله تعالى[5] إنما أراد بذلك [الأنبياء] فقط ويبين هذا بياناً شافياً[6] قول الله تعالى حاكياً عن قول إبراهيم أنه قال : « وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي

---

(١) « ولا » (٢) سورة البقرة (٢) الآيات : ١٥٥ — ١٥٧

(٣) سورة آل عمران (٣) الآية : ٣٣

(٤) « من آل عمران ومن آل إبراهيم »

(٥) « عز وجل » (٦) « جلياً »

الظّالمين [١] » فسوى الله تعالى بين الظالمين من ذرية إبراهيم عايه السلام] و (بين) الظالمين من غير ذريته [٢] وقال الله تعالى [٣] « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ [وَالَّذِينَ آمَنُوا] [٤] » فخص الله تعالى بولايته إبراهيم (النبي) صلى [٥] الله عليه وسلم (و) من اتبع إبراهيم كائناً من كان ، فدخل في هذا كل مؤمن ومؤمنة ولا فضل .

وأمّا قول الله تعالى [٦] « قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى » فهذا حق على ظاهره وإنما أراد عليه السلام من قريش أن يودوه لقرابتهم [٧] منه، ولا يختلف أحد من الأمة في أنه ﷺ [٨] لم يرد من المسلمين قط [٩] أن يؤذوا أبا لهب وهو عمه ولا شك [في] أنه عليه السلام أراد من المسلمين مودة عمار [١٠] وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة فأما قول [١١] الله تعالى عن

٨٠

(١) سورة البقرة (٢) الآية : ١٢٤ (٢) « ذرية غيره »

(٣) « عز وجل » (٤) سورة آل عمران (٣) الآية : ٦٨

(٥) « عليه السلام » (٦) « عز وجل »

(٧) « لقرابته منهم » (٨) « عليه السلام »

(٩) في ط (قط) قبل كلمتين

(١٠) ط : بلال وعمار

(١١) ط : فأما قوله عز وجل

إبراهيم عليه السلام إنه قال : « (رَبَّنا) وَٱبْعَثْ فيهِمْ رَسولاً منهُمْ »[1] فقد قال عز وجل « وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فيها نَذيرٌ »[2] وقال تعالى : « وما أَرْسَلْنا مِنْ رَسولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ »[3] فاستوت الأمة[4] كلها في هذه الدعوى بأن يبعث فيهم رسولاً منهم ممن هم قومه . فإن احتج محتج بالحديث الثابت الذي فيه : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من من بني هاشم . » فمعناه ظاهر وهو أن[5] الله تعالى اختار كونه عليه [الصلاة و] السلام من بني هاشم وكون بني هاشم من قريش وكون قريش من كنانة وكون كنانة من بني إسماعيل كما اصطفى أن يكون موسى من بني لاوي وأن يكون بنو لاوي من بني إسحاق عليه السلام ، وكل نبي من عشيرته التي هو منها ولا يجوز غير هذا البتة [ونسأل][6] من أراد حمل هذا الحديث على غير هذا المعنى : أيدخل أحد من بني هاشم أو من قريش أو

---

(١) سورة البقرة (٢) الآية : ١٢٩

(٢) سورة فاطر (٣٥) الآية : ٢٤

(٣) سورة إبراهيم (١٤) الآية : ٤

(٤) ط : الأمم (٥) ط : أنه

(٦) في الأصل : وقال

٨١

من كنانة أو من إسماعيل النار أم لا ؟ فإن أنكروا هذا كفروا وخالفوا القرآن[١] والإجماع والسنن ، وقد قال عليه السلام « أبي وأبوك في النار ، وإن أبا طالب في النار » وجاء القرآن [بأن أبا لهب في النار وسائر كفار قريش [في النار كذلك] قال الله تعالى « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ ما أغنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ ناراً ذاتَ لَهَبٍ »[٢] فإذا أقر بأنه قد يدخل النار منهم من استحق[٣] أن يدخلها صحت المساواة بينهم وبين سائر الناس .

[* قال ابو محمد *] : ويكذب هذا الظن الفاسد قول رسول الله ﷺ « يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً [يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً] يا عباس ابن[٤] عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً [يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً] .

(تسوية الإسلام بين الناس كافة وكلام في القرابة)

وأبين من هذا كله قول الله تعالى « يا أَيُّها النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثىٰ وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ

---

(١) « الاجماع والقرآن »

(٢) سورة اللهب (١١١) الآيات : ١ — ٣

(٣) « يستحق » (٤) في الأصل : يابن

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ »[١] وقوله تعالى : « لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ »[٢] وقوله تعالى : « [وَاخْشَوْا] يَوْمًا[٣] لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئًا »[٤] وقال تعالى وذكر عاداً وثمود[٥] وقوم نوح وقوم لوط ثم قال (تعالى) : « أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ »[٦]

٨٢ فصح ضرورة أنه لا ينتفع أحد بقرابته من رسول الله صلى الله عليه (وسلم) ولا من نبي من الأنبياء والرسل [عليهم السلام] ولو كان[٧] ابنه أو أباه أو أمه . وقد نص الله تعالى في ابن نوح ووالد إبراهيم وعم محمد [على رسل الله الصلاة والسلام] مافيه الكفاية . وقد نص الله تعالى على أن « من أنفق من قبل الفتح وقاتل أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » ، فصح ضرورةً أن بلالاً وصهيباً والمقداد وعما[راً]

---

(١) سورة الحجرات (٤٩) الآية : ١٣ (٢) سورة الممتحنة (٦٠) الآية : ٣ (٣) في الأصل : يوم (٤) سورة لقمان (٣١) الآية : ٣٣ (٥) في الأصل وفي ط : ثموداً

(٦) سورة القمر (٥٤) الآية : ٤٣

(٧) « ولو أن النبي ابنه أو أبوه وأمه نبية »

وسالماً [1] وسلمان أفضل من العباس وبنيه عبد الله والفضل وقثم ومعبد وعبيد الله وعقيل بن أبي طالب والحسن والحسين [رضي الله عن جميعهم] بشهادة الله تعالى ، فإن هذا لاشك فيه ، ولاجزاء في الآخرة إلا على عمل ، ولا ينتفع عند الله تعالى بالأرحام ولا بالولادات ، وليست الدنيا دار جزاء ، فلا [2] فرق بين هاشمي وقرشيٍ وعربي وعجمي وحبشي وابن زنجيةٍ (لغيـة) والكرم والفوز لمن اتقى الله تعالى [3] [حدثنا محمد بن سعيد بن بيان [4] أنبأنا أحمد بن عبد الله البصير [5] حدثنا قاسم بن أصبغ حدثنا عبد السلام بن الخش ؟ حدثنا أحمد بن [6] المثنى حدثنا عبـد الرحمن المهدي [7] حدثنا سفيان الثوري عن أبي إسحاق السبيعي عن حسان ابن فايد العبسي قال] قال عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] :

---

(١) في الأصل : سالم (٢) في الأصل : ولا (٣) « عز وجل»

(٤) كذا وصوابها : نبات كما في بغية الملتمس (رقم ١٣١) تاريخ علماء الأندلس (رقم ١٧١٠)

(٥) كذا وصوابه : عبد الله بن عبد البصير كما في تاريخ علماء الأندلس(رقم١٨٧)

(٦) كذا في المطبوعة ولم نجد هذا الاسم في كتب الطبقات وإنما وجدنا محمد بن المثنى هو الذي يروي عن عبد الرحمن بن مهدي

(٧) الظاهر أن (ابن) سقطت في الطبع وتمام الاسم عبد الرحمن ابن مهدي وهو الذي يروي عن سفيان الثوري

«كرم الرجل دينه ، وحسبه خلقه وإن كان فارسياً أو نبطياً» .

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وحسبنا الله تعالى ونعم الوكيل وفرغ من كتابته وقت صلاة العصر يوم السبت سابع عشرين من رجب الفرد الحرام سنة خمس وخمسين وسبعمائة أحسن الله تقضيها بمنه وكرمه .

تنبيه :

الطبعة التي اعتمدناها في المقابلة من كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) هي الطبعة الأولى (مصرسنة ١٣١٧ هـ)

ذيل

في تراجم الأعلام الوارد ذكرهم في الرسالة(١)

إبراهيم بن محمد بن عبد الله التيمي

قاضي البصرة . وكان يعمل في بستانه وهو قاض فإذا جاء الخصمان نظر في أمرهما ثم عاد إلى حاله . وكان رجلاً صالحاً ثقة لم يعلم عنه إلا الجميل .

مات سنة ٢٥٠ هـ وهو على القضاء .

---

(١) انظر خطتنا في هذه التراجم في الصفحتين ١٥٥ ، ١٥٦ من هذا الكتاب هذا وقد فاتنا التنويه بالمصادر في بعض التراجم فليرجع فيها القارئ إذا شاء إلى كتب الطبقات والأعلام وخاصة : الطبقات الكبير لابن سعد ، وفيات الأعيان ، الإصابة ، أسد الغابة ، تهذيب التهذيب ، تذكرة الحفاظ ، شذرات الذهب ... الخ

أما الأعلام الذين لم أعثر لهم على ترجمة فهم : أحمد بن علي القلانسي ، أحمد بن محمد الأشقر ، أحمد بن محمد الخوزي ، عبد السلام الخشني ؟ ، عبد الوهاب بن قيس ، عيسى بن حاضر ، محمد بن أيوب الرقي الصموت ، يحيى بن يحيى بن خالد ، وأكثرهم ورد اسمه في سند حديث .

إبراهيم بن محمد بن عرعرة السامي أبو إسحاق البصري نزيل بغداد
وإمام من حفاظ الحديث ، صدوق ثقة ، معروف بالحديث
مشهور بالطلب . مات سنة ٢٣١ هـ .

ابراهيم النخعي أبو عمران الكوفي الفقيه . محدث مشهور ويقال
إنه سمع من عائشة . ثقة صالح . كان مفتي أهل الكوفة ،
رجلاً صالحاً فقيهاً متوقيا قليل التكلف ولد سنة ٥٠ هـ
ومات مختفياً من الحجاج سنة ٩٦ هـ .

أحمد بن إبراهيم [لم نجد الكندي كما في الأصل إنما وجدنا الكلاعي
فأثبتنا ترجمته لاحتمال التحريف] :
من أهل قرطبة يكنى أبا عمر ، فقيه حافظ للمسائل عاقد للشروط ،
توفي فجأة سنة ٣٩١ هـ وأثنى الناس عليه حين وفاته ثناءً حسناً .
تاريخ علماء الأندلس للأزدي ١ : ٥٧

أحمد بن الحسين أبو عمر التجيبي ، من أهل قرطبة ولد سنة ٣٨٩ هـ
وسكن إشبيلية عني بالعلم وسمع من الشيوخ وكان حسن
الإيراد للأخبار فصيح اللسان ذا نباهة وجلالة . نظر
في الأحكام بقرطبة أيام الفتنة ثم صرف عنها .
وتوفي بسرقسطة سنة ٤٥٩ هـ .
الصلة لابن بشكوال رقم الترجمة ١٢٥

أحمد بن حنبل أحد الأئمة الأربعة وإمام الدنيا في زمانه، حافظ ثقة مأمون عظيم الورع قوي الدين لم يكن للإسلام مثله صلابة وإخلاصاً . وقصة محنته أشهر من أن تذكر وقد صبر رحمه الله فيها صبر النبيين وثبت على ما يعتقد أنه الحق . ولد سنة ١٦٤هـ ومات ببغداد سنة ٢٤١ هـ فحزر بعضهم من صلى عليه فكانوا (٨٦٠) ألفاً بين رجل وامرأة وكان حجاج ابن الشاعر يقول : « ما رأت عيناي روحاً في جسد أفضل من أحمد بن حنبل » أفرد سيرته بالتأليف شيخ الإسلام الهروي وابن الجوزي .

أحمد بن عبد الله أبو عمر بن عبد البصير الجذامي القرطبي، سمع من قاسم بن أصبغ، له معرفة بالحديث ووقوف على أحوال نقلته وكان مقلا . توفي سنة ٣٨٨ هـ .

تاريخ علماء الأندلس للأزدي رقم الترجمة ١٨٧

أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار . محدث ثقة مشهور وله مسندان في الحديث كبير وصغير مات بالرملة سنة ٢٩٢ هـ .

الأعلام

أحمد بن عمرو بن عبد الله الأموي (ولاء) محدث ثقة ثبت صالح فقيه مات سنة ٢٥٠ هـ

أحمد بن فتح أبو القاسم المعافري القرطبي المعروف بابن الرسان .
ولد سنة ٣١٩ هـ ورحل إلى المشرق وحج ولقي العلماء وأخذ
عنهم . احترف التجارة و كان ماهراً في الفرائض وصنف
فيها وهو من شيوخ ابن عبد البر عرف بالصلاح والهداية
ومات مختفياً بسبب مال طلب منه سنة ٤٠٣ هـ .

الصلة رقم الترجمة ٤١

أحمد بن الفضل الدينوري . دخل الأندلس قبل سنة ٣٥٠ هـ وحدث
بها جميع ما قرأه على أبي جعفر محمد بن جرير الطبري
من كتبه في التفسير والتاريخ .

بغية الملتمس رقم ٤٥٣

احمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي أبو عمر الحافظ الإمام المقرئ .
ولد بقرطبة سنة ٣٤٠ هـ ورحل إلى القيروان وإلى الحجاز
حيث حج وطلب العلم ورجع إلى الأندلس بعلم جم .
وهو من شيوخ ابن حزم وعنه أخذ ابن عبد البر صاحب
(الاستيعاب) و كان رأساً في علم القرآن، ذا عناية تامة بالحديث
ومعرفة الرجال، وسيفاً مجرداً على أهل الأهواء والبدع ، قامعاً
لهم ، غيوراً على الشريعة ، شديداً في ذات الله ، أقرأ
الناس الحديث وأمهم في المسجد ثم خرج إلى الثغر فتجول

فيه وانتفع الناس بعلمه وقصد بلده طلمنكة في آخر عمره ·
وهو واحدها في علم القرآن العظيم : قراءاته وإعرابه
وأحكام ناسخه ومنسوخه ومعانيه · وجمع كتبا حسانا
على مذهب أهل السنة · «وكان مقدما في المعرفة والفهم
على هدي وسنة واستقامة وكان سيفا مجرداً على أهل
الأهواء والبدع قامعاً لهم غيوراً على الشريعة ، شديداً
في ذات الله» توفي ببلده سنة ٤٢٩ هـ ·

تذكرة الحفاظ والصلة ٣ : ٢٨٠

أسامة بن زيد بن حارثة الصحابي الجليل حِب رسول الله وابن حبه ·
وأمه أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ · أمّره رسول الله
على جيش فيه جلة المهاجرين والأنصار ومات فأنفذ أبو
بكر بعث أسامة وسن أسامة يومئذ دون العشرين ·
عاش حتى أدرك عهد معاوية وكان قد اعتزل الفتن كلها ·
وسكن المزة من قرى دمشق ·

ولد قبل الهجرة بعشر سنين ومات بالمدينة سنة ٥٤ هـ ·

أبو إسحاق السبيعي عمرو بن عبد الله · ولد لسنتين بقيتا من خلافة
عثمان كوفي تابعي ثقة ، راوية مكثر للحديث · وعده
بعضهم من المدلسين · مات سنة ١٢٩ وهو ابن ٩٦ سنة ·

تهذيب التهذيب

أسيد بن حضير أبو يحيى بن سماك بن عتيك الأنصاري . أحد النقباء ليلة العقبة . كان شريفاً في قومه كاملاً من أفاضل الناس . مات في عهد عمر .

أسير بن جابر ويقال : يسير بن عمرو ، الكوفي . أدرك زمن النبي ﷺ وقيل : « له رؤية »

ولد في مهاجر النبي ﷺ وقبض النبي وله عشر سنين وكان عريفاً في زمن الحجاج . راوية ثقة مات سنة ٨٥ هـ [هناك بهذا الاسم تابعي أيضاً]

الإصابة

أسيد بن جارية حليف بني زهرة ، صحابي أسلم يوم الفتح وشهد حنيناً وأعطاه النبي من غنائمها مئة من الإبل .

أبو أمامة الباهلي صدَيّ بن عجلان بن وهب الباهلي الصحابي . شهد صفين مع علي ثم سكن (حمص) من الشام وهو آخر من مات فيها من الصحابة .

كان عمره في حجة الوداع ثلاثين سنة ومات سنة ٨٦ هـ .

أنس بن مالك الصحابي الأنصاري خادم رسول الله ﷺ ، خدمه عشر سنين واستفاد بقربه من النبي علماً غزيراً . روى عن النبي أكثر من ألف حديث .

مات بالبصرة سنة ٩٠ وقد جاوز عمره المئة سنة وهو آخر من مات بها من الصحابة .

الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو ولد سنة ٨٨ ومات ١٥٨هـ .

إمام أهل الشام، ومناقبه أكثر من أن تحصى وقد عدوا الأئمة في الحديث أربعة : الأوزاعي ومالك والثوري وحماد ابن زيد . ولم يكن في الشام أعلم منه وإليه فتوى الفقه لأهل الشام . روى عن خلق كثير وروى عنه مثلهم وممن روى عنه مالك الإمام وقد شهد فيه وفي الثوري فقال : « أحدهما أكثر علماً من صاحبه ولا يصلح للإمامة (الخلافة) والآخر يصلح للإمامة . » وقال أبو إسحاق الفزاري : « ما رأيت مثل رجلين : الأوزاعي والثوري ، فأما الأوزاعي فكان رجل عامة والثوري كان رجل خاصة . ولو خيرت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعي لأنه كان أكثر توسعاً وكان والله إماماً إذ لا نصيب به اليوم إماماً . ولو أن الأمة أصابتها شدة والأوزاعي فيهم لرأيت لهم أن يفزعوا إليه .» وقال ابن المبارك : « لو قيل : اختر لهذه الأمة لاخترت الثوري والأوزاعي ، ثم لاخترت الأوزاعي لأنه أرفق الرجلين . »

وكان رحمه الله مع سعة روايته وعظيم ورعه ، على جانب عظيم من خشية الله والاجتهاد في عبادته والرحمة بالناس كافة حتى إنهم ذكروا أنه لما بلغه حيف وقع ببعض أهل الذمة صار يبكي رحمة لهم . وانظر مناقبه في الكتاب الذي نشره العلامة الأمير شكيب أرسلان: «حسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي»

مات مرابطاً بمدينة بيروت عن سبعين سنة .

أبو أوفى علقمة بن خالد الأسلمي ، مشهور بكنيته ، صحابي ثبت ، جاء في الصحيح : كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللهم صل على آل فلان ، فأتاه أبو أوفى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبي أوفى » وهو من أصحاب الشجرة .

الإصابة ٤ : ٢٦٣

أويس القرني هو ابن عامر وقيل ابن عمرو ، يمني عابد زاهد متقشف زعموا أنه عاش حتى شهد صفين وقتل في صف علي . وزعم بعضهم أنه مات بدمشق ، وآخر أنه مات على جبل أبي قبيس ويرجح بعض العلماء كونه شخصاً أسطورياً ، وآخرون يعتقدون وجوده ويصححون ما روي في حقه من آثار .

أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد الخزرجي . شهد بيعة العقبة وغزوة بدر والمشاهد مع رسول الله ﷺ . وانقطع إلى الجهاد حتى توفي في غزو المسلمين للقسطنطينية حول سنة ٥٢ هـ . ومزاره هناك معروف .

الباقلاني محمد بن الطيب بن محمد ، أبو بكر ، قاض من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة . ولد في البصرة وسكن بغداد فتوفي فيها . كان جيد الاستنباط سريع الجواب . ومن كتبه (إعجاز القرآن) . توفي سنة ٤٠٣ هـ .

الاعلام

بقي بن مخلد ولد في رمضان سنة ٢٠١ هـ — وتوفي في جمادى الآخرة سنة ٢٧٦ هـ .

جاء في نفح الطيب : ١ : ٥٨٠ ما يلي (بتصرف يسير) : بقي بن مخلد بن يزيد أبو عبد الرحمن القرطبي الأندلسي الحافظ أحد الأعلام وصاحب التفسير والمسند ، أخذ عن يحيى بن يحيى الليثي ومحمد بن عيسى الأعشى وارتحل إلى المشرق ولقي الكبار وسمع بالحجاز مصعباً الزهري وإبراهيم بن المنذر وطبقتها وبمصر يحيى بن بكير وزهير بن عباد وطائفة

وبدمشق ... وببغداد أحمد بن حنبل وطبقته وبالكوفة ...
وأبا بكر بن شيبة وطائفة وبالبصرة أصحاب حماد بن زيد
وعني بالأثر عناية عظيمة لا مزيد عليها وعدد شيوخه
٢٣٤ رجلاً وكان إماما زاهداً صواماً صادقاً كثير التهجد
مجاب الدعوة قليل المثل مجتهداً لا يقلد بل يفتي بالأثر اﻫ.
وقد مرت بك شهادة ابن حزم فيه وفي تصانيفه ص ٤٧،٤٦

بلال بن رباح وأمه حمامة ، صحابي جليل من الحبشة .
كان من أول المسلمين إسلاما وعذب في مكة كما عذب
غيره من المستضعفين وتحمل في سبيل الله أذى كثيراً ولم
يفتن عن دينه ، اشتراه أبو بكر وأعتقه وله ولاؤه .
هاجر وشهد مع النبي بدراً والمشاهد كلها وكان مؤذن
رسول الله ﷺ . وانتقل بعد وفاة النبي إلى دمشق وسكنها .
ولما توافى عمر والمهاجرون إلى دمشق وحضروا الصلاة في
مسجدها طلب عمر إلى بلال أن يؤذن — وكان لم يؤذن بعد
وفاة النبي قط — فأذن فلم يبق أحد ممن حضر رسول
الله وبلال يؤذن له إلا بكى حتى اخضلت لحاهم وكان
عمر أكثرهم بكاء لأنهم ذكروا بأذانه النبي ﷺ وأيامه .
مات سنة (٢٠) ﻫ وله بضع وستون سنة ودفن بمقبرة باب
الصغير بدمشق .

نعيم بن حذلم أبو سلمة الضبي الكوفي من أصحاب ابن مسعود وأدرك أبا بكر الصديق وعمر رضى الله عنهما . ثقة قليل الحديث .

جابر بن عبد الله السلمي الأنصاري الخزرجي وهو آخر من مات بالمدينة ممن شهد العقبة الثانية شهدها مع أبيه وهو صبي وشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها إلا بدراً وأحداً فقد منعه أبوه لحداثته . ثم شهد صفين مع علي ابن أبي طالب ، وعمي آخر عمره ومات سنة ٧٤ هـ وقد نيف على التسعين .

الجبائي(١) أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي محمد بن عبد الوهاب المتكلم المشهور . كان هو وأبوه محمد من المعتزلة ولهما مقالات على مذهب الاعتزال ، وكتب الكلام مشحونة بمذاهبهما واعتقادهما وتوفي سنة ٣٢١ ببغداد

وفيات الأعيان ١ : ٥٢٤

الجبائى محمد بن عبد الوهاب الجبائي . رئيس المعتزلة بالبصرة وأحد أئمة علماء الكلام في الإسلام ، بينه وبين الأشعري مناظرات عدة .

---

(١) نظراً للاضطراب في اسم الجبائي الوارد في الأصل المخطوط وفي المطبوع ترجمنا لأبي هاشم هذا أولا بيه محمد وإن كنا نرجح أن المقصود في الرسالة هو عبد السلام .

وإليه تنسب الطائفة الجبائية من المعتزلة وهم الذين اتبعوا مقالات وآراء له خاصة انفرد بها عن المعتزلة .

ولد سنة ٢٣٥ هـ ومات سنة ٣٠٣ هـ

وفيات الأعيان

الجريري لقب رجلين : سعيد وعباس ، وكلاهما روى عن شعبة :

١ - سعيد بن إياس الجريري البصري وهو رجل صالح حسن الحديث ، تغير حفظه قبل موته . توفي سنة ١٤٤هـ .

تهذيب التهذيب ٤ : ٥

٢ - عباس بن فروخ الجريري أبو محمد المصري ، محدث ثقة صدوق صالح الحديث مات كهلاً بعد العشرين ومئة .

تهذيب التهذيب ٥ : ١٢٥

جعدة بن هبيرة بن أبي وهب المخزومى ، وأمه أم هانئ بنت أبي طالب صحابي ، وقيل تابعي ولد على عهد النبي وليست له صحبة روى عن خاله علي ، وولاه علي خراسان و كان فقيهاً .

تهذيب التهذيب ٢ : ٨١

جعفر بن أبي طالب أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة . وقدم على رسول الله ﷺ من أرض الحبشة فقبله الرسول بين عينيه وقال : « ما أدري أنا بقدوم جعفر أسر أو بفتح خيبر » وكانا في يوم واحد . واستعمله رسول الله على غزوة

موئتة فأبلى في المعركة بلاءً حسناً : قال أحد بني مرة بن عوف : « لكأني أنظر إلى جعفر يوم موئتة حين اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم تقدم فقاتل حتى قتل . قطعت يمينه في القتال فأخذ الراية بشماله فقطعت فحضنها إلى صدره فقتل وسنه (٤١) سنة ولقب لذلك بالطيار وبذي الجناحين .

وكان كريماً قال أبوهريرة : « خير الناس للمساكين جعفر ابن أبي طالب ، ينقلب فيطعمنا ما كان في بيته ، حتى إن كان ليخرج إلينا العكة ليس فيها شيء فيشقها » قال أبوهريرة : « ما احتذى النعال ولا انتعل ولا ركب الكور أحد بعد رسول الله ﷺ خير من جعفر بن أبي طالب »

جميل بن بصرة الغفاري ، صحب النبي ﷺ هو وأبوه وجده وروى عنه . ومنهم من يضبطه بالحاء .

الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله الضبي النيسابوري المشهور بالحاكم من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه .

ولد في نيسابور سنة ٣٢١ ﻫ وطوف في العراق والحجاز وبلاد خراسان وما وراء النهر وأخذ عن ألفي شيخ وولي قضاء نيسابور ثم قضاء جرجان ، من أعلم الناس بصحيح الحديث

وتمييزه . وصنف كتباً كثيرة جداً منها : (تاريخ نيسابور) وهو على رأي السبكي من أعود التواريخ على الفقهاء بفائدة ، ومن نظره عرف تفنن صاحبه في جميع العلوم . و كتابه (المستدرك على الصحيحين) و (الإكليل) و (الأمالي) ، و (تراجم الشيوخ) و (الصحيح) في الحديث . توفي بنيسابور سنة ٤٠٥ ﻫ

الأعلام

حبش بن دلجة أحد وجوه أهل الشام ، من الأردن ، استعمله معاوية وابنه يزيد . وهو أول أمير أكل على منبر رسول الله فقد ذكروا : أنه أكل التمر من مكتله ورمى بنواه في وجوه القوم وقال : « والله إني لأعلم أنه ليس بموضع أكل ، ولكنني أحببت أن أذلكم لخذلانكم أمير المؤمنين (يعني عثمان) »

قتل بالربذة أيام ابن الزبير ، ودخل قاتله المدينة ووقف عَلَى برذون أشهب وعليه ثياب بيض فما لبث أن اسودت ثيابه ودابته مما مسح الناس به ومما صبوا عليه من الطيب

اﻫ باختصار عن تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٤٠

حسان بن فائد العبسى كوفي أدرك عمر بن الخطاب وروى عنه وهو شيخ من ثقات التابعين قليل الحديث .

الحسن بن على أحد سيدي شباب أهل الجنة ، وأشبه الناس خلقاً برسول الله ﷺ بويع له بعد مقتل أبيه علي ثم أمضى الصلح بينه وبين معاوية حقناً للدماء سنة ٤١ .

وتوفي بالمدينة حول سنة (٥٠) هـ

ابو على الحسن بن على الفاسى « كان من أهل العلم والفضل مع العقيدة الخالصة والنية الجميلة ، لم يزل يطالب ويختلف إلى العلماء محتسباً حتى مات . »

قال له ابن حزم: « يا أبا علي ، متى تنقضي قراءتك على الشيخ ؟ » فأجابه: « إذا انقضى أجلي » .

قال فيه ابن حزم : « كان رحمه الله ناهيك به سرواً وديناً وعقلاً وعلماً وورعاً وتهذيباً وحسن خلق »

الصلة رقم ٣١٧

الحسين بن على بن أبي طالب ، السبط الشهيد ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ .

ولد بالمدينة سنة (٤) هـ ونشأ خير نشأة في كنف أبيه علي وظل جده النبي ﷺ . ولما مات أخوه الحسن كتبت إليه

شيعته بالعراق تستقدمه وتبايعه فلما كان بكربلاء اصطدم بجيش عبيد الله بن زياد عامل يزيد ، وكانت مقتلة فاجعة استشهد فيها الحسين رحمه الله سنة ٦١ هـ .

حفصة بنت عمر بن الخطاب أم المؤمنين ، ولدت قبل المبعث بخمس سنين : وكانت تحت حصن بن حذافة فقتل عنها بأحد ثم بنى النبي ﷺ بها بعد عائشة . ولزمت بيتها بعده لم تغادره إلا إلى الحج وتوفيت سنة ٤١ هـ .

حمام بن احمد أبو بكر بن الأطروش القاضي ولد بقرطبة سنة ٣٥٧ هـ .

كان شديد الانقباض ، لا يدري أحد سلم من الفتن سلامته مع طول مدته فيها ، فلم يشارك فيها قط بحضر ولا يد ولا لسان ، مع ذكائه وحزمه وقيامه بكل مايتولى ، حسن الشعر ، حسن الخلق ، فكه المحادثة ، كثير النسخ ، جيد الخط ، ولي القضاء .

قال فيه ابن حزم : « كان واحد عصره في البلاغة وفي سعة الرواية ، ضابطاً لما يقيده . »

توفي بقرطبة سنه ٤٢١ هـ .

الصلة رقم ٣٤٧

حمزة بن عبد المطلب عم النبي وأخوه من الرضاعة ، لأن ثويبة مولاة أبي لهب أرضعت النبي وأرضعت حمزة . ولد قبل رسول الله ﷺ بسنتين وأسلم في السنة الثانية من البعثة ، وهاجر إلى المدينة وشهد غزوة بدر وقتل في غزوة أحد سنة ثلاث بعد أن أبلى فيها البلاء الحسن وقتل أكثر من ثلاثين من المشركين . لقب بأسد الله وسيد الشهداء . ودفن حيث قتل . قتله وحشي وبقي حزن النبي ﷺ عليه أمداً طويلاً .

حميد الطويل أبو عبيدة الخزاعي ولاء ، محدث بصري صدوق ثقة . مات وهو قائم يصلي سنة ١٤٢ هـ عن خمس وسبعين سنة .

خالد الحذاء أبو المنازل بن مهران البصري . مولى قريش ، رأى أنس بن مالك . ولم يكن بحذاء ولكن كان يجلس إليهم فلقب به . محدث كثير الحديث ثبت ثقة . استعمل على العشور بالبصرة . وتوفي سنة ١٤١ هـ .

خالد بن الوليد القائد الأشهر والصحابي الجليل ، فاتح الشام والعراق ، وأيمن القواد نقيبة على الإطلاق ، أحبته الجيوش وغلت في الاعتقاد فيه حتى خيف عليها الفتنة .

هو من بني مخزوم أسلم بعد الحديبية وشهد مؤتة والفتح وحنيناً ولقبه رسول الله : « سيف الله »

ولم ينبغ في العرب ولا غيرهم أبرع منه في قيادة الجيوش ولا أشجع ولا أحذق .

لما حضرته الوفاة بكى وقال : « لقيت كذا و كذا زحفاً وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح وها أنذا أموت على فراشي .. فلا نامت أعين الجبناء »

مات بحمص أو بالمدينة على خلاف بينهم في ذلك سنة ٢١ ﻫ وعمره حول الستين .

خديجة بنت خويلد الأسدية ، أولى أزواج النبي ﷺ ، خطبها وله خمس وعشرون سنة و كانت هي أسن منه بخمس عشرة سنة . رغبت فيه لما رأت من أمانته وبركته حين سافر بتجارتها إلى الشام قبل البعثة وربحت أرباحاً طائلة .

ولها المنة العظمى على المسلمين ، لأنها أول من صدقت بالنبي وبرسالته وحملت معه الأعباء وخدمته وقوّتْ جنانه وصبرته على ما يلقى من العنت . ولدت لرسول الله ﷺ كل أولاده إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية .

و كان رسول الله يكثر من ذكرها والثناء عليها والاستغفار لها حتى

كانت تضيق بهذا الثناء وكثرته بعض زوجاته غيرة منها .
ولم يكن يحب أن يسمع عنها إلا خيراً . وكان يكرم
كل صواحبها ومعارفها وفاء لها ﷺ ورضي عنها .

خلف بن القاسم الإمام أبو القاسم الأندلسي ابن الدباغ . ولد
سنة ٣٢٥ ﻫ حافظ محقق مصنف ورحل إلى مصر ودمشق
وحدث عنه جماعة من الأندلسيين وهو أحد شيوخ ابن
عبد البر ، وكان هذا لا يقدم عليه من شيوخه أحداً
مات سنة ٣٩٣ ﻫ .

تذكرة الحفاظ ٣ : ٢١٥

داود بن علي بن عبد الله بن العباس أبو سليمان الشامي شيخ هاشمي مقل
من الحديث ولي الموسم ومكة واليمن واليمامة مات سنة
١٣٣ ﻫ وهو وال على المدينة وعمره ٥٢ سنة .

ابو ذر الغفاري واسمه جندب بن جنادة أحد السابقين إلى الإسلام
أسلم بعد أربعة . وهو من أجل الصحابة وأفضلهم وأعبدهم
وكان النبي يحبه ويؤانسه ويتفقده إذا غاب ، وقال
فيه : « ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق
لهجة من أبي ذر » وروي فيه أيضاً : « يعيش أمةً
وحده ويموت أمةً وحده ويبعث أمةً وحده » نزل

الشام وصار يجهر فيها بوجوب مواساة الأغنياء للفقراء
واشتدت وطأته على الموسرين فشكوه إلى معاوية فشكاه
إلى عثمان فنفاه إلى الربذة وفيها مات سنة ٣١ هـ . رحمه
الله ورضي عنه .

ابو رافع الفضل بن علي … ابن حزم من أهل قرطبة ، روى عن
أبيه ابن حزم وعن ابن عبد البر وغيرهما و كتب بخطه
علماً كثيراً . مع أدب ونباهة ويقظة وذكاء ، وعنه
عرفنا شيئاً من شؤون أبيه . توفي بالزلاقة سنة ٤٧٩
الصلة الرقم ٩٩٤

ابن راهويه هو إسحاق بن إبراهيم أحد كبار أهل الحديث المقدمين
نزيل نيسابور ، طوّف في البلاد فظهر علمه وأقر الأئمة
الكبار بفضله ، قال أحمد بن حنبل : « لم يعبر الجسر
إلى خراسان مثله » ، « لا أعرف له بالعراق نظيراً » ،
« إسحـاق عندنا إمام من أئمة المسلمين » كان إسحاق
يقول : « لكأني أنظر إلى مئة ألف حديث في كتبي
وثلاثين ألفاً أسردها » . قال الخفاف : « أملى علينا إسحاق
أحد عشر ألف حديث من حفظه ثم قرأها علينا فما
زاد حرفاً ولا نقص حرفاً » . أملى المسند كله من

حفظه مرة وقراه من حفظه مرة . عده ابن حبان من سادات أهل زمانه فقهاً وعلماً وحفظاً وتصنيفاً للكتب وتفريعاً على السنن وذباً عنها وقمعاً لمن خالفها . ولد سنة ١٦١ ومات سنة ٢٣٨ هـ .

الزبير بن العوام أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ من أبطال الإسلام وأحد العشرة المبشرين بالجنة . وهو أول من سل سيفاً في سبيل الله ، وكان ذا غنى عريض ، قتله عمرو بن جرموز غدراً يوم الجمل وقد قام للصلاة سنه ٣٦ هـ وقد نيّف على الستين .

زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله ﷺ وحِبه . وهو المذكور في القرآن في قول الله : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها . » شهد مع رسول الله ﷺ بدراً وغيرها وأرسله أميراً إلى موئتة فقتل هناك سنة ثمان .

زينب بنت جحش أم المؤمنين وهي بنت عمة رسول الله ﷺ كانت تحت زيد بن حارثة فطلقها وأمر الله نبيه بالزواج منها وأنزل الله فيها الآية « فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنها وَطراً زَوَّجْناكَهَا ، لِكَيْلا يَكونَ عَلَىٰ ٱلْمُؤْمِنينَ حَرَجٌ في أَزْوَاجِ أَدْعيائِهِمْ إذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً . . »

وأبطل الله بذلك عادة التبني الجاهلية .

كانت زينب من أكمل النساء ديناً وأعفهن لساناً وأكثرهن عبادة وصدقة وهي أولى أمهات المؤمنين لحوقاً بالنبي ﷺ ماتت سنة عشرين وصلى عليها عمر بن الخطاب وهي أول من وضع على نعش في الإسلام .

تهذيب التهذيب

زينب بنت خزيمة أم المؤمنين وتسمى أم المساكين . تزوجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث وبقيت عنده شهرين أو ثلاثة ثم توفيت في حياته رحمها الله ورضي عنها .

سالم مولى أبي حذيفة من المهاجرين الأولين . وكان من أجلاء الصحابة قتل يوم اليمامة .

سعد بن معاذ صحابي جليل كان سيد الأوس ، ومن السابقين من الأنصار إلى الإسلام . شهد بدراً وأحداً والخندق . ورمي في غزوة الخندق بسهم فعاش بعد ذلك أشهراً ثم انتقض جرحه فمات منه سنة (٥) من الهجرة . وروي في حقه : « اهتز عرش الرحمن لموت سعد » وقد قال عن نفسه . « ثلاث أنا فيهن رجل (يعني كما ينبغي) وما سوى ذلك فأنا رجل من الناس : ماسمعت من رسول الله ﷺ حديثاً قط إلا علمت أنه حق من الله

تعالى ، ولا كنت في صلاة قط فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها ، ولا كنت في جنازة قط فحدثت نفسي بغير ماتقول ويقال لها حتى أنصرف عنها . » قال ابن المسيب : « فهذه الخصال ماكنت أحسبها إلا في نبي .»

سعد بن أبي وقاص الزهري القرشي أول من رمى في سبيل الله بسهم ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة . شهد مع رسول الله ﷺ بدراً . وكان قائداً لحروب الفرس وفتح العراق وبنى الكوفة ووليها لعمر مدة خلافته وطرفاً من خلافة عثمان ثم عزله عثمان . فعاد إلى المدينة واعتزل الفتن كلها ومات بالعقيق فحمل إلى المدينة ودفن فيها سنة ٥٥ هـ .

أبو سعيد الجعفري خلف مولى جعفر الفتى المقري . سكن قرطبة وأخذ عن شيوخها ورحل إلى الشرق فسمع من شيوخ في مكة ومصر والقيروان . « وكان من أهل القرآن والعلم نبيلاً من أهل الفهم ، مائلاً إلى الزهد والانقباض ، خيراً فاضلاً » خرج عن قرطبة في الفتنة وقصد طرطوشة وتوفي بها سنة ٤٢٠ هـ أو ٤٢٩ هـ .

الصلة رقم ٣٧٣

أبو سعيد الخدري سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري

الخزرجي ، صاحب رسول الله ﷺ وملازمه . شهد مع النبي المشاهد وروى عنه الاحاديث وله في الصحيحين ١١٧٠ حديثاً ومات بالمدينة سنة ٧٤ هـ

الأعلام

سعيد بن زيد صحابي جليل من السابقين إلى الإسلام ، أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة . هاجر وشهد مع رسول الله ﷺ أحداً فما بعدها من المشاهد . توفي بالمدينة سنة خمسين وقد نيّف على السبعين .

سفيان الثوري سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي ، أمير المؤمنين في الحديث . قال ابن المبارك : « كتبت عن ألف ومئة شيخ ، ما كتبت عن أفضل من سفيان » وكان واحد زمانه في الفقه والحديث والزهد والعبادة وقد بلغ حديثه ثلاثين ألفاً . قال مالك : « كانت العراق تجيش علينا بالدراهم والثياب ثم صارت تجيش علينا بالعلم منذ جاء سفيان . » ولد سنة ٩٧ هـ وخرج من الكوفة سنة ١٥٠ ولم يرجع إليها ومات بالبصرة سنة ١٦١ هـ .

تهذيب التهذيب

سفيان بن عيينة الكوفي أحد كبار المحدثين الثقات الأوائل كان حافظاً محدثاً ورعاً ثبتاً ولد سنة (١٠٧ هـ) ومات سنة (١٩٨) . ذكروا أنه حج آخر حجة ، فلما كان بجمع قال : « قد وافيت هذا الموضع سبعين مرة ، أقول في كل سنة : (اللهم لا تجعله آخر العهد بهذا المكان) وإني قد استحييت من الله من كثرة ما أسأله ذلك » فلما رجع توفي في رجب من السنة الداخلة .

تهذيب التهذيب وابن سعد

سلمان الفارسي الصحابي الجليل الزاهد . أصله من أصبهان خرج من بلاده متنقلاً في طلب الدين الصحيح حتى سمع ببعث النبي ﷺ فأسر في مخرجه ذلك وبيع بالمدينة . ولما قدمها النبي ﷺ أسلم وشهد معه الخندق فما بعدها . وشهد حروب العراق وولي المدائن .

كان كثير العبادة مع زهد وفقه في الدين كثير الصدقات ينسج الخوص ويأكل من كسب يده فإذا خرج عطاؤه تصدق به جميعه . مات سنة ٣٣ هـ .

ابو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي القرشي . أخو النبي ﷺ من الرضاعة وابن عمته . أحد السابقين إلى

الإسلام هو وامرأته أم سلمة التي صارت بعد موته من أمهات المؤمنين . هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة توفي سنة أربع بعد منصرفه من غزوة أُحد .

أم سلمة هند بنت أبي أُمية المخزومية ، أم المؤمنين . تزوجها رسول الله ﷺ سنة أربع من الهجرة بعد غزوة أُحد و كانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد .

وعاشت بعده ﷺ على غاية من الصيانة والتدين حتى وافاها أجلها سنة ٦١ هـ

سليمان بن داود الشاذكوني محدث بصري حافظ ، من أعلم المحدثين بالرجال وأحفظهم للأبواب . وقد تكلم عليه بعضهم ورووا أنه كان يتماجن . مات سنة ٢٣٤ هـ .

سماك بن خرشة وقيل ابن أوس بن خرشة ، أبو دجانة الصحابي الأنصاري الساعدي الشجاع الباسل . شهد بدراً وأُحداً وجميع المشاهد مع رسول الله ﷺ ، أعطاه رسول الله سيفه يوم أحد وقال : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » فقال أبو دجانة « أنا آخذه بحقه . » فدفعه إليه فقاتل به وأبلى البلاء الحسن . وله مع النبي مواقف مشهودة . ومات شهيداً يوم اليمامة رحمه الله .

سهل بن حنيف أبو ثابت الأوسي الأنصاري . صحابي جليل شهد بدراً والمشاهد كلها وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد وكان بايعه على الموت . ثم صحب علياً من حين بويع فاستخلفه على البصرة وشهد معه صفين وولاه فارس وكان رسول الله ﷺ آخى بين علي وبينه . مات سنة ٣٨ﻫ
تهذيب التهذيب ٤ : ٢٥١

سهل بن سعد الساعدي أنصاري من الخزرج له ولأبيه صحبة ورواية ولد قبل الهجرة بخمس سنين ومات سنة ٨٨ وقيل سنة ٩٦ وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة .

سودة بنت زمعة إحدى أمهات المؤمنين أسلمت وهاجرت . وقد تزوجها النبي بعد خديجة ثم كبرت سنها فآثرت عائشة بيومها تقرباً إلى رسول الله ﷺ وكانت من أتبع الناس له . توفيت سنة ٥٥ ﻫ .

الشافعي محمد بن إدريس صاحب المذهب المعروف باسمه ينتهي نسبه إلى عبد مناف . وهو مكي نزل مصر ورحل إلى اليمن والعراق . وهو من آيات الله الكبار في الحفظ والفهم والعلم والذكاء والتقوى والورع . أفتى وهو ابن خمس عشرة سنة ، ومناقبه معروفة متداولة مشهورة ألفوا فيها

المصنفات الكبار . لم يترك علماً من لغة أو شعر أو أخبار أو فقه أو حديث ، ولا فناً من الفنون إلا أجاده وبرع فيه حتى قالوا إنه ألف كتاباً في (السبق والرمي) لم يسبقه إليه أحد وكان بصيراً بالفروسية والرمي . ومذهبه ومذهب أبي حنيفة أكثر المذاهب انتشاراً في العالم الإسلامي . ولد سنة ١٥٠ هـ ومات آخر رجب سنة ٢٠٤ هـ .

شعبة بن الحجاج الأزدي من كبار المحدثين وأحد العباد المنقطعين إلى الله قال فيه الثوري : « شعبة أمير المؤمنين في الحديث » وقال الشافعي : « لولا شعبة ماعرف الحديث في العراق » ولم ير أعبد لله منه ، لقد عبد الله حتى جف جلده على ظهره ، ولم ير أرحم بمسكين منه ، ولم يدخل عليه داخل في وقت صلاة إلا رآه قائماً يصلي . قال وكيع : « إني لأرجو أن يرفع الله لشعبة في الجنة درجات لذبه عن رسول الله ﷺ » ولما مات قال سفيان : « مات الحديث » وكان من سادات أهل زمانه حفظاً وإتقاناً وورعاً وفضلاً وهو أول من فتش بالعراق عن أمر المحدثين وجانب الضعفاء المتروكين وصار علماً يقتدى به وتبعه عليه بعده أهل العراق » وكان له أخوان

يعالجان الصرف ويعولانه ويقول لأصحاب الحديث :

« الزموا السوق فإنما أنا عيال على إخوتي » .

ومع كونه إمام الأئمة في الحديث كان عالماً بالشعر والنحو واللغة وإليه تعزى الكلمة المشهورة : « تعلموا العربية فإنها تزيد في العقل » رأى أنس بن مالك وسمع من أربعمائة من التابعين ولد سنة ٨٢ ومات في البصرة سنة ١٦٠هـ

انظر تهذيب التهذيب وابن سعد

صفية بنت عبد المطلب بن هاشم ، عمة رسول الله ﷺ أسلمت قبل الهجرة وهاجرت إلى المدينة . وكانت تخرج مع المسلمين إلى القتال مع النساء اللائي يسقين الماء ويداوين الجرحى . وهي سيدة شاعرة باسلة جريئة ؛ أطاف يهودي بحصن كانت فيه هي وجماعة من نساء المسلمين ، فحرضت حسان بن ثابت على قتله فجبن فأخذت عموداً فقتلته به . ولما انهزم المسلمون في أحد تقدمت وبيدها رمح تضرب في وجوه المنهزمين وهي تقول : « انهزمتم عن رسول الله ﷺ » ماتت سنة ٢٠ هـ .

صهيب بن سنان النمري المعروف بالرومي أصله من النمر بن قاسط

سبته الروم وهو غلام فنشأ فيهم ثم هرب إلى مكة
فحالف عبد الله بن جدعان . أسلم قديماً ولقي من
أذى المشركين بمكة شدة وعنتاً وكان من المستضعفين
المعذبين في الله أسلم بعد بضعة وثلاثين رجلاً . وروي
عن رسول الله ﷺ قوله : « صهيب سابق الروم »
وهاجر فأدرك النبي ﷺ بقباء وشهد معه بدراً والمشاهد
بعدها . وإليه أوصى عمر بن الخطاب حين وفاته أن
يصلي بالناس حتى يجتمع أهل الشورى على رجل .
مات بالمدينة سنة ٣٨ هـ عن (٧٣) سنة . وصلى عليه
سعد بن أبي وقاص صاحب رسول الله ﷺ وقائد
المسلمين إلى فتح فارس .

الضحاك بن مخلد أبو عاصم النبيل الشيباني المكي البصري . فقيه
ومحدث جليل ثقة صدوق فيه مزاح . سأل جماعة
الإمام أحمد بن حنبل أن يحدثهم فقال : « تسمعون مني
وأبو عاصم في الحياة ! ؟ اخرجوا إليه . »
مات سنة ٢١٢ هـ .

أبو طالب بن عبد المطلب عم النبي ﷺ والمدافع عنه في أول الدعوة
وقد رد عنه أذى القرشيين وعاش رسول الله منيع الجانب

حتى توفي أبو طالب فاشتد على النبي من بعده الأذى .
كان شديد الحب لرسول الله كثير الحدب عليه ، ولم
يسلم ، وأعقب بنين خدموا الإسلام أجل الخدمات .
مات قبل الهجرة .

طلحة بن عبيد الله التيمي القرشي ، أحد السابقين إلى الإسلام وهو
ابن عم عائشة . شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد
كلها وأبلى البلاء الحسن يوم أحد فقد كان أحد الثابتين
المقاتلين بصبر وثبات ، حمى رسول الله بنفسه ، وقطعت
يده وأصابه جراحات كثيرة . وكان أبو بكر إذا ذكر
عنده يوم أحد قال : « ذلك يوم كان كله لطلحة . »
وكانت له تجارة واسعة إلى العراق ويسمى طلحة الجود
لكرمه . قتل يوم الجمل في صف عائشة ، أصابه
سهم غرب فمات منه سنة ٣٦ هـ .

عائشة بنت أبي بكر الصديق وأحب أمهات المؤمنين إلى رسول
ﷺ بعد خديجة . ولدت بعد مبعث رسول الله ﷺ
بأربع سنين ودخل بها وهي ابنة تسع ومات رسول
الله ولها ثمان عشرة سنة . وكانت من أعلم الصحابة
وأفقههم وأكثرهم حديثاً ورواية للشعر والأخبار مع

انقطاع إلى العبادة وسرد للصوم و كثرة صدقة وقد خدمت الإسلام خدمة جلى بنشرها العلم بعد رسول الله . ماتت بالمدينة ودفنت بالبقيع سنة ٥٨ هـ . وكانت كثيرة الندم لخروجها من بيتها إلى البصرة حتى كان يوم الجمل المشؤوم . وكانت كلما ذكرته بكت حتى تبل خمارها ، رحمها الله ورضي عنها .

عباد بن بشر أبو بشر وأبو الربيع الأنصاري الخزرجي . أسلم بالمدينة على يدي مصعب بن عمير وشهد بدراً والمشاهد كلها . وقتل يوم اليمامة شهيداً وكان له بلاء وغناء وهو ابن خمس وأربعين سنة .

العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وأسن منه بسنتين وكان يلي السقاية والعمارة في الجاهلية وهو من سراة قريش ، تأخر إسلامه وخرج مع قريش إلى بدر كرهاً فأسر وافتدى ، ثم أسلم . وكانت قريش تحبه لصلته الأرحام وسعيه في مصالحها مع عقل ورأي ، وكان النبي والخليفتان من بعده شديدي التعظيم له . مات بالمدينة سنة ٣٢ هـ

ابن عبد البر انظر : يوسف بن عبد الله .

عبد الرحمن بن أبي بكر شقيق عائشة . تأخر إسلامه ، فكان مع المشركين في غزوة بدر وأُحد . ثم أسلم في هدنة الحديبية وشهد اليمامة وأبلى فيها البلاء الحسن . وكان يوم الجمل مع أخته عائشة . وكان أشد أهل الحجاز رفضاً لبيعة يزيد . عرف بالصلاح والصدق والدين ومات سنة ٥٣ فجأة في طريقه إلى مكة قبل أن تتم البيعة ليزيد فنقل إليها .

عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد أبو القاسم ويعرف بابن الخراز . ولد ببجانة سنة ٣٣٨ . كان رجلاً صالحاً منقبضاً ، وكان معاشه من ثياب يبتاعها ببجانة ويقصرها ويحملها إلى قرطبة فتباع له ويبتاع له في ثمنها مايصلح ببجانة . وكان صاحب سنة . توفي بالمرية سنة ٤١١ هـ

الصلة الرقم ٦٨٧

عبد الرحمن بن عوف الزهري القرشي . أحد العشرة المبشرين بالجنة ومن أجلاء الصحابة . شهد مع رسول الله المشاهد كلها واشتهر بالتجارة والثراء وكان كثير الصدقة جواداً شجاعاً تصدق مرة واحدة بقافلة فيها سبعمائة جمل تحمل الحنطة والطعام وأوصى بألف فرس وخمسين ألف دينار في سبيل الله . توفي سنة ٣٢ هـ .

عبد الرحمن بن مهدي أبو سعيد العنبري البصري اللؤلئي . من أئمة حفاظ الحديث . وكان أعلم أهل عصره بالحديث حتى قال الشافعي فيه : « لا أعرف له نظيراً في الدنيا » وله في الحديث تصانيف ومات في البصرة سنة ١٩٨ هـ .

عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي المصري أبو القاسم بن محمد بن أبي يزيد العتكي المصري الصواف النسابة . ولد بمصر سنة ٣٣٣ وقدم الأندلس سنة ٣٩٤ وروى عن شيوخها وكان « رجلاً أديباً حلواً حافظاً للحديث وأسماء الرجال والأخبار وله أشعار حسان في كل فن وكان معاشه من التجارة . » سكن قرطبة حتى إذا كانت الفتنة خرج عن الأندلس ومات بمصر سنة ٤١٠ هـ

الصلة رقم ٧٥٣

أبو هاشم الجبائي (انظر : الجبائي)

عبد الله بن إبراهيم الأصيلي هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي ، فاضل . نسبته إلى أصيلة (مدينة بالمغرب) رحل في طلب العلم وألف كتباً كثيرة .

الأعلام

عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي ، شهد بيعة الرضوان والخندق ، مات

سنة ٨٦ وهو آخر من مات بالكوفة من الصحابة .

عبد الله بن بسر المازني له ولأبيه صحبة . سكن حمص مات سنة (٩٤) هـ وقيل (٩٦) هـ وله مئة سنة

هناك آخر سكسكي سكن البصرة ليس بثقة

وابن بشر قاضي الرقة أصله من الكوفة لابأس به .

عبد الله بن جحش صاحب رسول الله ﷺ ومن السابقين إلى الإسلام . وأمه عمة رسول الله ﷺ : أميمة بنت عبد المطلب . أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم وهاجر إلى الحبشة . ثم أرسله رسول الله على رأس سرية فتسمي أمير المؤمنين ومات شهيداً في غزوة أحد وله بضع وأربعون سنة . ودفن هو وخاله حمزة بن عبد المطلب في قبر واحد . وولي تركته رسول الله ﷺ فاشترى لابنه مالاً بخيبر .

ابن سعد

عبد الله بن الحارث بن جزء أبو الحارث الزبيدي نزيل مصر له صحبة ورواية . وكان اسمه العاصي فسماه رسول الله ﷺ عبد الله . مات سنة (٨٦) هـ وقد عمي وهو آخر من مات بمصر من الصحابة .

أبو عبد الله الحميدي محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي من أهل جزيرة ميورقة وأصله من قرطبة ، روى عن ابن حزم فأكثر واختص به وبه عرف وبصحبته اشتهر فهو تلميذه الخاص . رحل إلى المشرق سنة ٤٤٨ فحج وأخذ عن رواة الحديث بمكة ومصر وإفريقية والشام والعراق واستوطن بغداد وصار إماماً من أئمة المسلمين في حفظه ومعرفته وإتقانه وثقته وصدقه ونبله حتى قال بعض الأكابر ممن لقي الأئمة : « لم تر عيناي مثله في فضله ونبله ونزاهة نفسه وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم وبثه في أهله » كان إماماً في علم الحديث وعلله ومعرفة متونه ورواته ، محققاً في علم الأصول على مذهب أصحاب الحديث ، متبحراً في علم الأدب والعربية . وله تصانيف جمة غزيرة الفائدة في التاريخ والأدب والمواعظ والفقه والحديث . وكان من كثرة اجتهاده ينسخ بالليل في الحر ويجلس في إجانة ماء يتبرد به . هذا وقد صار ظاهرياً على مذهب ابن حزم إلا أنه لم يكن يتظاهر به .

ولد قبل سنة ٤٢٠ وتوفي ببغداد سنة ٤٨٨ هـ .

نفح الطيب ١ : ٣٧٥

عبد الله بن دينار أبو عبد الرحمن العدوي المدني مولى ابن عمر .
محدث ثقة ثبت من صالحي التابعين . من المكثرين من
رواية الحديث والذين روى عنهم جماعة كبيرة . مات
سنة ١٢٧ هـ .

تهذيب التهذيب ٥ : ٢٠١

عبد الله بن دينار أبو محمد البهراني الحمصي ، محدث ضعفه بعض النقاد .

عبد الله بن ربيع التميمي ويعرف بأبي محمد ابن بنّوش من أهل قرطبة
ولد سنة ٣٣٠ هـ وقرأ على شيوخ بلده ثم رحل إلى المشرق
فحج ، ولقي شيوخ المشرق فكتب عنهم وأخذ العلم
ورجع إلى الأندلس . فروى عنه جماعة من علمائها
« وكان ثقة ثبتاً ديناً فاضلاً من أهل العلم والحديث
مع العدالة » وممن أخذ عنه ابن حزم . وتوفي سنة ٤١٥ هـ .

الصلة رقم : ٥٧٦

عبد الله بن الزبير ولد سنة الهجرة وفرح المسلمون بمولده فرحاً عظيماً
لأنه أول مولود في الإسلام وحنكه النبي وكان من الشجعان
الفرسان شهد وقعة اليرموك وكان له شأن في حياة
المسلمين السياسية . شهد الجمل مع عائشة وأبيه وبويع
بالخلافة بعد مقتل الحسين بن علي وعظم أمره في الحجاز واليمن

والعراق وخراسان ثم حاصر الحجاج مكة ورماها بالمنجنيق فقتله حجر من حجارة المنجنيق سنة ٧٢ هـ .

وموقف أمه أسماء منه قبل المعركة من أروع المواقف في تاريخ البطولة .

عبد الله بن عباس عالم المسلمين وحبر هذه الأمة وأعلمها بالحلال والحرام . ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ولازم النبي ﷺ واستفاد بملازمته علماً غزيراً وكان عمر يستفتيه على حداثة سنه ويدخله مع أجلة المهاجرين . كان نادرة الدنيا ذكاءً وعقلاً . مات سنة ٦٨ هـ .

عبد الله بن عمر بن الخطاب أحد علماء الصحابة وفقهائهم وعبادهم . هاجر مع أبيه وشهد بيعة الرضوان والخندق .

اشتهر بصلابة دينه وشدة ورعه وابتعاده عن كل شر . كثير العبادة والاجتهاد فيها . مات سنة ٧٤ هـ .

عبد الله . ابن الفرضي أبو الوليد بن محمد بن يوسف الأزدي ؛ الحافظ المشهور صاحب كتاب (تاريخ علماء الأندلس) ولد سنة ٣٥١ هـ وقرأ على شيوخها ثم رحل إلى المشرق سنة ٣٨٢ فحج وأخذ عن علماء مكة ومصر والقيروان ورجع إلى الأندلس وقد جمع علماً

كثيراً وصنف كتابه المذكور وبلغ بـه النهاية من الإتقان وله غيره تواليف في أخبار الشعراء وفي اللغـة والأنساب . وهو من أقران ابن عبد البر الحافظ ، عالم بفنون الحديث وعلم الرجال ، جليل مقـدم عامل بعلمه « لم ير مثله بقرطبة في سعة الرواية وحفظ الحديث ومعرفة الرجال والافتنان في العلوم ، إلى الأدب البارع والفصاحة المطبوعة » وكان جماعاً للكتب لم يجمع جمعه أحد من عظماء البلد ، حسن الشعر والبلاغة والخط . تقلد قراءة الكتب بعهد العامرية واستقضاه محمد المهدي بكورة بلنسية . وقتل في فتنة قرطبة سنة ٤٠٣ هـ .

الصلة رقم ٥٦٧

عبد الله بن المبارك أحد أئمة الحديث الكبار ولد لأم خوارزميـة وأب تركي ، فقيه عالم عابد زاهد شيخ شجاع شاعر . جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة والزهد والورع والإنصات وقيام الليل والعبادة والحج والغزو والفروسية والشجاعة والشدة في بدنه وترك مالا يعنيه وقلة الخلاف لأصحابه . وكان إلى هذا تاجراً سخياً ودوداً . شهد له أكابر الأئمة الشهادات العاليـة

قال شعيب بن حرب : « إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل ابن المبارك فما أقدر ولا ثلاثة أيام » ، « ما لقي ابن المبارك رجلاً إلا وابن المبارك أفضل منه » وقال ابن عيينة : « نظرت في أمر الصحابة فما رأيت لهم فضلاً على ابن المبارك إلا بصحبتهم رسول الله ﷺ وغزوهم معه . » وقال ابن مهدي وقد سئل عنه وعن سفيان « لو جهد سفيان جهده على أن يكون يوماً مثل عبد الله لم يقدر . » مع كيسه وشدة تثبته وكونه ثقة عالماً صحيح الحديث . وكانت كتبه التي حدث بها عشرين ألفاً على ماذكر ابن حجر وكان إسماعيل بن عياش يقول : « ما على الأرض مثل ابن المبارك ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها فيه » وكانت فيه خصال لم تجتمع لأحد من أهل العلم في زمانه في الأرض كلها . وكان ابن المبارك يقول « كتبت عن ألف شيخ . »

استؤذن له يوماً على مالك فتزحزح له في مجلسه وكان مالك لا يتزحزح لأحد في مجلسه غيره ، وكان القارئ يقرأ على مالك فربما مر بشيء فيسأله مالك : « ما عندكم

في هذا ؟ » فكان عبد الله يجيبه في الخفاء ، ثم قام فخرج ، فأعجب مالك بأدبه وقال لأصحابه : « هذا ابن المبارك فقيه أهل خراسان . » روى رواية كثيرة وصنف كتباً كثيرة في أبواب العلم ، وقال الشعر في الزهد والحث على الجهاد وعرف في زمانه بالصلاح وأنه مجاب الدعوة . رحل إلى العراق والحجاز والشام ومصر واليمن . ولد سنة ١١٨ هـ ومات بهيت منصرفاً من الغزو سنة ١٨١ هـ

ابن سعد وتهذيب التهذيب

عبد الله بن مسعود الهذلي من السابقين إلى الإسلام وهو أول من جهر بقراءة القرآن بمكة ، وكان من أفاضل الصحابة وأجلائهم وعلمائهم . خدم رسول الله ﷺ في ظعنه وإقامته وغزواته ثم ولي بيت مال الكوفة وقدم المدينة أيام عثمان حتى توفي سنة ٣٢ هـ .

عبد الله بن هبيرة السبائي الحضرمي المصري ، محدث ثقة معروف ولد عام الجماعة سنة (٤١) ومات سنة ١٢٦ هـ .

عبد الله بن يوسف بن نامي أبو محمد الرهوني ولد سنة ٣٤٨ هـ وسمع من شيوخ قرطبة ، « كان صالحاً خيّراً فاضلاً لا يقف بباب

أحد ، ولا يزول عن تأديبه بمسجد أبي خالد بالمدينة ، مجوداً للقرآن ، قديم الطلب حسن الخلق شديد الانقباض جيد العقل خاشعاً كثير البكاء ، متحرياً فيما يسمع متحفظاً به ورعاً في دينه » واختلط في آخر عمره فترك الأخذ عنه . توفي سنة ٤٣٥ هـ

الصلة رقم ٥٩٠

عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي العظيم . ولد نحو سنة ٢٥ هـ ونشأ عابداً ناسكاً قد جالس الفقهاء وحفظ عنهم . واستعمله معاوية على المدينة وبويع سنة ٦٥ هـ وكان أحزم خلفاء بني أمية وأعقلهم وأحسنهم إدارة مات سنة ٨٦ هـ

القاضي عبد الوهاب أبو محمد بن علي بن نصر ، قاض فقيه كان شيخ المالكية وعالمهم في عصره ، له نظم ومعرفة بالأدب . ولد ببغداد سنة ٣٦٢ وولي القضاء في العراق فرحل إلى الشام ومر بمعرة النعمان واجتمع بأبي العلاء وتوجه إلى مصر فعلت شهرته وتوفي فيها سنة ٤٢٢ هـ وله كتب جليلة في فقه المالكية

الأعلام

عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي . رأى النبي ﷺ وروى عنه وهو أصغر من أخيه عبد الله بسنة . وكان

سخياً جواداً استعمله علي على اليمن ، وحج بالناس سنتي (٣٦) و (٣٧) هـ .

دخل أعرابي دار العباس وفي جانبها عبد الله لا يرجع في شيء يسأل عنه ، وفي الجانب الآخر عبيدالله يطعم كل من دخل فقال الأعرابي : « كل من أراد الدنيا والآخرة فعليه بدار العباس » مات بالمدينة سنة ٥٨ هـ

أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي ، أمين هذه الأمة أحد العشرة المبشرين بالجنة أسلم مع السابقين وهاجر إلى المدينة وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان قائد جيوش الشام ثم وليها أيام عمر بن الخطاب وتوفي بطاعون عمواس ودفن في غور بيسان سنة ١٨ هـ ولو بقي حياً لاستخلفه عمر بن الخطاب .

عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف . من أول الناس إسلاماً أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم وهو أسن من النبي بعشر سنين ، ثم هاجر إلى المدينة . وعقد له النبي لواء عَلَى ستين راكباً فلقوا أبا سفيان بن حرب فكان بين الفريقين رمي فقط .

قتل عبيدة يوم بدر وهو ابن ثلاث وستين سنة فتولى دفنه رسول الله بنفسه .

ابن سعد

عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين الذي بذل ماله في تعزيز الإسلام .

وهو أموي ولد بمكة قبل الهجرة بسبع وأربعين سنة . وكان وجيهاً في قريش من موسريهم . جهز نصف جيش تبوك من ماله ، وكان النبي كثير الحب كثير الدعاء له . وفي عهد خلافته فتحت أكثر الأمصار الإسلامية في إفريقية وآسية . وأخذ الناس في الأمصار على مصحف واحد ، ثم ذهب شهيداً سنة ٣٥ ﻫ .

عثمان بن مظعون الجمحي . كان أحد الذين حرموا على أنفسهم الخمر في الجاهلية وكان من حكماء العرب . أسلم مع السابقين وهاجر إلى الحبشة مرتين وشهد مع رسول الله ﷺ غزوة بدر . ومات في السنة الثانية وحزن النبي لموته وكان يحبه فقبله ميتاً وإن دموعه لتنحدر على خد عثمان رحمه الله .

أبو عثمان النهدي هو عبد الله بن عمرو ، أحد الشجعان المقدمين

من أصحاب المختار الثقفي . شهد صفين مع علي ، وشهد مع المختار أكثر وقائعه ، وقتل معه في حرب مصعب ابن الزبير على مقربة من الكوفة سنة ٦٧ هـ .

الأعلام

عقبة بن خالد أبو مسعود السكوني الكوفي المجدر . محدث ثقة صالح الحديث . مات في الكوفة سنة (١٨٨) هـ في خلافة الرشيد

تهذيب التهذيب وابن سعد

عقيل بن ابي طالب أخو علي ، أسلم عام الفتح وكان من أعلم قريش بأنسابهم وأخبارهم قوي البديهة ، ذا جواب مسكت . لم يكن مع أخيه علي في شيء من أمره توفي آخر خلافة معاوية .

على بن سعيد العبدري أبو الحسن ، من أهل جزيرة ميورقة . سمع بها قديماً من ابن حزمٍ ، وأخذ عنه ابن حزم . ثم رحل إلى المشرق وحج ودخل بغداد وترك مذهب ابن حزم واتبع الشافعي وألف في الفقه على مذهبه و كان من أهل الفضل والمعرفة والأدب .

مات ببغداد بعد سنة ٤٩١ هـ .

الصلة رقم : ٩٠٣

علي بن ابي طالب الخليفة الرابع . أول من أسلم من الأحداث . ثم شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها إلا تبوك فقد خلفه رسول الله على المدينة . عاش على عهد الصديق والفاروق وذي النورين وزيراً لهم يشاورونه وكان من أقضى الصحابة وأعلمهم وأعبدهم وأصلبهم ديناً . وقضى عهد خلافته في حرب الخارجين عليه . قتل سنة (٤٠) ه في الكوفة وله ثلاث وستون سنة .

عمار بن ياسر القيسي مولى بني مخزوم . أحد المستضعفين المعذبين في الإسلام . أسلم هو وأبوه قديماً وقتل أبو جهل أمه فكانت أول شهيد في الإسلام . وكان يمر عليهم رسول الله وهم يعذبون فيقول: « صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة » . هاجر إلى المدينة وشهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها ، وأسهم في حروب الردة وقطعت أذنه يوم اليمامة . وشهد صفين مع علي وكان من أكبر أنصاره وفيها قتل سنة ٣٧ ه وقد نيف على التسعين .

ابو عمر ابن الجسور أحمد بن الجسور الأموي ولاء . من أهل قرطبه ولد سنة ٣١٩ وسمع بقرطبة من شيوخها . حافظ للحديث والرأي متقدم في العلم والفهم ، محدث مكثر قديم

الطلب ، عارف بأسماء الرجال . فاضل أديب شاعر .
قال ابن حزم : وهو أول شيخ سمعت منه قبل الأربعمائة .
توفي بالطاعون سنة ٤٠١ هـ

الصلة رقم : ٣٧

عمر بن حمزة بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . راوية للحديث وقد
عد بعضهم حديثه مناكير وجعله ممن يخطئ في الحديث
وقال الحاكم في المستدرك : أحاديثه كلها مستقيمة .

تهذيب التهذيب ٧ : ٤٣٧

عمر بن الخطاب العدوي القرشي . الخليفة الثاني وواضع الأسس التي
لا مثيل لها في السياسة والإدارة ، والصورة العليا للعدل
الإنساني المطلق .

من أشراف قريش في الجاهلية وإليه السفارة فيها . أسلم
بعد أربعين رجلا واعتز الإسلام به . ثم هاجر وشهد مع
النبي المشاهد كلها ، وكان وزير أبي بكر . ولما آلت
إليه الخلافة سار خير سيرة وفتح الله عليه العراق والشام
ومصر . ولي الخلافة عشر سنين وقتل سنة (٢٣) هـ وعمره
ثلاث وستون سنة وقيل تسع وخمسون .

عمر ابن واجب أبو حفص عمر بن محمد بن واجب من أهل بلنسية .
كان صاحب أحكام بلنسية ، من أهل الفضل والجلالة .

رحل إلى الحجاز للحج ومـات في حدود الستين ، سنة ٤٧٠ هـ أو ٤٧٦ هـ على خلاف في ذلك .

الصلة رقم : ٨٦٢

عمرو بن العاص السهمي القرشي . أسلم في هـدنة الحديبية وأمره النبي في غزوة ذات السلاسل وافتتح قنسرين أيام عمر وتولى صلح أهل حلب ومنبج . ثم كان فاتح مصر وواليها لعمر ثم عزله عثمان . ولما نشب الخلاف بين علي ومعاوية ، كان مع معاوية ، ولما استتب لمعاوية الأمر ولاه مصر وفيها توفي سنة ٤٣ هـ وهو أحد دهاة العرب المشهورين ومن رجال الإسلام الأفذاذ .

عمرو بن مرة الجملي المرادي أبو عبد الله الكوفي الأعمى . محدث صدوق ثقة له نحو مئتي حديث ، وكان مأمونا على ما عنده ومن أكثر طبقته علماً . مع اجتهاد في العبادة ، قيل فيه : « لم يزل في الناس بقية حتى دخل عمرو بن مرة في الأرجاء فتهافت الناس عليه » وهو أحد أربعة في الكوفة لا يختلف في حديثهم .

مات سنة ١١٨ هـ .

فاطمة بنت رسول الله ﷺ وزوج علي بن أبي طالب .

بني بها بعد غزوة أحدوقد نيفت على الخامسة عشرة ، وولدت له الحسن والحسين ومنهما نسل رسول الله ﷺ . وكانت من أحب الناس إلى أبيها وأول أهله لحوقاً به . توفيت سنة إحدى عشرة وسنها حول الثلاثين .

الفضل بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي . أكبر أولاد العباس ، غزا مع رسول الله ﷺ مكة وحنيناً وثبت يومئذ مع النبي حين ولى الناس ، وشهد معه حجة الوداع . وكان فيمن غسّل رسول الله وولي دفنه . ثم خرج بعد ذلك إلى الشام فمات بناحية الأردن في طاعون عمواس سنة (١٨) ه في خلافة عمر بن الخطاب

ابن سعد ٧ : ١٢٣

الفضيل بن عياض كان أول أمره شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس . وسبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تالياً يتلو : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ . . » فلما سمعها قال : « بلى يارب قد آن » فرجع فآواه الليل إلى خربة فإذا فيها جماعة ، فقال بعضهم « نرتحل » وقال بعضهم : « حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق

يقطع علينا » ففكر فضيل وقال في نفسه : « أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين يخافونني هاهنا وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع ، اللهم إني قد تبت إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام »

ولد بخراسان وقدم الكوفة وهو كبير ثم تعبد وجاور بمكة إلى أن مات بها سنة ١٨٧ هـ

وكان ثقة نبيلاً فاضلاً عابداً ورعاً كثير الحديث عن رسول الله ﷺ شديد الخشية من الله غزير الدمعة حتى كان ابن المبارك يقول : « وأما أورع الناس ففضيل بن عياض » ويقول : « مابقي على ظهر الأرض عندي أفضل من فضيل » ويقول : « إذا نظرت إلى فضيل جدد لي الحزن ومقت نفسي » ثم يبكي .

وقال هارون الرشيد : « مارأيت في العلماء أهيب من مالك ولا أروع من الفضيل » وعدوه حجة لأهل زمانه ، يتحرى الحلال فلا يدخل بطنه غيره وقال خادمه : « مارأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل ، كان إذا ذكر الله عنده أو سمع القرآن ظهر به الخوف والحزن ، وفاضت عيناه فبكى حتى

يرحمه من بحضرته ٠

تهذيب التهذيب وابن سعد

قاسم بن أصبغ البياني القرطبي محدث الأندلس ٠ صنف كتباً في الحديث والقرآن والآثار والأنساب ولد سنة ٢٤٧ ومات بقرطبة سنة ٣٤٠ هـ

قثم بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي ٠ كان يشبه برسول الله ﷺ وغزا خراسان وتوفي بسمرقند سنة (٥٧) هـ وكان ورعاً فاضلاً

ابن سعد ٧ : ١٠١ وتهذيب التهذيب ٨ : ٣٦١

أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وأحد صناديد قريش ومن عادى الإسلام أشد العداء ، وآذى رسول الله الأذية البالغة ٠ وكان منه على المسلمين شر عظيم

الليث بن سعد هو إمام المصريين وفقيههم ومفتيهم ، حج ورحل إلى العراق لم ير أكمل منه ، كان فقيهاً عربي اللسان يحسن القرآن ٠ والنحو ويحفظ الحديث والشعر ، حسن المذاكرة لم ير مثله ٠ قيل له « إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك » فقال : « أو كل مافي صدري في كتبي ؟ لو كتبت مافي صدري ماوسعه هذا المركب » وبلغ في العلم والفقه

والحديث درجة جعلت الشافعي يقول : « الليث أفقه من مالك ، إلا أن أصحابه لم يقوموا به » و « الليث أتبع للأثر من مالك » وما زال أهل مصر يتنقصون عثمان ابن عفان حتى حدثهم الليث بفضائله فكفوا . هذا على كرم وافر ونعمة فاشية ، ذكر من صحبه في سفر من الإسكندرية : « أن معه ثلاث سفائن ، فسفينة فيها مطبخه وسفينة فيها عياله وسفينة فيها أضيافه » وكان دخله كل سنة ثمانين ألف دينار ما أوجب الله عليه زكاة !! قال عبد الله بن صالح : « صحبت الليث عشرين سنة لايتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس . » ولد سنة ٩٤ ومات سنة ١٧٥ هـ .

مالك بن أنس الإمام الكبير إمام دار الهجرة وأحد أعلام الاسلام ، ينتهي نسبه إلى حمير كان محدثاً فقيهاً ثقة حجة مأموناً وهو أول من وضع نقد الرجال وتخرج به الإمام الشافعي . لم يكن بعد التابعين أنبل منه ولا أجل ولا أوثق ولا آمن على الحديث ولا أقل رواية عن الضعفاء ، مع دين وتقوى وورع وصلابة . وقد ضربه بعض الولاة لأنه لم يجز طلاق المكره . ومناقبه ذائعة مشهورة وأفردت سيرته بالتصنيف وهو ثالث الأئمة الأربعة

في كثرة الأتباع. قال الشافعي : « مالك حجة الله على خلقه بعد التابعين » ولد سنة ٩٣ هـ ومات سنة ١٧٩ هـ عن خمس وثمانين سنة ودفن بالبقيع .

محمد بن ابي بكر الصديق ولد سنة عشر من الهجرة في حجة الوداع ، وتربى في بيت علي بن أبي طالب زوج أمه بعد أبيه ، وكان في جيش علي يوم الجمل ، ثم ولاه علي مصر بعد رجوعه من صفين فدخلها سنة ٣٧ هـ .

ولما ولي معاوية بعث عمرو بن العاص في جيوش الشام ليملك مصر ، فجرى بين جيوش الشام وجيش محمد بن أبي بكر قتال انتهى بانهزام المصريين وقتل محمد . كان عابداً مجتهداً وكان علي يكثر الثناء عليه .

محمد بن جرير الطبري أحد أئمة التاريخ والتفسير . ولد في آمل بطبرستان سنة (٢٢٤ هـ) وتوفي ببغداد سنة (٣١٠ هـ) وهو أوثق من نقل التاريخ ، وتفسيره من أوسع التفاسير وأغزرها علماً وتحقيقاً . كان مجتهداً في أحكام الدين لم يقلد غيره وتبعه على مذهبه جماعة ثم انقرض . صنف في خلاف الفقهاء وفي القراءات ، وأكثر ما يشتهر بكتابه التاريخي الضخم (أخبار الرسل والملوك) المعروف بتاريخ

الطبري وهو في ١٣ مجلداً وتفسيره الواسع : (جامع البيان في تفسير القرآن) المعروف بتفسير الطبري وهو في ٣١ جزءاً .

محمد بن سعيد بن السري[١] أبو عبد الله الأموي الحرار من أهل قرطبة رحل إلى المشرق وأخذ عن شيوخه ثم رجع وصنف المؤلفات المفيدة . « امتحن في العصبية مع محمد بن أبي عامر وأخرجه عن قرطبة ثم عاد إليها . و كانت العامة تعظمه ، قتلته البربر يوم دخولهم قرطبة وقد كان استقبلهم شاهراً سيفه يناديهم : (إليّ إليّ يا حطب النار ، طوبى لي إن كنت من قتلاكم) حتى قتلوه رحمه الله يوم الاثنين لست من شوال سنة ٤٠٣ هـ .

الصلة رقم ١٠٣٦

محمد بن سعيد[٢] أبو عبد الله بن عمر بن نبات شيخ من شيوخ

---

(١) في الأصل : محمد بن سعيد بن سات ولم نجد لهذا الاسم ترجمة وقد يحتمل أن يكون سات محرفة عن السري فأثبتنا ترجمته . غير جازمين بأنه هو كما ترجمنا فيما بعد لمحمد بن سعيد ابن نبات للاحتمال نفسه .

(٢) ترجمنا لمحمد بن سعيد ابن نبات هنا لظننا أنه أقرب اسم يجوز أن يحرف عن محمد بن سعيد بن سات . وانظر أيضاً ترجمة محمد بن سعيد بن السري .

الحديث دين ورع فاضل زاهد صحب الشيوخ وأكثر من الإفادة مات سنة ٤٢٩هعن سن عالية بلغت ثلاثاً وتسعين

بغية الملتمس رقم ١٣ وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي رقم الترجمة ١٧١٠

محمد بن الطيب الباقلاني (انظر : الباقلاني)

محمد بن العباس البغدادي إمام حافظ محدث بارع ثقة مأمون ، أحسن الناس قراءة للحديث ، خلف ثمانية عشر صندوقاً مملوءة كتباً أكثرها بخطه . وكان غايـة في الضبط حجة في النقل . لم يزل يسمع إلى أن مات سنة ٣٨٤ه وعاش بضعاً وستين سنة .

ابو محمد بن العربي عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربي المعـافري من أهل إشبيلية . ولد سنة ٤٣٥ ه وسمع ببلده من شيوخها ثم بقرطبة أيضاً . حج سنة ٨٥ وسمع بالشام والعراق والحجاز ومصر . وكان من أهل الآداب الواسعة واللغة والبراعة والذكاء والتقدم في معرفة الخبر والشعر والافتنان بالعلوم وبجمعها . كاتب بليغ فصيح يقظ من أهل الصيانة والجلالة . توفي منصرفه من الشرق ، بمصر سنة ٤٩٣ ه .

الصلة رقم : ٦٣٠

محمد بن المثنى أبو موسى العنزي البصري . حافظ ثبت حجة مارئي بالبصرة أثبت منه ، صالح الحديث صدوق ، احتج الأئمة بحديثه . ولد سنة ١٦٧ ومات سنة ٢٥٢ هـ

تذكرة الحفاظ ٢ : ٨٦ تهذيب التهذيب ٩ : ٤٢٥

أبو مروان بن حيان حيان بن خلف .. ابن حيان مولى بني أمية من أهل قرطبة وصاحب تاريخها . كان بارعاً بالآداب والأخبار فصيح اللسان بليغ العبارة صدوقاً . وهو حامل لواء التاريخ بالأندلس كلها وأحسن الناس نظماً له ، قوي المعرفة ، حسن التحري و كان لايتعمد كذباً فيما يحكيه في تاريخه من النصوص والأخبار .

بلغ سناً عالية وتوفي سنه ٤٦٩ هـ وقد نيف على التسعين

الصلة رقم ٣٤٢

مسروق بن الأجدع أبوه الأجدع بن مالك أفرس فارس باليمن . ومسروق تابعي لقي الصحابة وروى عنهم وهو محدث ثقة صالح و كان « أعلم بالفتوى من شريح وشريح أعلم بالقضاء » .

حج فلم ينم إلا ساجداً و كان من عباد أهل الكوفة ، كثير الاجتهاد في العبادة ذكرت امرأته أنه كان يصلي

حتى تورمت قدماه . قاتل يوم القادسية فشلت يده .

مات سنة ٦٣ هـ وله من العمر ثلاث وستون سنة .

مسعر بن كدام أحد أعلام الكوفة في الحديث جم الأدب كثير التثبت ثقة مأمون . شهد هشام بن عروة بأنه لم يقدم عليهم من العراق أفضل منه . وكان يسمى المصحف لجودة حفظه وقلة خطئه . ولم يسمع حديثاً قط إلا في المسجد الجامع وكانت له أم عابدة فكان يحمل لبداً ويمشي معها حتى يدخلا المسجد فيبسط لها اللبد فتقوم فتصلي ويتقدم هو إلى مقدم المسجد فيصلي ثم يقعد فيجتمع إليه من يريد فيحدثهم ثم ينصرف إلى أمه فيحمل لبدها وينصرف معها ولم يكن له مأوى إلا منزله والمسجد .

كان الثوري يقول : « كنا إذا اختلفنا في شيء سألنا عنه مسعراً » وقال وكيع : « شك مسعر كيقين غيره . »

دعاه مرة أبو جعفر المنصور ليوليه فقال له : « إن أهلي يقولون لي : لانرضى اشتراءك في شيء بدرهمين وأنت تولبني ! ؟ » فأعفاه . وكان لاينام حتى يقرأ نصف القرآن وفيه يقول ابن المبارك من أبيات :

من كان ملتمساً جليساً صالحاً   فليأت حلقة مسعر بن كدام

روى عن مئة شيخ لم يرو عنهم سفيان الثوري .

مات مسعر والمحدثون يرونه من خيارهم . ومع هذا لم يشهد سفيان جنازته لأنه كان مرجئاً توفي بالكوفة سنة ١٥٥ في خلافة المنصور .

ابن سعد وتهذيب التهذيب

مسعود بن سليمان بن مفلت أبو الخيار الشنتريني . من أهل قرطبة .

روى عنه أحد العلماء هذا البيت :

نافس المحسن في إحسانه   فسيكفيك مسيئاً عمله

وقال فيه : « لم يزل أبو الخيار هذا طالباً متواضعاً عالماً متعلماً إلى أن لقي الله عز وجل على هذه الحال . »

وكان داوودي المذهب يقول بالظاهر ولا يرى التقليد .

توفي سنة ٤٢٦ هـ .

الصلة رقم ١٢٣٨

وبغية الملتمس رقم ١٣٦١

مسلم بن الحجاج هو الإمام مسلم أبو الحسين القشيري النيسابوري ، الحافظ الكبير من أئمة المحدثين . ولد بنيسابور سنة (٢٠٤) هـ ورحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق . وتوفي بظاهر نيسابور . وقد ألف مصنفات كثيرة

في الحديث ورجاله أهمها صحيحه المشهور المعتمد عند
أهل السنة .

الأعلام

مسلم بن عقبة المري ، قائد من الشجعان الدهاة . أدرك النبي وشهد
صفين مع معاوية . وولاه يزيد قيادة الجيش الذي
أرسله لتأديب أهل المدينة ، فغزاها وأباحها بعد أن
قتل منهم مقتلة عظيمة في وقعة الحرة .
وتوجه إلى مكة فمات في الطريق .

مصعب بن عمير .. ابن هاشم بن عبد مناف ، من فتيان قريش في
الجاهلية وأحد السابقين إلى الإسلام والذين خرجوا في
سبيله عن دنياهم ونعمتهم ، هاجر إلى الحبشة وشهد
بدراً ، وحمل اللواء يوم أحد فقتل شهيداً .

معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي صاحب رسول الله ﷺ . أسلم
وهو ابن ثماني عشرة سنة وشهد بدراً والعقبة والمشاهد وهو أحد
أربعة من الأنصار جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ و كان
أعلم الصحابة بالحلال والحرام . ومن قول عمر بن الخطاب فيه :
« عجزت النساء أن تلدن مثل معاذ ، لولا معاذ هلك عمر »
مات سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة وهو ابن أربع وثلاثين .

معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية وباني الملك العربي .

أسلم يوم الفتح ولبث أميراً في الشام عشرين سنة وعشرين

سنة خليفة . وعقله ودهاؤه وحسن إدارته وسياسته . . .

مضرب الأمثال . مات سنة (٦) وهو ابن ست وثمانين

معبد بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي . ولد على عهد النبي ولم

يحفظ عنه .

واستشهد بإفريقية زمن عثمان بن عفان سنة ٣٥ هـ في

غزوة غزاها مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

أسد الغابة ٤ : ٢١٠

المعتمر بن سليمان أبو محمد التيمي ، محدث البصرة في عصره ،

حافظ ثقة ، روى عنه كثيرون منهم أحمد بن حنبل

وألف في المغازي .

ولد سنة ١٠٦ هـ ومات سنة ١٨٧ هـ .

الأعلام

المغيرة بن شعبة ولد في الطائف وأسلم سنة خمس وشهد مع رسول

الله ﷺ الخندق وغيرها . ثم حضر فتوح الشام وفقد

عينه في اليرموك .

ولاه عمر البصرة وعزله ثم ولاه الكوفة فبقي عليها

صدراً من خلافة عثمان ثم عزله . واعتزل الفتن حتى
إذا هدأت ولاه معاوية الكوفة فلم يزل عليها حتى
مات سنة ٥٠ هـ

وهو أحد دهاة العرب المشهورين

المقداد بن الأسود صحابي من السابقين إلى الإسلام وهاجر إلى
الحبشة ثم إلى المدينة . وشهد مع رسول الله ﷺ
المشاهد كلها ومات سنة ٣٣ هـ عن سبعين عاماً .

مكي بن أبي طالب أبو محمد القيسي مكي بن أبي طالب حموش بن
محمد بن مختار القيسي المقرئ . أصله من القيروان
وانتقل إلى الأندلس وسكن قرطبة وهو من أهل
التبحر في العلوم خصوصاً القرآن كثير التصنيف
والتصانيف عاش اثنتين وثمانين سنة ورحل غير مرة
وحج وجاور وتوسع في الرواية وبعد صيته وقصده
الناس من النواحي لعلمه ودينه وولي خطابة قرطبة
لأبي الحزم جهور و كان مشهوراً بالصلاح وإجابة الدعوة
حسن الفهم والخلق ، جيد الدين والعقل . وحج أربع
حجج متوالية ثم رجع من مكة إلى مصر ثم إلى القيروان
ثم ارتحل إلى الأندلس ، ثم صنف التصانيف الكثيرة

منها : (الهداية إلى بلوغ النهاية) في معاني القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه وهو سبعون جزءاً ، و (كتاب التبصرة في القراءات) في خمسة أجزاء وهو من أشهر تآليفه . و (كتاب المأثور عن مالك في أحكام القرآن وتفسيره) عشرة أجزاء ، و كتاب (مشكل المعاني والتفسير) خمسة عشر جزءاً . ومصنفاته تفوت العد كثرة ومن نظمه قوله من قصيدة :

عليك بإقلال الزيارة إنها
إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكا
ألم تر أن الغيث يسأم دائماً
ويطلب بالأيدي إذا هو أمسكا

وتوفي سنة ٤٣٧ هـ .

شذرات الذهب ٣ : ٢٦٠

منصور بن المعتمر أحد أعلام الكوفة في الحديث والعبادة والزهد . كان لا يروي إلا عن ثقة حتى قالوا فيه « إذا حدثك عن منصور ثقة فقد ملأت يديك ولا تريد غيره » وجعلوه من أثبت أهل الكوفة . وقال الثوري : « ما بالكوفة آمن على الحديث من منصور . » أكره

على القضاء شهرين . وكان قد عمش من البكاء وصام ستين سنة وقامها ، وقالت فتاة لأبيها : « يا أبت الأسطوانة التي كانت في دار منصور ما فعلت ؟ » قال : « يا بنية ذاك منصور يصلي بالليل فمات . » وكانت له خرقة ينشف بها عينيه .

توفي منصور في آخر سنة ١٣٢ هـ .

المهلب بن أبي صفرة أبو سعيد البصري تابعي أدرك الصحابة وروى عنهم . نزل أبوه البصرة وبها نشأ ولده . وهو الأمير صاحب حروب الأزارقة وأخباره معهم كثيرة مشهورة ولي خراسان من قبل الحجاج تسع سنين . وكان أشجع الناس ، حمى البصرة من الخوارج بعد أن جلا عنها من أهلها من كانت به قوة .

ولد عام الفتح ومات سنة ٨٣ هـ وله ست وسبعون سنة .

أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس . هاجر إلى الحبشة ثم قدم المدينة . وولاه رسول الله على زبيد وعدن . ثم استعمله عمر على الكوفة ثم البصرة . وتولى الكوفة لعثمان وفتح على يديه عدة أمصار . ثم كان أحد الحكمين في صفين .

كان عالماً فقيهاً نشر علمه في أهل البصرة وكان من
القراء للقرآن توفي بين سنتي ٤٢ — ٥٣ ﻫ

موسى بن عقبة الأسدي مولى آل الزبير . محدث ثقة ثبت كثير
الحديث . وكان مالك يقول : « عليكم بمغازي موسى
ابن عقبة فإنها أصح المغازي وإنه ثقة . »
ولم يكن بالمدينة أعلم بالمغازي منه ، وكان يفتي .
مات سنة ١٤١ ﻫ .

تهذيب التهذيب ١٠ : ٣٦١

النعمان بن عدي صحابي من مهاجرة الحبشة ، ولاه عمر ميسان ثم
بلغه عنه شعر قاله في الشراب فعزله .

الإصابة

ام هانئ بنت أبي طالب ، اسمها فاختة وقيل هند وهي شقيقة الإمام
علي وإخوته . وقد خطبها رسول الله ﷺ ولم يتزوجها
روت الحديث عن رسول الله ورواه عنها جماعة . أسلمت
يوم الفتح وماتت في خلافة معاوية .

أبو هريرة كان في الجاهلية يتيماً من الضعفاء . فلما كان الإسلام
قدم المدينة وأسلم سنة سبع ولزم صحبة النبي ﷺ لم
يفارقه . ولذا كان أكثر الصحابة حديثاً عن رسول الله

استعمله عمر على البحرين ، واستخلفه مروان على المدينة . وبها توفي عام ٥٩ هـ .

وكيع هو ابن الجراح الكوفي ، ثقة مأمون رفيع القدر كثير الحديث حجة وكانت إليه الرحلة في زمانه ، لم ير في زمانه أحفظ منه للحديث حتى كان يقول إسحاق بن راهويه أحد الحفاظ المحدثين المكثرين : (كان حفظ وكيع طبعاً وحفظنا بتكلف) ذكر من صاحبه في الحضر والسفر أنه كان يصوم الدهر ويختم كل ليلة . وجالسه رجل سبع سنين فما رآه بزق ولا مس حصاة ولا تحرك من مجلسه إلا مستقبل القبلة وما حلف بالله العظيم قط ، وكان يؤتى بطعامه ولباسه ولا يسأل عن شيء ولا يطلب شيئاً . وقد فضلوه على الثوري والشافعي وابن المبارك في الحديث . ومن قوله : (دواء الحفظ ترك المعاصي ما جربت مثله للحفظ) قال مروان بن محمد : (ما وصف لي أحد إلا رأيته دون الصفة ، إلا وكيع فإني رأيته فوق ما وصف لي) وكان أحمد بن حنبل يقول : (عليكم بمصنفات وكيع) ولما حج انفضت حلقات المحدثين بمكة كلها وانجفل الناس إليه يسمعون

حديثه ، وأصحاب الحلقات يومئذ هم أكابر المحدثين ·
ولد سنة ١٢٨ هـ ومات منصرفه من الحج في المحرم سنة
١٩٧ هـ ·

ابن سعد وتهذيب التهذيب

أبو الوليد الباجي هو سليمان بن خلف بن سعيد الباجي الأندلسي
المالكي ولد سنة ٤٠٣ هـ ومات سنة ٤٧٤ هـ ؛ فقيه كبير
من رجال الحديث · أصله من بطليوس ومولده في (باجة)
في الأندلس · ورحل إلى الحجاز سنة ٤٢٦ هـ فمكث
ثلاثة أعوام وأقام ببغداد ثلاثة أعوام وبالموصل عاماً
وفي دمشق وحلب مدة ، وعاد إلى الأندلس فولي القضاء
في بعض أنحائها وتوفي بالمرية · من كتبه (السراج
في علم الحجاج) و (أحكام الأصول) و (الحدود)
و (الإشارة) في أصول الفقه و (فرق الفقهاء) و
(المنتقى « مخطوط ») كبير في شرح موطأ مالك و (شرح
المدونة) و (التعديل والتجريح لمن روى عنه البخاري
في الصحيح)

الأعلام

يحيى ابن مسعود أبو بكر بن عبد الرحمن بن مسعود بن موسى
يعرف بابن وجه الجنة ، من أهل قرطبة ولد سنة ٣٠٤ هـ ·

أخذ عن شيوخ بلده وكان رجلاً صالحاً عدلاً ، عمّر عمراً طويلا وحدث عنه جماعة من العلماء . توفي سنة ٤٠٢ هـ .

الصلة رقم ١٣٤١

يوسف بن عبد الله أبو عمر بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الإمام الحافظ الحجة صاحب التصانيف المشهورة في الحديث والرجال . سمع من كثيرين وأخذ عنه كثيرون لم يعرف في الأندلس أحفظ منه ولا مثله في الفقه والحديث . ومن كتبه المشهورة جداً : كتاب (الاستيعاب) وهو مطبوع في مجلدين « وكان موفقاً في التأليف معاناً عليه ونفع الله بتآليفه » جلا عن وطنه قرطبة إلى الغرب مدة وولي قضاء لشبونة وشنترين ثم تجول إلى شرق الأندلس وسكن منه دانية وبلنسية وشاطبة وبها مات سنة ٤٦٣ هـ وقد نيف على المئة [1] وترك تواليف جامعة كثيرة الفائدة في الفقه والسير والحديث ولقب بحافظ المغرب .

الأعلام والصلة رقم : ١٣٨٦

---

(١) في « الأعلام » للزركلي أنه ولد بقرطبة سنة ٣٦٨ هـ فإن صح هذا يكن مات قبل بلوغه المئة .

يونس بن عبد الله القاضي أبو الوليد ويعرف بابن الصفـار ، قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة والخطبة بجامعها . ولد سنة ٣٣٨ هـ . سمع من كثيرين في بلده وكتب إليه بعض علماء المشرق . ولي القضاء أول أمره ببطليوس ، ثم ولي خطة الشورى ثم كانت له أحكام القضاء والخطبة والصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة مع الوزارة . كان كثير الرواية ، من أهل العلم بالفقه والحديث ، مع حظ وافر من العربية وطبع جيد في الشعر يقوله في معاني الزهد ، بليغاً في خطبه ، كثير الخشوع فيها ، لايكاد يتمالك من سمعه عن البكاء وكان من الخاشعين البكائين القانتين ، لازم الصالحين كثيراً وحفظ أخبارهم وترسم خطاهم وألف في الزهد والزاهدين كتباً عدة . مات سنة ٤٢٩ هـ

الصلة رقم ١٣٩٧

ابي بن كعب[١] خزرجي من بني النجار صحابي أنصـاري . كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود مطلعاً على الكتب القديمة ، يكتب ويقرأ . ولما أسلم صار من كتاب الوحي وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله

---

(١) فاتتنا إثبات ترجمة أبي في مكانها فاستدر كناها هنا .

وشهد مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس . وأمره عثمان بجمع القرآن فاشترك في جمعه

وفيه ورد الحديث : (أقرأ أمتي أبي بن كعب)

توفي سنة ٢١ هـ .

الأعلام

داود بن علي الأصفهاني[1] أبو سليمان ، وهو أول من استعمل قول الظاهر وأخذ بالكتاب والسنة وألغى ما سوى ذلك من الرأي والقياس . وكان فاضلاً صادقاً ورعاً .

توفي سنة ٢٧٠ هـ . وعد له ابن النديم في الفهرست فوق ستين ومئة كتاب .

الفهرست

---

(١) ترجمنا خطأ لداود بن علي بن عبد الله بن العباس مكان الأصفهاني هذا .

فهارس الكتاب

ملاحظة :

١ – أسقط في بحثك في الفهارس هذه الكلمات :

الـ[١] أبو ، أم ، ابن ، ابن أبي ، ابن أم ، أولاد ، بنو ، بنو أبي ، بنت أبي ، آل أبي ٠

٢ – الرقم الصغير يشير إلى مقدار تكرر الاسم في الصفحة الواحدة ٠

٣ – أصلح الاخطاء التي تجد بيانها آخر الكتاب قبل بحثك في الفهارس

---

(١) إلا في فهرس الايات والاحاديث فإن (ال) فيهما معتبرة ٠

١ – فهرس الاعلام

ب

ت

ث

ج

ش

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ى

٢ - فهرس الجماعات

ر

ز

س

ش

ص

م

٣ - فهرس الأماكن

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

غ

ف

ق

ك

ن

هـ

ى

٤ – فهرس الكتب

ب

ت

ج

ح

خ

د

ذ

ر

س

ش

٥- فهرس الآيات القرآنية (١)

أ

---

(١) وضعنا هذا الفهرس لأن مذهب ابن حزم في تفسير الآيات قيم جداً واستشهاده بها في المواطن آية في البلاغة . وله في الغوص على أسرارها ودقة الاستنباط منها مالا يخطر ببال مخلوق وما يتفرد به بين الأئمة العظام المجتهدين .

ولعل أهم ما يعني الباحث ، معرفة مذهبه في تفسير آية ما . وذلك ماحدانا إلى تنظيم الآيات التي وردت في رسالته استشهاداً أوتأويلا أو رداً على المذهب الشائع في تفسيرها أو .. في فهرس خاص . هذا وقد يستشهد بجملة من وسط الآية فاعتبرنا أول حرف من الجملة المستشهد بها ، واعتبرنا الرسم في الترتيب على الحروف فتنبه لذلك .

ت

ث

ج

خ

ذ

ر

س

غ

ف

ق

ك

ل

ى

٦ – فهرس الأحاديث النبوية [1]

أ

---

(١) نظمنا هذا الفهرس للسبب نفسه الذي حدانا على وضع فهرس الآيات الكريمة . وقد يستشهد ابن حزم بجملة من حديث يحكيها بعد (أن) أو (أنه) فاعتبرنا الحرف الذي بعد هاتين الكلمتين غالباً .

ك

ل

م



٧ – فهرس الأشعار [١]

(١) مراعي فيها حرف الروي ثم أول البيت

البيت		الصفحة
لئن أصبحت مرتحلاً بجسمي	فقلبي عندكم أبداً مقيمُ	٩٣
من كان ملتمساً جليساً صالحاً	فليأت حلقة مسعر بن كدام	٣٣٨
مهذبة بيضاء كالشمس إن بدت	وسائر أرباب الجمال نجومُ	١٠٠
وأشعث قوام بآيات ربه	قليل الأذى فيما نرى العين مسلم	١٣٧

ن

البيت		الصفحة
إن لله رجالاً فطنا	طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا	١٥٤
جراحات السنان لها التئام	ولا يلتام ما جرح اللسان	١٣١
فقلت هل عيبهم لي غير أني لا	أقول بالرأي إذ في رأيهم أفن	٦٧ و ١٤١
قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت	أقوالهم وأقاويل العدى محنُ	١٤١
قلبي يحب وإنما	أخلاقه فيه ودينهْ	١٠٨
كخط يرى رسمه ظاهراً	وإن طلبوا شرحه لم يبنْ	٧٩
كذب المدعي هوى اثنين حتماً	مثل ما في الأصول: أكذب ماني	٨٨
هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا	فجائعه تبقى ولذاته تفني	٩١

ى

البيت		الصفحة
منعت جمال وجهك مقلتيا	ولفظك قد ضننت به عليّا	١٠٥

٨ – فهرس الأيام المشهورة[١]

---

(١) بحرب أو غزوة أو بيعة أو عهد أو فتح ٠٠ إلخ مما ورد في الرسالة وذيلها ٠

فهرس الموضوعات

الصفحة

الصفحة

الصفحة

استدراكات

١ — سها الطابع عن اثبات البسملة أول الرسالة

٢ — نقلنا سنداً عن ط فيه (أحمد بن عمر بن عبد الخالق البران) في حاشية ص ٢٢٨ فأثبتناه على خطئه ، وصوابه أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار ، وكذلك (البزاز) الواردة في ص ١٨٨ صوابها بالراء

٣ — ذكرنا الطلمنكي في شيوخ ابن حزم مرتين سهواً : مرة بكنيته واسمه أبي عمر أحمد بن الحسين ومرة بكنيته ولقبه ابي عمر الطلمنكي . وكذلك عبد الله بن ربيع التميمي فقد أعيد ذكره بكنيته : أبي محمد ابن بنوش

٤ — سقطت من حاشية ص ١٩٩ هذه التعليقة على عمرو بن حمزة :

كذا في الأصل وفي ط ، والصواب : عمر بن حمزة كما في تهذيب التهذيب

٥ — الصواب أن يكون السطر الثالث من ٢٦٨ غير مشكول

٦ — وقعت بعض أغلاط مطبعية نشير اليها لتصلح :

ص	س	الخطأ	الصواب
١٩	١	د	ب
٣٥	٢	بامي	نامي
٤٨	١	وأعجب	واعجب
٩٤	٤	جلد	جد
١١٧	١٠	الحسين	الحسن
١٢٥	١٨	١٤	١١٤
١٤٣	٦	التي لم	لم
١٧٨	١١	) و	و
٢٠٠	١٨	المنفرد	المنقود
٢٠٢	٦	محبته	محبة
٢٠٤	١٨	قاموس الاعلام	الاعلام
٢٢٢	٤	بشادتهم	بشهادتهم
٢٥٣	٣	من	أما
	٢٠	في الاصل : وأما والتصحيح عن ط	«ومن»
٢٥٥	١٣	وَمَنْ	وَمَن
٢٥٧	١	فلا	ولا
	١٥	فلا	ولا
	١٦	لأزالته	لازالته
٢٦٧	٥	٥٧	٧٥
	١٥	١-١٠١	١٠١-١٠٣
٢٧٢	٣	يؤلها	يؤولها
	١١	انه ؛ »	انه
٢٧٢	١٥	(٤) الآيتان	(٣) الآيتان
٢٧٣	٥	مصطفون	مصطفون على
	١٣	لهم)	(لهم)
٢٨٠	٢٠	١٣٠٧	١٣١٧
	١٢	الذهب	الذهب ، الاعلام
٢٨٥	٨	والصلة ٣ : ٢٨٠	٣ : ٢٨٠ والصلة

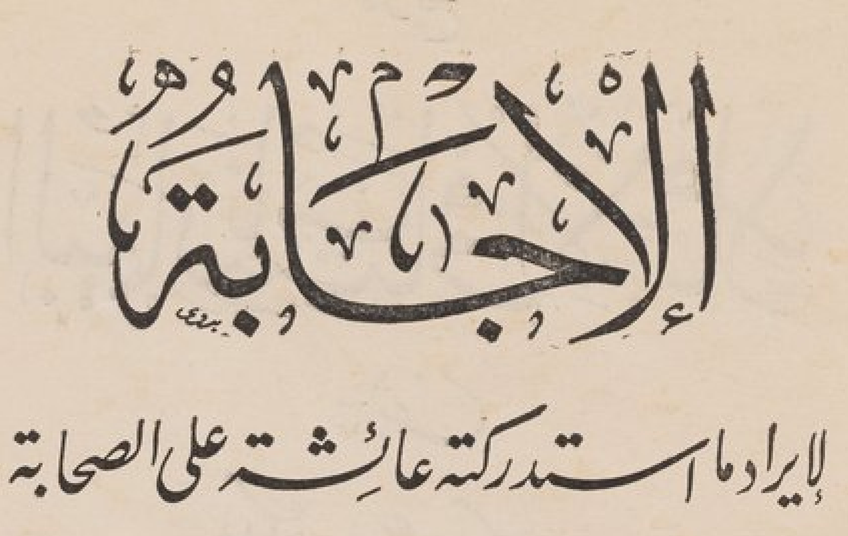
للمؤلف :

أسواق العرب

في الجاهليّة والإسلام

كتاب في ٤٦٥ صفحة يصور تاريخ العرب وأحوالهم الاجتماعية وآدابهم ومتاجرهم وعلائقهم بالأمم المجاورة ، بحيث تتجلى لمطالعه صورة صحيحة عن العرب في جاهليتهم وصدر إسلامهم . تطالعه فكأنك تعيش معهم في أسواقهم العامة (معارضهم الكبرى) فلا يفوتك من حياتهم وتفاصيلها شيء مما تفقده في كتب التاريخ .

مذيل بفهارس وافية مع خريطة لأسواقهم وتنقلاتهم فيها .

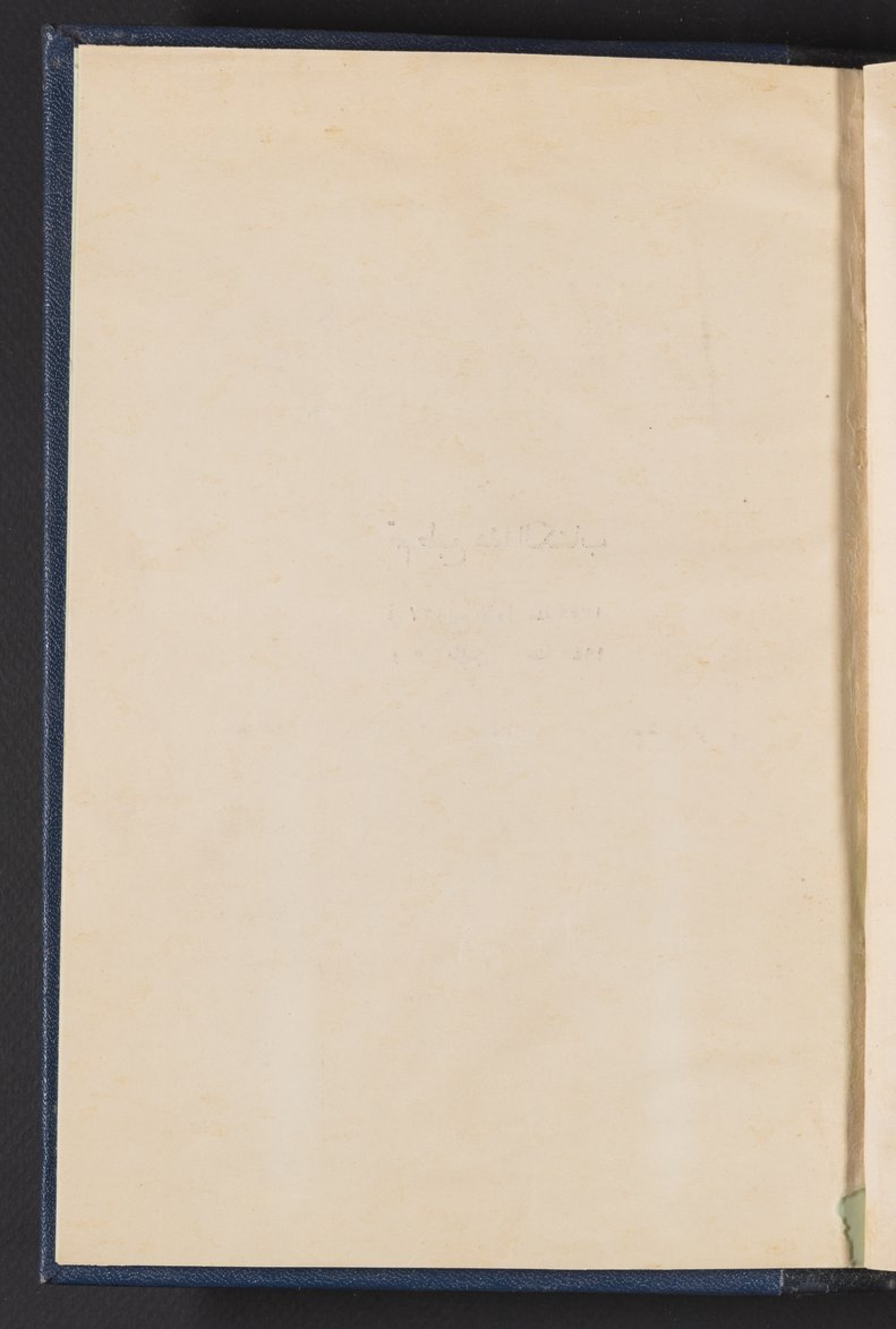


تأليف

الإمام بدر الدّين الزركشي

الكتاب الذي يعد سجلا خالداً لمجد المرأة العلمي ، وهو أصدق صورة لثقافة المرأة العربية ومكانتها في صدر الإسلام .

صدر عن مخطوط فريد في العالم في ٣٣٠ صفحة من القطع الكبير ، حافلاً بالتعاليق والتحقيقات ، مذيلاً بفهارس وافية تضاعف الفائدة منه .



تم طبع هذا الكتاب

في ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٥٩

و ٥ مايس سنة ١٩٤٠

